عبد الرزاق الخشروم

الغربة في الشعر الجاهلي

دراسة

منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق ١٩٨٢

الغربة

في الشعر الجاهلي

http://abbassa.wordpress.com تحميل كتب

الغربة في الشعر الجاهلي

عبد الرزاق الخشروم

مُقدّمة

ظل الشعراء العرب ، منذ الاسلام ، وحتى الوقت الحاضر ، ينظرون الى الشعر الجاهلي على أنه مثال يحتذى ، وظلوا في شعرهم يدورون في فلكه فكرا وفنا • ولئن وجدت بعض المحاولات للخروج عليه ، فانها ظلت محاولات متفردة لم تشكل تيارا جارفا • وانما كانت جداول تصب اخيرا في النهر الكبير •

ما هو السر في شعرنا الجاهلي ؟ وهل استطاع نقادنا اكتشاف هذا السر ؟• مما لا جدال فيه أن الشعر العربي ظل ينظر الى الشعر الجاهلي على أنه النموذج الكامل • أهو سحر القديم ؟ أم هو عقل العربي الذي يميل الى الثباتوتقديس الماضي ؟ اننا ننظر الى الآراء ، التي قيلت في هذا الشعر في العصر الحديث ، وننظر الى تراث كبير من نقدنا القديم ، فنجد اتفاقا على ضرورة الاهتمام بالشعر الجاهلي ، على الرغم من الاختلاف في النظرة • فنقادنا القدماء ظلوا، مثل الشعراء ، يدورون في فلك الشعر الجاهلي مثلما تدور الذرات حول النواة • ونقادنا المعاصرون طالبوا بالعودة الى التراث ، أو بقراءة جديدة لهذا الشعر تعيد الحياة اليه وتجعله خالداً ومستمرا • وهؤلاء أيضا كان منهم المجحفون الذين يقرؤون الشعر الجاهلي بعقلية الأوربي المعاصر ، وكان منهم المنصفون الذين قرؤوا الشعر الجاهلي ضمن معطيات عصره وحضارة ذلك العصر • هؤلاء لم يأتوا بالنظريات الجاهزة ليصبوا الشعر الجاهلي فيها • وانما قرؤوا النص الجاهلي الذي قاله الشاعر الجاهلي على أرض شبهالجزيرة العربية التي تتميز بجغرافية محددة ، وحضارة لها مواصفات محددة ، وفي مرحلة تاريخية محددة • ثم استفادوا من ثقافتهم المعاصرة في فهم هذه التجربة المتميزة ، التي استطاعت أن تبقى ماثلة حتى اليوم •

ولعلي وضعت نفسي بين هؤلاء حين اقدمت على دراسة الغربة في الشعر الجاهلي • اذ انني مؤمن بأن في ذلك الشعر ما هو مخبأ منذ أكثر من اربعة عشر قرنا ، وعلينا اكتشافه • لهذا لم أدرس الغربة من خلال فهم مجتمع الغرب المعاصر لها ، وانما كما وجدتها في نصوص الشعر الجاهلي •

كان لا بد اذاً من تمهيد ، أبدأ فيه بتعريف الغربة ، كما ورد في كتب اللغة العربية • ثم أميز بين نوعين من الغربة ، الاولى نشأت بدافع القهر والثانية بدافع الذات • ثم أبحث في العوامل التي أدت الى نشوء هذه الغربة • بعدها قسمت الدراسة الى ثلاثة فصول :

تناولت في الفصل الاول الغربة عن الوطن والاهل • فحددت مفهوم الوطن في الجاهلية وأهل الشاعر ، ثم رصدت غربته عن هذا الوطن وهؤلاء الاهل من خلال الشعر ، والاخبار أحيانا • وأخذت شاعرا ، كانت حياته غربة قاسية بعيدا عن وطنه وأهله ، هو المتلمس الضبعي ، فتحدثت عنه •

وتناولت في الفصل الثاني الغربة عن المجتمع • فتحدثت عن الغراب ، وخصصت عنترة بحديث خاص • ثم تحدثت عن الدعي والخليع والفقير والصعلوك ، وتناولت الشنفرى في لاميته أنموذجا للصعلوك ، وأخيرا تحدثت عن الاسير والسجين من خلال غربة عدي بن زيد في سجنه • وختمت الفصل بالحديث عن الجار والحليف وذيلته بالحديث عن غربة الحارث بن ظالم •

وكان الفصل الثالث في الغربة عن الذات • فقدمت الشاعر الجاهلي وهو يرفض الالتزام بواجبات العصبية خارجا عليها ومستهترا • ومثلت بطرفة بن العبد ، فدرست غربته • ثم انتقلت الى الحديث عن الحنين الى الماضي ، فذكرت الطلل وذكر الشعراء له • ودرست نصين في الاطلال لعبيد بن الابرص وامرىء القيس • ثم تحدثت عن الشيخوخة ودرست نصين لعبيد بن الابرص والجميح • ثم تحدثت عن تغير الدهر والغربة بعد الموت ، والغربة الدينية ، وكانت خاتمة المطاف •

وهذه الدراسة ، ان كانت تطمح الى قراءة جديدة للشعر الجاهلي ، من خلال العودة الى التراث القديم وقراءته قراءة معاصرة ، ربما قد وقعت في عثرات اقتضتها طبيعة المادة المتوفرة بين يدي من جهة ، وصعوبة تناول الشعر القديم من خلال مفهوم معاصر .

ولقد كان همي الأول والأخير أن أوضح أن في شعرنا العربي القديم جوانب انسانية هامة غير المديح والهجاء والفخر ... وأننا يجب أن نميط اللثام عن هذه الجوانب ونغني دراساتنا النقدية بها .

وتظل الدراسة هذه استجابة لنداء الدارسين المعاصرين للأدب العربي القديم بضرورة قراءته قراءة ثانية بعيدة عن الوصف ومستخدمة منهجا واضحا ومجددا يكشف جوانب مخبأة وهامة في هذا الأدب .

أشير أخيرا الى أن أي دارس لا بد أن يخفق في بعض عمله ، خاصة اذا كان في بداية الطريق ، وأنه لا بد من الخطوة الاولى ، كي يصل الانسان الى غايته المنشودة .

حلب ٢٢ شباط ١٩٨١

عبد الرزاق

تمهيد

١ ـ الغربة والاغتراب في المجتمع الجاهلي :

أ ـ غربة القهر

ب ـ غربة الذات

٢ ـ عوامل الغربة في المجتمع الجاهلي :

آ ـ العامل الطبيعي

ب ـ العامل الاجتماعي (سياسي وقبلي ـ اقتصادي)

جـ ـ العامل النفسي ٠

الغربة والاغتراب في المجتمع الجاهلي

يقول ابن منظور في مادة (غ ر ب)[1] :

« ... والغَرْبُ : الذهاب والتنحي عن الناس . وقد غرب يغرُب غربا ، وغرّب ، وأغرب وغرّبه ، وأغربَهُ : نحّاه . وفي الحديث : أن النبي . (ص) . أمر بتغريب الزاني اذا لم يُحصن ، وهو نفيه عن بلده .

والغَرْبة والغَرْب : النوى والبعد . وقد تغرّب ، قال ساعدة بن جؤيّة يصف سحابا :

« ثم انتهى بصري وأصبح جالسا ، منه لنجد ، طائف متغرّب » .

...... وقيل : غرّب في الأرض وأغرب اذا آمعن فيها . قال ذو الرمة :

« أدنى تقاذفه التغريب والخبب »

ونوى غربة : بعيدة . وغربة النوى : بعدها . قال الشاعر :

« وشطّ وَليُ النوى ، إنّ النوى قذُف

تيّاحةٌ غَرْبةٌ بالدار أحيانا »

---

١ ــ لسان العرب ، ابن منظور ، مادة (غرب) .

النوى : المكان الذي تنوي أن تأتيه في سفرك • ودارهم غَربة : نائيــة •

•••••• والتغريب : النفي عن البلــد ••••• وفي الحديث : أن رجلا قال له : ان امرأتي لا ترد يد لامس . فقال : غرِّبْها أي أبعدها . يريــد الطلاق •

•••• والغُربة والغُرب : النزوح عن الوطن والاغتراب . قــال المتلمس :

« ألا أبلغا أفناء سعد بن مــالك

رسالةً من قد صار ، في الغُرب ، جانبه »

والاغتراب والتغريب كذلك •

وغريب : بعيد عن وطنه ، والجمع غرباء . والأنثى غريبة •••••

وفي الحديث : أن النبي (ص) سئل عن الغرباء . فقال : الذين يحيون ما أمات الناس من سنتي • وفي حديث آخــر : ان الاسلام بدأ غريبا ، وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء ••••

واغترب الرجل : نكح في الغرائب ••••• وفي الحديث : اغتربوا لا تضووا •••• والاغتراب : افتعال من الغربة •

••••• وأغرب الرجل : صار غريبا •••••• ورجل غريب : ليس من القوم •••••• وتثنيته غربان ، قال طهمان بن عمرو الكلابي :

« وإني والعبسيَّ ، في أرض مذحج ،

غريبان ، شتى الـدار ، مختلفـان

وما كـان غض الطرف منا سجيـةً

ولـكننـا في مذحـج غُرُبـان »

وفي (المخصص)[٢] لابن سـيده • يروي عـن صاحب العين : « أغْربتُه وغرّبتُه : نحّيتُه • •••• بنو الغبراء : الغربـاء •••••

أبو عبيد : الشجير : الغريب أبو زيد : النقيل : الغريب في القوم وان رافقهم أو جاورهم والأنثى نقيلة •

ابن السكيت : قوم عدا : غرباء ، وأنشد :

اذا كنتَ في قومٍ عِدا لست منهم

فكُلْ ما عُلفتَ من خبيث وطيِّب

•••••••

أبو زيد : الحميل : الغريب في القوم لا يُعرف نسبه • »

ان ما يورده اللسان ، والمخصص من معاني الغربة والاغتراب يمكن ايجازه على هذا النحو :

أولا : هناك تمييز جلي بين نوعين من الغربة ، هذان النوعان يمكن أن نسميهما بغربة القهر ، وغربة الذات • فالغريب : هو من كان بعيدا عن وطنه وأهله ، ومن كان في غير قومه وأرضه ، والمغترب : هو من قصد الغربة (اغترب : نكح في الغرائب) وهو افتعال من الغربة •

٢ ـ المخصص ، ابن سيده ، ج ١٢ ص ٥١ وما بعد •

ثانيا : هناك غربة مادية تتجلى في البعد عن الوطن والأهل مثلا . وغربة معنوية تتجلى في الخروج على مبادىء الناس وتقاليدهم وأعرافهم (ان الاسلام بدأ غريبا) والغرباء هم (الذين يحيون ما أمات الناس من سنتي) .

ثالثا : ان لفظة (غرب) تتسع لكثير من المعاني الحسية والمعنوية . وان تعدد استعمالاتها هذا ناجم عن طبيعة الحياة في المجتمع الجاهلي القائمة على التنقل المستمر وعلى النظام القبلي .

ومن هنا فحين عزمت على دراسة موضوع الغربة في الشعر الجاهلي فقد ميزت بين نوعين من الغربة :

أولا : غربة القهر . ليس للانسان سلطة فيها وانما اصطلحت مجموعة عوامل على خلقها . وقد تجلت في الغربة عن الوطن والأهل وفي الغربة عن المجتمع .

ثانيا : غربة الذات . قصد اليها الانسان الجاهلي قصدا . وتجلت في حنينه الى الماضي ، وتغير الدهر عليه . وخروجه على القبيلة وعلى القيم الدينية والروحية التي كان يؤمن بها المجتمع الجاهلي ، وآثرت أن أسميها اغترابا . لأنها افتعال .

ويبدو أن الغربة عاشت مع الانسان منذ بداية حياته فهو منذ بدأ يضرب في الأرض : « قد حمل بين جوانحه ضروبا من الاحساس بالغربة حتى لقد تلونت قطاعات عريضة من أدبه بعد ذلك بهذا الاحساس »(٣) .

وفي الحياة العربية وجدت دواع كثيرة للغربة والاغتراب(٤) فقد

---

٣ ـ الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث . د . ماهر حسين فهمي ، ص ٧ .

٤ ـ سنفصل الحديث عنها في الحديث عن عوامل الغربة في المجتمع الجاهلي .

كان القلق يسيطر على الانسان العربي في ذلك العصر . ولعل لغياب السلطة المركزية . والدين . فضلا عن العامل الذاتي ، والطبيعي ، الأثر الكبير في نشوء ظاهرة الاغتراب منذ القديم ذلك أن « جذور » هذا الاغتراب قديمة في الشعر العربي . اذ ان العربي قد حمل ضروبا من الاحساس بالغربة في هذه الصحراء المترامية . وربما كانت أسطورة الحارث الجرهمي التي يذكرها وهب بن منبه في كتاب التيجان . وتصور زوال الجراهمة . وبقاء الحارث وحده في التيه والغربة ـ في الواقع رمزاً لحياة العربي التي تضرب في المتاهات بلا انقطاع . ورحيله الذي لا يهدأ وراء المطر والكلأ .

ولذلك كانت مطالع القصائد الجاهلية في كثير من الاحيان حديثا عن الاطلال ـ بقايا وطنه المهجور ـ واحساسا بالغربة بعد الأنس ، وحنينا طويلا الى ديار أحبابه الراحلين . الذين هم بالنسبة له كأبناء الوطن بالنسبة للمعاصر »[٥] .

وقد عرف الجاهلي ضروبا من الغربة ، عبر عنها الشعر . وقد أسهمت الطبيعة الصحراوية وأسلوب الحياة الرعوي . والنظام القبلي القائم على احترام العصبية . صونا للمجتمع وحفاظا على تماسكه . والتنقل الدائم في تحديد غربة الانسان الجاهلي . فقد تترك قبيلة موطنها بحثا عن موطن صغير آخر تتوافر فيه أسباب حياتها ومواشيها . وتخلف وراءها أرضا وأناسا وذكريات ، أو يذهب الشاعر بعيدا عن قومه وموطنهم ، فيذكر الوطن وساكنيه في غربته أو موطنه الجديد . فهذه غربة فرضتها طبيعة الحياة وهي خارجة عموما عن ارادة الانسان .

وقد يولد الانسان لأمة سوداء فيظل لونه يلاحقه ويكون عليه

---

٥ ـ الوطن في الشعر العربي من الجاهلية الى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي ، د. وهيب طنوس ص ٣٣١ .

سبة ، أو يكون فقيرا فيتصعلك ، أو يرتكب خطيئة فيخلع ، أو يؤسر في احدى غزوات القبائل الكثيرة ، أو يسجن ، أو يضطر الى النزول بقوم لا يمت اليهم بصلة النسب فيكون في كل هذه الحالات غريبا . ولكن هذا ليس بارادته أيضا فهو غريب غربة القهر ، والحياة ، والمجتمع •

× أما حين يجد الانسان نفسه في موقف الرافض لقيم المجتمع ، المستهتر بها ، أو بالعصبية التي قام عليها النظام القبلي خاصة ، وحين يحن الى الماضي متذكرا الأيام الماضية بحلاوتها ، وعزها • وحين يفكر في غده ، ويستشعر مأساة الموت التي تخيم شبحا فوق حياته • وحين يرفض قيم مجتمعه الروحية والدينية ، فان كل هذا قد تم بارادته ، وبرغبة منه ، انه يقصد الاغتراب هنا . ولهذا فاننا نسمي اغترابه ، اغترابا عن الذات •

وربما أمكن القول ان هذا التقسيم ، ليس مفتعلا وانمااقتضته طبيعة المادة الشعرية التي كونت شعر الغربة • ولهذا فاننا نسمي كل غربة حصلت قهرا غربة • وكل غربة حصلت طوعا اغترابا •

★ ★ ★

عوامل الغربة في المجتمع الجاهلي

ان ظاهرة الغربة في المجتمع الجاهلي ليست وليدة رغبة شاعر ، وهي ليست تقليدا فنيا أيضا ، وانما هي حاجة فرضها واقع شبه جزيرة العرب بكل ما فيه • في موقعه الجغرافي ، وفي صحاريه وحرارته ، وفي نظامه السياسي والاجتماعي والقبلي ، وفي ظروف القلق التي كان يعيشها العربي •

ودراسة عوامل الغربة في المجتمع الجاهلي تضعنا أمام الظاهرة واضحة جلية • لأنها ليست معزولة عن طبيعة الحياة التي عاشها العربي الجاهلي ، والحق أن كل ما في حياته كان مدعاة للغربة ، ولابد من التعرض لهذه العوامل كي ندرك أثرها البيّن في الانسان •

أولا ـ العامل الطبيعي

شبه الجزيرة العربية هي تلك المنطقة التي تقع الى الجنوب من بلاد الشام وتمتد جنوبا حتى بحر العرب والمحيط الهندي ، يقع البحر الأحمر على حدودها الغربية ، ويحدها من الشرق خليج العرب ، والعراق يقع الى الشرق والشمال الشرقي منها[٦] •

---

٦ ـ أنظر المخصص ، ج ١٢ ص ٤٧ ، ففيه تحديد لموقع شبه جزيرة العرب وتسمية لحدودها •

« وتتكون أغلب الأرضين في جزيرة العرب من بواد وسهول ، تغلبت عليها الطبيعة الصحراوية » • وتشمل هذه الأراضي الصحراوية الحرار ، والدهناء ، والنفوذ ، وقد تشكلت بفعل الجفاف ، والرياح السريعة • وقد أسهب فيليب حتي[٧] في الحديث عنها فقال:« أما الأرض الصحراوية ، فقد تميز فيها ثلاثة أنواع :

أولا : النفوذ[٨] ، وهي قفار متسعة ذات رمال بيضاء أو محمرة تسفيها الرياح فتجعل منها كثبانا أو تلالا تغطي جزءا كبيرا من شمالي الجزيرة •

ومع أن النفوذ جافة الا في واحاتها القليلة فانه ليصيبها في بعض السنين أمطار تكفي لتغطيتها ببساط من الخضرة يحولها الى جنة للابل والأغنام التي يرعاها البدو الرحل ••••

ثانيا : الدهناء ، وهي أرض رملية حمراء ••• وهي كثبان مستطيلة من الرمال ••• واذا هطلت أمطار الشتاء في نواحيها غنيت الأرض بالمراعي التي ينتابها البدو وماشيتهم مدة الموسم التي تطول بضعة أشهر ، غير أن تلك البقاع في الصيف خالية خاوية •

ثالثا : الحرة : ••••••[٩]

هذه الصحراء لا بد أن تترك آثارها البينة في المناخ ، فتجعله شديد القسوة ، والوطأة • فمناخ شبه الجزيرة حار ــ جاف غالبا ، عدا السواحل ، ولهذا فقد تغزلوا بريح الصبا ، وسموا المطر غيثا ، لقلة

---

٧ ــ تاريخ العرب (مطول) فيليب حتي ص ١٦ وما بعد •
٨ ــ كتب اللغة تسميها البادية أو الدهناء •
٩ ــ انظر : تاريخ العرب قبل الاسلام ، د• أحمد هبو ، ص ٤٩ •

المياه ، وعدم وجود الأنهار • « ان طبيعة شبه الجزيرة العربية جعلت مناخها جافا وشديد الحرارة بوجه عام ، والجفاف يعني أيضا قلةالأمطار أو ندرتها ••••• فاذا ما سقطت فان وجه الصحراء يتغير بسرعة فتنبت الأعشاب ••••• ولكن ذلكلا يدوم طويلا ، فسرعان ما تذبل الأعشاب وتزول أسباب الحياة البدوية القائمة على تربية الماشية والسعي لتأمين الكلأ والمراعي لها • فأشعة الشمس الحارقة ورياح السموم ، التي تهب في مواسم معينة فتشوي الوجوه وتعمي العيون ، تسلب الأرض اشراقتها وخضرتها •••• ومن هنا نفهم تسمية المطر بالغيث »[١٠] •

ولا ريب في أن قلة الماء والجفاف الذي يعم كل شيء والملوحة في التربة ، كل هذا حال دون نمو النبات في صحراء شبه الجزيرة العربية•

ولعل الدكتور يوسف خليف[١١] يلخص لنا الخطوط الأساسية لصورة شبه الجزيرة العربية بشكل يجعلنا نتصور وطنا رهيباً كان يعيش فيه الانسان العربي في الجاهلية ، هذا الوطن هو الذي دفعه للهجرة منذ القديم ، وهو يسعى في الهجران كلما سنحت له الفرصةوكتب التاريخ تتحدث عن الهجرات العربية المتلاحقة ، التي كان آخرهاوأكبرها اندفاع العرب المسلمين خارج شبه جزيرتهم يفتحون الأرض وينعمون بخيراتها متخلصين من حياة الشظف والفقر ومقارعة الطبيعة القاسية •

« والخطوط الأساسية لهذه الصورة هي أنها منطقة صحراوية جبلية عرفت الأغوار المنخفضة ذات الحرارة الشديدة ، والجبال العالية ذات القمم الثلجية ، وعرفت بينهما مناطق رملية مترامية الأطراف كثيرة المجاهل والمخاوف • ثم هي منطقة عرفت الجدب الذي تتعذر معهالحياة،

---

١٠ ـ المصدر نفسه ص ٥٨ •

١١ ـ الشعراء الصعاليك ، د• يوسف خليف ، ص ٦٨ •

حتى يضطر أهلها الى الهجرة . ••••• وعرفت المطر يحتبس حتى تصبح البادية غير صالحة للسكن ، والسيول تتدفق حتى تجرف أمامها كل شيء • وعرفت البرد الذي يعقد ذنب الكلب ، والحر الذي يذيب دماغ الضب ، ويطبخ الابل ويشويها » •(١٢)

ثانياً ـ العامل الاجتماعي

« ينقسم سكان الجزيرة تبعا لطبيعتها المزدوجة الى قسمين رئيسيين: بدو رحل ، وحضر مقيمين • وليس الحد الذي يفصل بين فئات العرب الرحل وبين فئاتها الأخرى التي استقر بها المكان واستوطنت المزارع والمدن واضحا دائما ، بل يكاد أن يكون في بعض الأحوال غامضا مبهما لأن مراتب التطور تدريجية • تبدو فيها الجماعات تارة نصف بدوية وأخرى نصف حضرية • »(١٣)

هذه هي صورة الحياة في شبه الجزيرة العربية ، حياة قائمة على الرعي والتنقل غالبا مع وجود بعض الاستقرار الدائم في القرى والحواضر الرئيسية • ولا يظن أحد أن حياة التنقل كانت تعني عدم الاستقرار المطلق فليس البدوي « غجريا دأبه الطوف والتجوال على غير هدى ، بل انه يمثل أفضل ما استطاعه الانسان من التكيف بموجب مقتضيات حياة البادية • لذلك فهو أبدا ساع الى المرابع الخضراء انتجاعا لما فيها من ماء وكلأ •

فالبداوة اذن شكل منسق من أشكال الحياة يلائم مقتضيات البيئة »(١٤) •

---

١٢ ـ المصدر السابق ص ٦٨ •
١٣ ـ تاريخ العرب (مطول) ص ٢٨ •
١٤ ـ المصدر نفسه ص ٢٨ •

ولكنها على كل حال ليست حياة منظمة وانما هي تكيف مع البيئة التي كان يحياها الانسان الجاهلي . ففي اللغة العبرية ، تشمل مادة (عرب) عدة معان ، منها : « حياة الفوضى » وهي نقيض الحياة المنظمة. أي حياة الحضر . فالمقصود بها حياة البداوة(١٥) .

والهيئة الاجتماعية عند البدو تقوم على نظام العشيرة « وحدتها الأسرة التي تمثل الواحدة منها الخيمة أو البيت . والحي عبارة عن مضرب من مضارب الخيام . وأعضاء الحي يطلق عليهم لفظ قوم . وتتألف القبيلة من أقوام أو عشائر تربطها أواصر النسب .

وينظر أبناء العشيرة الواحدة بعضهم الى بعض كأبناء دم واحد . وهم يؤدون الطاعة لرئيس واحد ــ هو كبير أعضاء العشيرة سنا ــ ويتداعون الى الحرب بصيحة واحدة . ويرجع اسم العشيرة في الغالب الى الجد الاول الذي تنتسب اليه . »(١٦)

والمقصود بنظام العشيرة . أو القبيلة هو ذلك النمط الذي يتوزع فيه أفراد الأمة الواحدة الى جماعات بشرية مستقلة يجمع بين أفرادها النسب المشترك ، وتمثل وحدة سياسية واجتماعية مستقلة(١٧) .

ولقد انقسم المجتمع العربي قبل الاسلام الى قبائل تستقر ، وتتنقل بحسب توزع أماكن الخصب وقد تستقر بشكل دائم مكونة قرية ؛ ولكنها تحافظ على شكلها القبلي .

فارتباط القبيلة بعضها ببعض وارتباطها بالأرض ناجم عن مصلحة

---

١٥ ــ أنظر : تاريخ العرب قبل الاسلام ص ٩٣ .

١٦ ــ تاريخ العرب (مطول) ص ٣٣ .

١٧ ــ العصبية القبلية وأثرها في الشعر الاموي ، د. احسان النص ، ص ٥٣ .

اقتصادية بحتة[١٨] ولهذا فقد حرصت القبيلة على وحدتها فلم تكن تسمح لدخيل بالاقتراب من حدودها معتمدة في هذا على دستور سنته و لاتسمح لأحد بتجاوزه وهو دستور (العصبية) التي تعني[١٩] : « النعرة على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة » ، أو هي احساس الفرد برابطته القبلية ، والتفاني فيها دون تردد أو تفكير .

م‍ـ هذه العصبية ، وان بدت عمياء ، فانها كانت من ضرورات الحياة ذلك أن « القبلية هي عماد الحياة في البادية ، بها يحتمي الأعرابي في الدفاع عن نفسه وعن ماله ، حيث لا (شُرَطَ) في البوادي تؤدب المعتدين ، ولا سجون يسجن فيها الخارجون على نظام المجتمع ، وكل ما هناك (عصبية) تأخذ الحق ، و (أعراف) يجب أن تطاع »[٢٠].

ولقد بدت هذه العصبية مسيطرة على عقل العربي وحياته . حتى بعد الاسلام ، فقد اشترطت القبائل المحاربة على (علي) « ألا تحارب الا رجال قبيلتها الذين يكونون ضدده . ..... لأنهم لم يكونوا يستطيعون رؤية قبيلة غريبة تفتك باخوانهم من قبيلتهم »[٢١] .

العصبية اذن هي أساس النظام القبلي ، وهي تشمل كل منتم الى القبيلة (الحر ، والمولى ، والحليف ، والجار ....) ولكن مسؤولياتها تقع بحسب علو المرتبة القبلية وهي تفترض مساعدة الفرد في جنايته . لذا صار عليه أن يخضع لسلطانها حتى تحميه ، والا يخلع ويطرد[٢٢].

---

١٨ ــ وأنظر تاريخ العرب قبل الاسلام ص ٢٥٩ وما بعد .
١٩ ــ الشعراء الصعاليك ص ٨٧ وما بعد .
٢٠ ــ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٤ ص ٣١٣ .
٢١ ــ المصدر نفسه ج ٤ ص ٣١٥ .
٢٢ ــ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٤ ص ٣٩٢ .

على الفرد اذن أن يخضع لرأي القبيلة الجماعي « فلا يخرج عليه ، ولا يتصرف تصرفا .... يكون سببا في تمزيق وحدتهـا ، أو الاساءة الى سمعتها بين القبائل ، أو تحميلها ما لا تطيق »[٢٣] .

والعصبية هي النظام السياسي الذي كان يحكم قبائـل العرب في المجتمع الجاهلي . وهي القانون الذي يشبه قانون السماء ، فلا يتجرأ أحد على المساس به ، والا فمصيره الطرد ، وعندها يصبح دون حماية، ويصبح عرضة للأخطار التي تحيق به من كل صوب .

ان روح العشيرة (كما يرى فيليب حتى)[٢٤] تتجلى في العصبية ، فمن شروطها على « الفرد » الوفاء الذي لا حد له لاخوانه من أبنـاء العشيرة ، بشكل يتفق مع ما تعهده من النزعة الوطنية المتطرفة في النظام السياسي الحديث . وقد قال الشاعر العربي :

فاحفظْ عشيرتَكَ الأدنين انّ لهم
حقاً يفرِّقُ بين الزوْجِ والمَرَتِ[٢٥]

وما هذه الصفة الفردية اللاصقة ، التي اختصت بها العشيرة ، الا صورة مكبرة للاستقلال الفردي الذي يشعر به ابن العشـيرة ، وهي تحدو به الى الظن بأن العشيرة أو القبيلة ، حسبما كان الحال ، هي وحدة اجتماعية قائمة بذاتها ، تذود عن حوضهـا ، مطلقة الحرية ، ولها أن تحسب كل عشيرة أو قبيلة أخرى لقمة سائغة ، وغنيمة باردة ، يحل لها فيها النهب والسلب والقتل . »

---

٢٣ ـ الشعراء الصعاليك ص ٨٩ .
٢٤ ـ تاريخ العرب (مطول) ص ٣٥ .
٢٥ ـ المـرأة .

لقد كـان المفهـوم السياسي للسلطة محكوما بمقتضيات الحيـاة القبلية ، فقد كان واجب المشاركة في كل أمر مفروضا على الجميع ، بحكم التقليد أكثر منه بحكم السلطة .

وقد تتكاثر قبيلة فتنقسم على نفسها الى قبائل صغيرة ، وتبقى هذه القبائل محتفظة بذكريات النسب القديم ، أو تتحـد اذا كانت صغيرة بقصد التضامن والتآزر والدفاع عن النفس .

« والعرب من حيث النسب صرحاء ، وحلفاء ، وجيران ، وموالي ، وشركاء يستلحقون بالنسب . أما الصريح : فهو المحصن من كل شيء ، والخالص النسب . »(٢٦)

والطامة الكبرى بالنسبة الى الجاهلي هي خسرانه نسبه . فما أقسى الحياة عليه في ظل هذا المجتمع القائم على القبلية والعصبية ؟ ولهذا فحين يقترف أحد جريمة القتل ضمن نطاق عشيرته فليس ثمة من يدافع عنه ، فاذا فر ، اعتبر طريدا . « ولقد قضت شريعة البادية القديمة . أن الـدم لا يغسله الا الدم . فكان لا يقبل جزاء آخر غير أخذ الثأر ، الا في بعض الحالات ، حين يقبل أهل القتيل دية » .

« ولئن كان الانتساب الى عشيرة من العشائر قائما على صلة الدم ، فان لحيازتها طرقا أخرى ، كأن يشترك الفرد مع أبناء العشيرة التي يريد الانتساب اليهـا بمأكل أو مشرب أو امتصاص قطرات مـن دم أحـد أفرادها ، رمزا الى اكتسابه صلة الدم بهم » .

« وليس الشيخ (شيخ القبيلة) صاحب الأمر المطلق في الشؤون الشرعية والحربية وسواها ، بل يفرض عليه مشاورة مجلس القبيلـة الذي يتألف من زعماء البطون والأفخاذ » .

---

٢٦ ـ المفصل ٠٠٠٠٠ ٤ : ٣٥٦ .

« والعربي عموما ، والبدوي على التخصيص ديموقراطي النزعة . وهو يعامل زعيمه الشيخ المتبوع معاملة الأكفاء والقرناء ، فكأن الهيئة الاجتماعية التي يعيش فيها قد سادت بين الناس على الاطلاق »[٢٧] .

يمكن السؤال اذن . ما مسؤولية الفرد ؟ وما مسؤوليه المجتمع ؟ اذا كان للفرد على القبيلة أن تحميه وتدافع عن كيانه ومصالحه ، واذا كان للمجتمع على الفرد أن يلتزم بقوانين العصبية ، فان المجتمع « قد يقع أحيانا ضحية لنزوات فرد من أفراده »[٢٨] وذلك بناء على الخطأ في فلسفة المجتمع ذاته ، وهي الفلسفة التي عبر عنها شاعرهم بقوله :

وما أنا الا من غزية إنْ غوت غويت وإنْ ترشد غزية أرشد

لقد أعطى المجتمع ، بمنطوق العصبية القبلية ، هذا الفرد فرصة التلاعب فيه ... لتحقيق رغبة أنانية غاضبة جامعة (فعل الحصين بن ضمضم مثلاً) فقد كان ذلك استغفالا من الفرد للمجتمع ، واستغلالا لأعرافه وقدراته على حماية أبنائه ، حتى لو كانوا فاسقين ظالمين »[٢٩] .

وقد تقدم القول انه على الرغم من وجود بعض الأودية ، وعلى الرغم من استقرار بعض القبائل في القرى والحواضر ، معتمدين على الزراعة والتجارة ، فان صفة الجفاف كانت الغالبة ، وهذه أدت الى[٣٠] : قلة السكان وعدم وجود مجتمعات حضرية وحكومة مركزية ، باستثناء الدول التي قامت في الجنوب حيث تكثر المياه ، وتفشت البداوةوالروح

٢٧ ــ تاريخ العرب (مطول) ص ٣٣ ــ ٣٤ ــ ٣٦ .
٢٨ ــ معلقة زهير والبنية الاجتماعية في العصر الجاهلي ص ١٥٥ ، مجلة المعرفة السورية ، العدد ٢١٨ .
٢٩ ــ معلقة زهير ص ١٥٥ .
٣٠ ــ أنظر المفصل في تاريخ العرب ج ١ : ١٦٣

الفردية التي تصاحب مجتمع الرعي ، وانتشر الصراع القبلي الذي تمثل بالغزو اذ أصبح « من أركان البناء الاقتصادي في الهيئـة الاجتماعية البدوية . واستولى حب القتال على نفوس أهـل البوادي »(٣١) ونفر البدوي من حياة الزراعـة ، ومن الحرف ، بل اعتبر مـن يقوم بهاتين المهنتين في أسفل السلم الاجتماعي .

وتقوم حياة البداوة على اعتبار « الخيمة وما فيها من اثاث حقير ملكاً للفرد ، أما المـاء والمرعى ، والأرض الصالحة للزرع ، فهي ملك مشاع للقبيلة كلها »(٣٢) .

ولا شيء عند البدوي اذن سوى قطعانه ، وهذه قد تتعرض لوباء أو لسرقة ، أو لغزو ، فيصبح خالي اليدين ، ويدفع دفعـا الى السرقة والنهب ، فالغزو والصعلكة كانا من ضرورات الحيـاة عند الجاهلي ، فهو مضطر اذا جاع أو افتقر أن يقوم بعمليات قرصنة قد لا تراق فيها الدمـاء ولكنها تجلب المـال ، .

والغازي اليوم ، مَغْزُوٌ غداً ، « ولقد عبر الشاعر القطامي ..... عن المبدأ الذي انطوت عليه هذه الروح .... قال : (٣٣)

أغرن من الضباب على حلول وضبة إنه من حان حانـا
وأحيانا علـى بكر أخينـا اذا ما لم نجد الا أخانا »

لقد أحس البدوي بضراوة الجوع ووطـأة الفقر ، وزاد احساسه بفقره ، وجود المناطق الخصبة بجانب صحرائه .

---

٣١ ـ تاريخ العرب (مطول) ص ٣٠ .
٣٢ ـ المصدر نفسه ص ٣٣ .
٣٣ ـ تاريخ العرب (مطول) ص ٣٠ .

واذا تركنا حياة البدو القائمة على الرعي ، والصيد ، والغزو ، فاننا نجد نشاطاً اقتصادياً مهماً في قرى الجزيرة العربية ومدنها من زراعة ، وتجارة ، وصناعة(٣٤) . وقد حدثنا فيليب حتي عن حواضر الحجاز حديثا مفصلا ، أوضح فيه النشاط الاقتصادي في الجانب الآخر من البداوة : (٣٥)

« وتقع الطائف في أكناف الجنائن الغناء ، على ارتفاع ستة آلاف قدم . وهي طيبة الهواء ..... وكانت حاصلاتها تشمل العسل ، والبطيخ . والموز ، والتين ، والعنب ، والزيتون ، والدراقن .... » .

« وقد وقعت مكة في وسط طريق القوافل ... .وهي طريق تجارة الطيوب .... وكانت الأسواق تنصب فيها للبيع والشراء ، فمهر أهلها في شؤون التجارة ، وما يتعلق بها من مرافق ووظائف . وجعلوا مدينتهم ــ مكة ــ مركز عمران وثروة .... وكان تجار مكة يربحون في تجارتهم للدينار دينارا . فأصبحت مكة جمهورية صغيرة تجارية » .

« وراجت تجارة مكة ، فقامت قريش توطد مركزها في البلد الحرام ، فسنت رحلتي الشتاء والصيف ..... فارتفعت مكانة مكة واعتبرت العاصمة المعترف بها ..... » .

« ولم تكن يثرب على طريق القوافل التي تحمل الطيوب بين اليمن والشام فحسب ، بل كانت واحة حقيقية ذات تربة صالحة لزراعة النخيل ، وهو كثير فيها ، وقد أصبحت المدينة من أمهات المراكز الزراعية ... » .

على كل حال فقد عاش السواد الأعظم من الجاهليين عيشة فقر ،

---

٣٤ ــ تاريخ العرب قبل الاسلام ص ٢٨٩ وما بعد . وفيه حديث مفصل عن النشاط الاقتصادي في شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام .

٣٥ ــ تاريخ العرب (مطول) ص ١٤٣ .

وقلة ، وحاجة دائمة ، حتى ضمن قبيلته ذاتها (سنتحدث عن ظاهـرة الفقر في حديثنا عن غربة الفقير والصعلوك في مجتمعهما) •

واذا وضعنا بعين الاعتبار « أن قيام الحياة الاجتماعية يتعلق بعوامل مختلفة ، وهذه العوامل تضم جغرافية البـلاد ، ومستوى التقنيـة ، والعوامل الاقتصادية . وعلاقـات الانتاج ، وشكل توزيع الثروات . وكذلك موقع المجتمع المعني من المجتمعات المجاورة[٣٦] ، أدركنا أثر كل هذا في تكون الحياة الاجتماعية الجاهلية ، وانعكاس كل هـذا علـى الانسان الجاهلي ، وتأثيره في غربته •

ثالثا ـ العامل النفسي

يقول الشاعر البولوني (آدم مسكيفيتش) في قصيدته « الفارس العربي » ، يصف انسان الصحراء العربية :

« أيها الأرعن المنطلق هكذا سريعا
ليس ثمة ما يحميك
من سهام الشمس
لا النخلة بشعرها الأخضر
ولا بنيان نسيج الخيام
هناك لا أستار ، ولا خيمة الا السماوات
هذه البلاد لا يقطنها الا الصخور
ولا يزورها غير الكواكب

٣٦ ـ مدخل الى الأدب الجاهلي ، احسان سركيس ، ص ١٠٢ •

أيها الجواد الأحمق ! أيها الفارس الذي تعوزه الحكمة
الفارس يبحث عن طريق
والجواد عن مرعى
سعي ضائع ، جهود باطلة
ومن يأت هنا لا يعود
فالريح وحدها تمر على الدروب
مصطحبة أثرها
.... » .(٣٧)

هـذا هـو انسان الصحـراء العربية ، ابن العرب الذين وصفهـم (ديودورس الصقلي) بأنهم « يعشقون الحرية ، فيلتحفون السماء . وقد اختاروا الاقامة في أرضين لا أنهار فيها ولا عيون ماء ، فلا يستطيع العدو المغامر الذي يريد الايقاع بهم أن يجد له مأوى .... ومن يخالف العرف يقتل . وهم يعتقدون بالارادة الحرة ، وبالحرية »(٣٨) .

ويصف (ابن خلدون) العربي بأنه : « متوحش نهاب سلاب ، اذا أخضع مملكة أسرع اليها الخراب ، يصعب انقياده لرئيس ، لا يجيـد صناعة ، ولا يحسن علمـا ، ولا عنده استعداد للاجـادة فيهما . سليم الطباع ، مستعد للخير ، شجاع »(٣٩) .

ويراه (أوليري) ينظر الى الأشياء نظرة مادية وضيعة ، ولا يقومها الا

---

٣٧ ـ مدخل الى الأدب الجاهلي ص ٢٢ ٢، ولم يذكر احسان سركيس مؤلف الكتاب مصدر هذه القصيدة ولا من ترجمها .
٣٨ ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج : ١ ص ٢٦٥ .
٣٩ ـ المصدر نفسه ١ : ٢٦٢ .

بحسب ما تنتج من نفع . يتملك الطمع مشاعره .٠٠٠٠٠ لا يميل كثيرا الى دين ٠٠٠٠٠ يملؤه الشعور بكرامته الشخصية حتى ليثور على كل شكل من أشكال السلطة ٠٠٠٠٠ مطيع لتقاليد القبيلة »(٤٠) . « عصبي المزاج، سريع الغضب . يهيج للشيء التافه ، ولا يقف في هياجه عند حد ، وهو أشد هياجا اذا جرحت كرامته ، أو انتهكت حرمة قبيلته . واذا اهتاج ، أسرع الى السيف . واحتكم اليه »(٤١) .

واذا كان العربي ديموقراطي النزعة ، فان له « ارستقراطية لا تقل عن ديموقراطيته ، فهو يؤمن أن فيه اجتمعت مقومات الكمال الانساني »(٤٢).

ولقد أظهرت الحروب القبلية مميزات الروح العربية في الجاهلية ، من عصبية وحمية ، نهضت بعقلية البدوي تارة الى الفضيلة ، وهبطت به تارة أخرى الى الرذيلة » « الا أنه يأبى الانقياد الى النظام ، ولا يمتثل للأوامر العسكرية »(٤٣) .

ولو عدنا الى أسباب تشكل العقلية الجاهلية في هذه الصورة لوجدنا أثر البيئة الطبيعية والاجتماعية واضحا في هذا التشكل . فالتضاد الجغرافي الحاد ولد أيضا تضادا نفسيا حادا جعل من البدوي انسانا متميزا فهو « مبالغ في عداوته ، مبالغ في محبته . لا يتورع عن الغدر ولكنه اذا عاهد على الوفاء بذل حياته في سبيل عهده ، يغزو وينهب حتى ليكاد يفقد حياته ، ثم يوزع ما يغنمه على سواه »(٤٤) . فحياة الصحراء ــ كما يرى الدارسون تحمل طابع التحرك في كل جانب من جوانب الحياة البشرية فيها ، والقاعدة التي تقوم عليها حياة البدو فيها قاعدة

---

٤٠ ــ المصدر نفسه ١ : ٢٦٥ .
٤١ ــ المصدر نفسه ١ : ٢٦٥ .
٤٢ ــ تاريخ العرب (مطول) ص ٣٦ .
٤٣ ــ المصدر نفسه ص ١٢٢ .
٤٤ ــ الشعراء الصعاليك ص ٧١ .

متقلقلة . فضلا عن أنها تربي في نفوس أبنائها صفات الشجاعة والجرأة ، والكبرياء العنيدة ، كبرياء الرجال الأحرار[٤٥] .

« فالطبيعة هي التي صيرت العرب على هـذه الحال ، وهي التي غلبت عليهم البداوة ، اذ حرمتهم من الماء ، وجادت عليهم برمال تلفح الوجود ، وبسموم مؤذية ، وبحرارة شديدة ، وبأرض متسعة تظهـر وكأنهـا بحـر من رمل لا حـد له ، صيرت من ولد فيها انسانـا قلقا هائما على وجهه، يتنقل من مكان الى مكان بحثا عن ماء وأكل »[٤٦] .

ولئن كانت قلة المياه ، وشدة الحرارة ، ومشقة السفر ، أعـداء تآلفت على البدوي ، فانها كانت حليفا له اذا ما هاجمه معتد ، فلا عجب ان رأيناه يرفض أن يطأطئ رأسه تحت نير أجنبي[٤٧] .

ولقد تمكنت منه الروح الفردية ، الى حد يتعذر معه أن يرتفع الى مصاف الانسان الاجتماعي ، فلم يتسن له أن يتخيل مثلا عليا توحي اليه بالشعور بالاخلاص لـمـا فيه خير المجموع ، اللهم الا مـا كان فيه مصلحة القبيلة التي ينتمي اليها .

وتبقى البداوة ، مع هـذا ، نوعا من النظـام متكيفا مع البيئـة الصحراوية ومع طبيعة الحياة فيها و « يخطئ من يظن أن البداوة حرية لا حد لها ، وفوضى لا يردعها رادع ، وأن الأعراب فرديون لا يخضعون لنظام ، ولا لقانون ، على نحو ما يتراءى ذلك للحضري ، أو للغريب . انهم ، في الواقع ، خاضعون لعرفهم القبلي خضوعا صارما شديـدا . وكل من يخرج على ذلـك العرف يطرد من أهلـه ويتبرأ قومه منه ،

---

٤٥ ـ المصدر نفسه ص ٧٢ .

٤٦ ـ المفصل في تاريخ العرب ٤ : ٢٨٠ .

٤٧ ـ تاريخ العرب (مطول) ص ٣٠ .

ويضطر أن يعيش (طريدا) أو (صعلوكا) »[48] .

ولقد لخص (فيليب حتي) تكوين الانسان الجاهلي العضوي والنفسي والمعاشي بقوله : « وليس جسم البدوي لدى التشريح سوى حزمة من الأعصاب الحساسة ، والعظام والعضلات . فكأنه مثال لجدب الأرض وقحطها . يتألف طعامه اليومي من التمر وشيء من الدقيق . أو الذرة المحمصة ، ممزوج ببعض الماء أو الحليب . ولباسه بسيط كمأكله .... وأظهر فضائله التجلد والصبر اللذان يمكنانه من الحياة . حيث يكاد يهلك كل شيء غيره »[49] .

اغتراب الانسان الجاهلي . اذن[50] . معادل موضوعي للعقم والجدب والعدم . وهو حقيقة كبرى في بيئة الشاعر القاحلة ، التي لا تعرف الخصب والعطاء . والحاح الشعراء على هذا المعنى في مطالع قصائدهم ، يوحي ايحاء أقرب الى اليقين باحساسهم الشديد بفجيعة الغربة ، بل بفجيعة الحياة التي تسيطر عليها قوى القدر الذي يضرب ضرباته القوية ، فيفرق بين المحبين.وهي قوى لا يستطيع السيطرة عليها ومحاولة التخلص الوحيدة التي يملكها ازاء هذه الغربة ، هي ركوب ناقته ليرحل فينسى ، أي انه يقابل الغربة باغتراب آخر . هكذا كانت تدور حياته ، وهكذا علمته الصحراء التي يعيش فيها .

* * *

٤٨ ـ المفصل ١ : ٢٧٧ .
٤٩ ـ تاريخ العرب (مطول) ص ٣٠ .
٥٠ ـ أنظر الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث ص ٧ وما بعد .

الفصل الأول

الغربة عن الوطن والأهل

١ ـ وطن الشاعر الجاهلي وأهله

٢ ـ الغربة عن القبيلة وموطنها

٣ ـ دراسة موضوع الغربة في شعر المتلمّس الضّبعي

أولا ـ وطن الشاعر الجاهلي وأهله

ورد في المخصص[1] : « وقال (أبو زيد) : نَزَعَ الانسان الى وطنه ، وكذلك البعير . وحكى (الفارسي) : أبَّ يئبُّ : اذا نزع الى وطنه .. (صاحب العين) : ضَغِنَ الانسان ضَغَنا : حنَّ الى وطنه .... » .

. وفي الحاشية تعليق للمصحح[2] يقول فيه : (في معرض الحديث عن الآية « كما بَعِدت ثمود ») « وكان أبو عبد الرحمن يقرؤها بَعُدت، يجعل الهلاك والبعد سواء ، وهما قريبان من السواء » .

« صاحب العين : أقمت بالمكان وغنيتُ غنىً . والمغاني : المنازل . وقيل : المنازل التي كان بها أهلها ثم ظعنوا .... والسكْنُ : المنزل ، والسكْنُ أيضا : أهل الدار . »[3] .

والأفعال التي تدل على الاقامة في المكان ــ الوطن الجاهلي ــ من كتاب المخصص وحده بلغت ستة وسبعين فعلا على التقريب ، مما يدل على أن العربي (البدوي) كان يميل الى الاستقرار ، بخلاف الغجر[4].

١ ـ ج ١٢ ص ٥٢ .
٢ ـ ج ١٢ ص ٥٣ .
٣ ـ ج ١٢ ص ٥٣ .
٤ ـ وهذا رأي فيليب حتي أيضا ، وقد مر ذكره .

فوطن الانسان « هو مسقط رأسه . ومكان سكن أهله وأقربائه ، أكان خيمة أو منزلا ، ربعا أو مغنى ، انه المكان الذي أمضى فيه المرء طفولته وفتوته . وتألف النفس الوطن حتى كأنه [لها جسد ان بان غودر هالكا] »[٥] .

« والوطن عند الجاهليين لا يصور حدودا جغرافية معينة ، ولكنه يصور جماعة من الناس ، تربطهم أواصر النسب ، صحيحة أو مزعومة .... » .

وطن الجاهليين اذن هو العصبية ، وهذه العصبية هي القانون الوحيد الذي قامت عليه حياتهم القبلية . « وطنية البدوي أنما هي وطنية قبلية لا وطنية شعبية »[٦] .

لقد كونت القبيلة دولة مستقلة ، تسكن أرضا محددة ، وتمارس شكلا من الحكم خاصا بها ، يتميز بمجموعة من الأعراف والتقاليد . تشكل ما يشبه قوانين الدول في العصر الحاضر[٧] . وحياة القبائل ، وان كانت قائمة على التنقل ، لم تكن « ارتحالا متصلا وضربا في الأرض على غير هدى ، شأن قبائل الغجر مثلا ، وانما كان قبيلة منازلها ومراعيها المحددة التي ترتادها في مختلف فصول العام ، ومياهها الخاصة بها والتي تنسب اليها . وكل قبيلة كانت تتحامى النزول في مرابع القبائل الأخرى ، اتقاء لنشوء نزاع حربي »[٨] .

---

٥ ـ الوطن في الشعر العربي ص ٢٨٥ .
٦ ـ تاريخ العرب قبل الاسلام ص ٢٧٥ .
٧ ـ تاريخ العرب قبل الاسلام ص ٢٧٥ وما بعد ، وفيه حديث مفصل عن الحياة السياسية في دولة القبيلة وشكل الحكم فيها .
٨ ـ العصبية القبلية ص ٥٦ .

لكل قبيلة اذن أرض تعيش عليها وتنزل بها وتعتبرها ملكا لها ، فتنتشر فيها بطونها وعشائرها ، ولا تسمح لغريب بالنزول أو المرور بها الا بموافقتها وبرضاها • وقد اختص كل بطن منها بناحية ، فانفرد بها واعتبرها أرضا خاصة به •

« وتكون الأرض التي تحل القبيلة بها (منزلا) لها ، و (منازل) لأبنائها الذين ينزلون بها ، يضربون بها خيامهم ، فتكون الأرض مضارب لها ، تستوطنها وتقيم بها وتصير وطنا لها ، أي دار اقامة ، ما دامت تقيم بها »[٩] •

هناك وطن للقبيلة اذن ، وان لم يكن وطنا دائما ، وهو محدد بحدود ـ تكون عادة حدودا طبيعية (تلال ، وديان ••••) ـ وللقبيلة حق حمايته ، شأنها في ذلك شأن الدول ، واذا أراد غريب اجتياز حدودها فلا بد من أن يكون في حماية انسان منها ، وباذن من القبيلة يخوله جواز المرور بها ، والا تعرض للمنع والقتال •

وكان معروفا أن لكل قبيلة منطقة تسكنها ، وقد تتنقل داخل حدودها ، ما دامت مخصبة ، والا فانها تتركها باحثة عن موطن آخر • وهنا قد تصطدم بقبيلة أخرى ، فتحدث الحروب التي لا بد منها لاستمرار الحياة • أما فيما يتعلق بالذين استوطنوا القرى والمدن ، فمن البدهي أن نقول :

انه كان لهم وطن بكل ما تعنيه كلمة الوطن من معنى •

الأرض التي يعيش عليها الانسان الجاهلي هي وطنه ، وهو ـ ان تحول الى أرض جديدة ـ كسب وطنا جديدا ، وتظل للوطن الأول

---

٩ ـ المفصل ٤ : ٣٤٢ •

ذكريات محببة ، عميقة ، يسترجعها كلما مر بأطلال ذلك الوطن ، ومن هنا فان ظاهرة الوقوف على الأطلال تكتسب معنى جديدا من معانيها ، هو حب الوطن ، والتمسك به من خلال الذكريات •

والانسان الجاهلي مواطن قبلي أيضا ، يربط دائما بين الأرض والأهل اذ لا قيمة لديه لأرض دون ساكنيها ، واننا لنلحظ هذا واضحا وباستمرار من خلال ارتباط حديثهم عن الوطن (الطلل) بالحديث عن ساكنيه ، فحين يقف عبيد في مطلع معلقته ، على ديار قومه ، بني أسد ، فانما يبكي الديار بعد بكائه ساكنيها • ونلحظ هذا من خلال (أقفر) التي يبدأ بها قصيدته • والحقيقة أنه في كل زمان ومكان ، تأخذ أرض الوطن معناها من خلال مواطنيها • ولهذا فنحن لا نلحظ اي تمييز بين الوطن والأهل عند الشاعر الجاهلي • فهو اذ يذكر الوطن فانه يريد أهله ، واذ يذكر الأهل فانه يريد الوطن أيضا •

وارتباط الأهل بالوطن في المجتمع الجاهلي طبيعي ، اذ ان « الأهل والأخوان في شعر شعراء المراحل الأولى (المرحلة الجاهلية) ما هم الا أفراد القبيلة ، أو الفخذ ، أو العشيرة ، أو الأسرة (الأقرباء بالدم) فامرؤ القيس في سيره هاربا الى قيصر باحثا عن حماية عنده ، تذكر أهله الصالحين (أبناء عشيرته) • وهو في بعد عنهم[١٠] •

ومع هذا فان الشاعر الجاهلي لم يحدد المعنى الدقيق لكلمتي : وطن وغربة ، الا بعد الاسلام ، وهذا ناجم ، بالطبع ، عن حياة التنقل والترحال التي كان يعيشها العربي ـ البدوي • فقد كان تنقله في مناطق

---

١٠ ـ الوطن في الشعر العربي ص ٣٠٨ ، وأنظر ص ١٨٦ ، ١٨٩ ، ١٩٩ ، ٥٧ ، ٢، ٢٦٠ ففيها حديث مفصل عن : أماكن سكن البدوي ، الطلل وعلاقته بالوطن ، وصف لحياة البدوي ، معاني أوسع تدل على الوطن ، معنى الوطن الواسع ••••• وأنظر ص ٣٠٤ •

واسعة من الأرض ، ويبقى ارتباطه في الوطن السابق ، ارتباط ذكريات كما قدمنا .

ولقد أحب العربي وطنه ، وكان يشعر بالحنين الدائم له ، وللحياة فيه ، وهو ان عرف بالترحل والتنقل ، بسبب البداوة ، الا أنه كان يحن الى وطنه ، ولا ينسى موطنه القديم[11] . ويرى أن في الغربة كربة ، وأن الانسان اذا صار في غير أهله ناله نصيب من العذل[12] « وكانت العرب اذا غزت وسافرت ، حملت معها من تربة بلدها رملا وعفرا تستنشقه عند نزلة أو زكام أو صدام » .

« وقيل لأعرابي : كيف تصنع في البادية اذا اشتد القيظ واتعل كل شيء ظله ؟ قال : وهل العيش الا ذاك ؟ يمشي أحدنا ميلا فيرفض عرقا ، ثم ينصب عصاه ويلقي عليها كساءه ، ويجلس في فيئه يكتال الريح ، فكأنه في ايوان كسرى »[13] .

واذا أحب العربي وطنه ، فانه أحب عشيرته أيضا ــ كما بينا ــ فوجيهة بنت أوس الطائية « أحبت أرض عشيرتها فقط :

فما ليَ ان أحببتُ أرض عشيرتي

وأبغضتُ طرفاء القصيبة من ذنب ؟ »[14]

وزامل بن عفير الذي غادر وطنه مكرها الى الشام ، والتقى به

١١ ــ المفصل ٤ : ٣٠١ .

١٢ ــ رسالة الحنين الى الأوطان ٢ : ٣٩٠ (رسائل الجاحظ) .

١٣ ــ المصدر نفسه ٢ : ٣٩٢ ، وأنظر ذات المصدر ص ٣٨٨ ، ٣٩٠ ، ففيها كلها أقوال لأعراب تذهب الى قصدنا ، وهو حب البدوي لوطنه وحنينه اليه ، ولو كان جحيما ، وكان هو يعيش في الفردوس .

١٤ ــ الوطن في الشعر العربي ص ٢٨٩ ، وطرفاء القصيبة : موضع اقامة زوجها .

الحارث الغساني الأكبر ، وأكرم مثواه ، « حن الى وطنه الأول : الى مواطن طي في الحجاز • ورغم نزوله عند الحارث ذي المجد والمكرمات • الواسع الشهرة والملك • رغم نزوله بمثوى كريم ناعـم البال بقي وطنه الحجاز يجتذبه :

غير أن الأوطـانَ تجتذب المر ءَ اليها الهون وان عاش كدّا

ورغم حياته الناعمة بالشام ، فان حسراته على وطنه تقد قلبه قدّا • اذ :

ليس يستعذبُ الغريبُ مقاما في سوى أرضه ، وان نال جدّا

ذلك لأن الأوطان جواذب »[١٥] •

ولا عجب أن يألف الجاهلي أوطانه ألفا عظيما ، وأن ينزع اليهـا ، ويحن الى أيامها ولياليها ، اذا أجبرته الظروف القاسية على البعد عنها ، والنأي عن حيوانها وطيرها وريحها ، حتى ليشتد الصراع في نفسه ويكاد يعصف به • « وقد ظلوا ــ العرب ــ يحنون الى صحاريهم وبواديهم حتى في الاسلام • ولا بدع في ذلـك ، فهـم غرس صحراوي المنبت والنشأة »[١٦] •

والآن ، فاننا نحس حين قراءة مطلع قصيدة عبيد[١٧] •

أقفرَ من أهله ملحوب فالقطبيات فالذنـوبُ

---

١٥ ــ المصدر نفسه : ص ٢٨٤ •

١٦ ــ مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي ، د• حسين عطوان ، ص ٥٠ •

١٧ ــ ديوان عبيد بن الأبرص ، ص ٣ ٢وما بعدها وشرح القصائد العشر للتبريزي ، ص ٤٧٨ وما بعدها •

بمدى محبة هذا الشاعر لقبيلته ، ووطنها ، ومدى الألم الذي اعتصره وهو يرى ديار قومه وقد دمرت تدميرا تاما ، وحل الوحش مكان الأنيس ، ونحس بحرارة بكائه وصدقه في وصف حالة الديار وما آلت اليه .

بل انك لتحس حين قراءة الأبيات التالية ، بعشق الوطن عشقا صوفيا :

أقولُ لصاحبي والعيسُ تهوي
بنا بين المُنيفة فالضِّمار
تمتعْ من شميم عَرار نجد
فما بعد العشية من عَرار
ألا يا حبذا نفحاتُ نجد
وريّا روضه بعد القِطار
وأهلك اذ يحل الحي نجدا
وأنت على زمانك غير زار
شهورٌ ينقضين وما شعرنا
بأنصاف لهنَّ ولا سرار

ولنتأمل في تكرار كلمة (نجد) ثلاث مرات في نهاية صدر البيت الثاني ، والثالث والرابع ونلاحظ ذكر الأهل (يحلون نجدا) لترتبط صورة الوطن بالأهل دائما .

---

١٨ ـ أنظر : أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي ، د. الحوفي ، ص ٢٤ .

قلنا : ان مفهوم الوطن منذ الجاهلية كان مرتبطا بظروف الحيـاة المادية[١٩] « الحيـاة في مكان ما تستمر ، طالما أن هـذا المكان يؤمن للشخص حفظ كرامته ، وحياة هنيئة سعيدة ، أما اذا لم تكن الظروف تناسب هذا •••• فعلى الشخص أن يدعـه ، وينتقل الى مكان آخـر جديد ، الى الوطن الجديد الذي تؤمن الحاجات فيه » [٢٠] •

ولقد عبر قيس بن الخطيم عن هذا بقوله : [٢١]

وما بعضُ الاقامةِ في ديـار يُهان بها الفتى الا بـلاء
وبعضُ خلائق الأقوام داءٌ كداءِ البطن ليس له دواء

ففي شعره ــ هنا ــ نلمح عناصر تجديد واضحة ، انها دعوة ، ان لم تكن مباشرة صريحة لكنها تلمح بوضوح ، انها الدعوة الى الرحيل وترك الديار التي لا تؤمن فيها للمرء كرامته •

وروى أبو الفرج في الأغـاني أنه سمع عبد الله بن جعفر بن أبي طالب قال لمعلم ولده : لا تروهم قصيدة عروة بن الورد التي يقول فيها :

دعيني للغنى أسعى فاني رأيتُ الناس شرّهُم الفقير

١٩ ــ قال الأخنس بن شهاب التغلبي (المفضليات تح شاكر وهارون ، ٢ : ٦) :

ونحن أنـاس لا حجـاز بأرضنـا مع الغيث ما نُلقى ، ومن هو غالب
ترى رائداتِ الخيل حول بيوتنا كمِعزى الحجاز أعجزتهـا الزرائب

٢٠ ــ الوطن في الشعر العربي ص ٢٨٤ •
٢١ ــ شـرح ديوان الحماسة للمرزوقي ، ٣ : ١١٨٧ ، وأنظر حماسة البحتري ، ص ١٧٨ ــ ١٧٩ وفيها شعر لعبد قيس بن خفاف التميمي حول ذات الموضوع •

ويقول : ان هذا يدعوهم الى الاغتراب عن أوطانهم .

وفرار المتلمس ، من العراق الى بلاد الشام ، من وجه عمرو بن هند أيضا ، هرب من وطن لا يأمن فيه الانسان على حياته وكرامته[٢٢] .

وهناك أمثلة كثيرة على ترك الانسان الجاهلي وطنه بحثا عن الأمن والحياة الكريمة (هرب امرىء القيس من وجه المنذر بن ماء السماء مثلا) . وسنفصل الحديث عن هذا فيما بعد .

ويبقى الانسان سعيدا اذا كانت حياته في وطنه كريمة من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية ، والا فعليه الهرب والبحث عن وطن آخر ، اذ لا يمكن أن يرضى بالدنية الا حمار البيت ، والوتد ـ كما يقول المتلمس ـ[٢٣] .

« ان ارتباط الانسان مع الأرض يمكن رصده من ارتباط مادي عضوي ، كارتباط النبات بها ، الى ارتباط معنوي ، حين اتصل بقضايا الحرية : (لا وطن بلا حرية ، ولا حرية بلا وطن) . وأحيانا يصبح شعور الوطن بشكل مباشر متعلقا بمفهوم الفقر والغنى ، (الفقر في الوطن غربة ، والغنى في الغربة يزيل شعور الاغتراب عن الأرض) . لكن ، بغض النظر عن هذا ، فان الأرض التي ولد عليها الانسان وفيها نشأ وترعرع ، تشده اليها دوما ، مهما تطورت مفاهيمه عن الوطن ، ومهما حاول الاغتراب والتنقل والارتحال »[٢٤] .

ولقد دعا بعض الشعراء الجاهليين الى التنقل في كل الأرض ، والى ترك ذلك القسم الذي يفتقر الى العدالة . لقد كانت علاقتهم بالوطن غير

---

٢٢ ـ أنظر خبر المتلمس وشعرا له في المفصل في تاريخ العرب ٣ . ٢٤٥ ـ ٢٤٦ ـ ٢٤٧ .
٢٣ ـ سنعود لأبياته في دراستنا لغربته .
٢٤ ـ الوطن في الشعر العربي ص ٣٣١ .

ثابتة ، فهم لا يقبلون الضيم ، ولا الظلم ، ولا امتهان الكرامة . ولقد عبر أوس بن حجر عن موقفهم هذا بقوله :

أقيمُ بدار الحزم ما دام حزمُهـــا

وأحْرِ اذا حالت بأن أتحوّلا[٢٥]

★ ★ ★

٢٥ ــ ديوان أوس بن حجر ، ص ٨٣ .

ثانيا ـ الغربة عن القبيلة وموطنها

ان ارتباط مفهوم الوطن بالقبيلة لدى الشاعر الجاهلي ، جعله يذوب بكل كيانه ، في هذا الوطن ، ويشعر أنه ، حين يكون بعيدا عن وطنه ، انسان ضائع ، غريب ، مهضوم الحقوق . لقد كان البعد عن الوطن ، لديه ، مأساة كبيرة ، أحسها وعاني منها عناء مرا . ولكن الانسان مفارق وطنه ، لا بد ، فالحياة تفرض عليه ، أحيانا ، أن يكون خارج وطنه وقبيلته ، وهنا فلا بد أن يعاني الغربة .

والحق أن هذا البعد كان على الجاهلي شديدا ، فشخصه القبلي ــ الذي يمثل كل كيانه ــ لا يأخذ أبعاده الحقيقية الا في قبيلته ، اذ لا نصرة ، ولا كرامة ، ولا عيش ، خارج اطار القبيلة . ولهذا فهو يحس بغربته بعيدا عنها ، احساسا مريرا ، يذكره ، ويلح في ذكره صراحة فهذا علقمة الفحل[٢٦] يستدر عطف ممدوحه على أخيه شأس ، وعلى الأسرى من بني قومه ، اذ يطلب منه أن يقدر مشقة سفره ، وبعده عن وطنه ، وغربته :

فلا تحرمَنّي نائــلا عن جَنابة   فاني امرؤ وسْط القِباب غريب

ولعل مطاردة المنذر بن مــاء السماء لامرىء القيس ، كانت أقسى

٢٦ ــ أنظر ديوانه شرح الشنتمري ، ص ٤٨ ، وقصة قوله قصيدته :

طحابك قلب في الحسان طروب   بعيد الشباب عصر حان مشيب

شيء أصابه في حياته بعد مقتل والده ، اذ جعلت غربته دائمة[٢٧]. ولقد سمت العرب ، عمرو بن قميئة ، عمرا الضائع ، وذلك لموته في غربته ، بعيدا عن وطنه وأهله [٢٨].

ويزداد احساس الجاهلي بالغربة ، حين يكون في غير قومه وموطنهم اذا أحس أنه مغبون ، أو أن له حقا هضم ، وهو يعلم تمام العلم ، أنه كان في قبيلته عزيزا ، صاحب حق ، منصورا بالعصبية ، فالأعشى مثلا كان يتنقل من ممدوح الى آخر بحثا عن المال .

وعلى الرغم من أنه كان يصيب مالا ، الا أنه كان يحس مرارة الغربة وضعته في غير قومه :

ومَنْ يغتربْ عن قومه لا يزلْ يرى
مَصارع مظلوم مجرّاً ومسحَبا

وتُدفنُ منه الصالحات وان يسىءْ
يكُنْ ما أساء النارَ في رأس كبكبا[٢٩]

ان العصبية للقبيلة تكاد تعمي الناس عن الحق ، وتزين لهم الباطل، فالغريب ، في غير قومه ، مظلوم ، يدفنون ما عمل صالحا ، ويشهرون به

٢٧ ـ أنظر تفصيل ذلك في ديوانه .
٢٨ ـ المفصل ٣ : ٣٧٠ .
٢٩ ـ حماسة البحتري ص ١٥٤ ، وأنظر في هذا المعنى بيت الأفوه الأودي :

اذا ما الدهر أبعد أو تقضى — رجال المرء أوشك أن يُضاما

ولعمير بن جلبس الطائي :

وان رجالَ المرء في يوم ضيمه — يردّون عنه كيدَ من كان أكيدا

أن أخطأ فأساء • ولقد عبر ، هرم بن حيان العبدي ، عن ضياع حق الغريب :

وجدتُ الفتى ما كان في غير قومه

تُنوصِرَ مظلوما عليه وظالما[٣٠]

ولأنه في عرف القبيلة مواطن من الدرجة الثانية ، أو الثالثة ، فأنه لا يعامل معاملة الانسان السوي التي كان يلقاها على أرضه وبين قومه ، فيشعر بمرارة ، وذل كبيرين ، يغضب الناس منه ولا يحق له الغضب ، ويرتفع صوتهم فوق صوته . ولا يرفع له صوت ، لا يقبل منه رأي ، ولا خطة ، ولا يستطيع انكار ما يشك فيه ، ولا يسمح له بأخذ حقه من المعيشة حداً أدنى • وقد عبر عمرو بن هبيرة بمرارة عن كل هذا :[٣١]

ومن تك في غير العشيرة داره

يُغضَّبْ فتبرُد غير مُرْضىً مغاضبه

يرى كل صوت منهمُ فوق صوته

ولا يوجبوا منه الذي هو واجبه

وينكرْ عليه ان أراب بخطة

ولا يستطعْ تنكير ما هو رائبه

وليس وان آووا عليه بمويىءٍ

ويوردْ عليه غيره ويشاربه

٣٠ ـ المصدر نفسه ص ١٥٥ •
٣١ ـ المصدر نفسه ص ١٥٥ وأنظر أيضا له :

أبي الله للجيران الا مذلة ومن يغترب عن قومه يتذلل

بل ان الشاعر الجاهلي يحس بمرارة الغربة ، وان كان في أخواله ، ذلك أن العصبية القبلية تعطي لرابطة الدم الأولوية ، ان بني الأعمام هم وحدهم من يقف الى جانب حقوقه ، وتبقى رابطة الدم بهم هي المقدمة على كل الروابط الأخرى . لا فرق بين أن يكون الشاعر غريبا في غير قومه ، أو في أخواله ، وكلنا يعرف أن الشاعر زهير بن أبي سلمى قد لقيه حيف في كنف أخواله ، وهذا النمر بن تولب كان يقيم في قبيلة أخواله، فاعتدوا عليه ، وأغاروا على ابله ، فقال :[٣٢]

اذا كنتَ في سعد وأمك منهم
غريبا فلا يغررك خالك من سعد

فان ابن أخت القوم مُصْغًى إناؤه
اذا لم يُزاحِم خالَه بأب جَلْد

انه يلح على غربته بذكرها صراحة ، ويذكر أيضا أنه لا يمكنه بانتمائه الى قبيلة أخواله ، وبوجوده بين ظهرانيهم ، أن يحيا حياة كريمة.

وكثيرا ما يعتب الشاعر على قومه ، اذ يتركونه يُقتل غريبا ، أو يضيع حقه ، ولا يهبون لنصرته ، وانما تشغلهم أموالهم عنه ، انه يطالبهم من طرف آخر ، بواجبات العصبية فهذا المنخل اليشكري ، وكان يحب زوجة النعمان هندا بنت عمرو بن هند ويتغزل بها ، فبلغ عمرا خبره ، فأخذه فقتله ، فقال قبل أن يقتل :[٣٣]

طُلَّ وسط العراق قتلي بلا جر م وقومي يُنتّجون السخالا

٣٢ ـ الكامل في اللغة والأدب والنحو والتصريف ، أبو العباس المبرد ، ٢ : ٥٢٨ .

٣٣ ـ الأغاني ١١ : ١٤ ـ ١٥ ، وشعراء النصرانية (شعراء الجاهلية) لويس شيخو ، ٤٢١ .

وهذا غريب آخر يقص علينا أبو الفرج قصته : هذلي التقى بعروة بن الورد ، وكان عروة قد أوقد نارا ، فأشار الهذلي لصحبه الى النار ، فكذبوه ثم اشتم رائحة رجل في اثائه ، فكذبوه ، ثم سمع حركة فرس، كان قد سرقها عروة ، فكذبوه ، فقص على عروة قصته وعروة يعلم بكل شيء ، وقال ان قومه لا يصدقونه ، لأنهم ليسوا عشيرته ، وانما هم عشيرة زوجه(٣٤) .

ان في الغربة مذلة ، هذه حقيقة أدركها الشاعر الجاهلي ، وعانى منها فهو خارج وطنه وقومه ، مجبر على فعل ما يكره ، والغربة تذل الجبابرة ، فهذا مهلهل ، سيد تغلب وقائدهم في حرب البسوس ، خرج من قومه ، بعد انتهاء الحرب ، ولحق بأرض اليمن ، فكان في جنب « فخطب اليه أحدهم ابنته فأبى أن يفعل ، فأكرهوه فأنكحها اياه ، فقال في ذلك مهلهل :(٣٥)

أنكحَها فقدُ الأراقم في ... جنبٍ وكان الحباء من أدَمِ

لو بأبا نين(٣٦) جاء يخطبها ... ضُرِّجَ ما أنفُ خاطب بِدَمِ

أصبحتُ لا مَنفِساًأصبتُ ولا ... أُبتُ كريماً حرّاً من الندم

هان على تغلب بما لقيَتْ ... أختُ بني المالكين من جُشَم

ليسوا بأكفائِنا الكرام ولا ... يُغنون من عَيْلَةٍ ولا عدم

الغربة اذن بدلت قيما ومفاهيم ، فمن كان يجرؤ على أن يتقدم لخطبة ابنة مهلهل ؟ ولكنه خارج وطنه وقومه ، فاقد للعز ، ممتهن

---

٣٤ ـ الأغاني ٣ : ٨٥ ، وهناك القصة مفصلة .
٣٥ ـ جبلان في أرض قومه .
٣٦ ـ الأغاني ٥ : ٥٠ ـ ٥١ .

الكرامة لم يصب مالا في زواجها ، ولا شرفا ، وما كان الخاطب كفؤاً له أو لها ، لكنها الغربة .

وتشتد وطأة الغربة على الشاعر الجاهلي ، حين يشعر أن المنية قد دنت . انه يحس بمرارة غربته بعد الموت . فكيف اذا كان بعيدا عن الأهل والوطن ؟ انه ان أحس بأن الموت دفاعا عن القبيلة وموطنها شرف له وحق عليه ، فانه حين يموت بعيدا عنها ، ويعلم أنه لا يمكن قومه زيارته في قبره ، تشتد مرارة الفراق عليه ، ويزداد حزنه في غربته ، وقد عاش امرؤ القيس مرارة هذه التجربة ، فالاخباريون يروون أنه في طريق عودته من عند القيصر ، مرض ووافته المنية في أرض (تركية) الآن . فقال حين اشتد به المرض :[37]

ألا أبلغْ بني حجر بن عمرو	وأبلغ ذلك الحيّ الجديدا
بأني قد هلكتُ بأرض قوم	بعيداً عن دياركم بعيدا
ولو أني هلكت بأرض قومي	لقلت الموت حق لا خلودا
بأرض الروم لا نسب قريب	ولا شاف فيسند أو يعودا[38]

وهذا أفنون التغلبي . يروى أنه كان في سفر الى الشام وفي عودته

---

37 ـ ديوان امرىء القيس ٦٢ ـ ٦٣ وشعراء النصرانية ص ٣٤ .

38 ـ ولمزيد الخيل الطائي أبيات في هذا المجال يقول فيها :

أمر تحل صحبي المشارق غدوة	وأترك في بيت بفردة منجد
سقى الله ما بين القفيل خطابة	فما دون أرمام فما فوق منشد
هنالك لو أني مرضت لعادني	عوائد من لم يشف منهن مجهد
فليت اللواتي عدنني لم يعدنني	وليت اللواتي غبن عني عودي

(ديوانه ، ص ٥١ ـ ٥٢ والأغاني ١٧ : ٢٤٩) .

ضلت القافلة الطريق .... فلدغته حية فوق ناقته ، فقال : احفروا لي قبرا هنا ، ثم قال ــ من أبيات كثيرة ــ :

كفى حزناً أن يرحل الحيّ غدوة

وأصبح في أعلى الاهة ثاويا[39]

ولقد عبر الشاعر الجاهلي عن رفضه للغربة ، وتشاؤمه بالفراق ، وصور ما سيلاقيه بعيدا عن أهله وموطنه ، فالنابغة الذبياني حين اقترب رحيله عن ارض الحبيبة ، تشاءم وزعم أن غراب البين قد زف هذا الخبر ، فهو لهذا يرفض الغربة وآلامها ، وهذا الرفض المسبق يدل دلالة واضحة على الألم الذي كان يعانيه : [40]

أفد الترحّل ، غير أن ركابنا — لمّا تزل برحالنا ، وكأن قدِ

زعم البوارح أن رحلتنا غدا . — وبذاك خبّرنا الغُداف الأسودُ

لا مرحباً بغد ، ولا أهلا به . — ان كان تفريق الأحبة في غد

ويعبر الشاعر الجاهلي ، أحيانا ، عن ضيقه بالرحيل والغربة ، على لسان ناقته . وهذا يعني أنه قد وصل الى قمة احساسه بها . ونقمته عليها والناقة أيضا ترفض الارتحال الدائم . وتحن الى الاستقرار . فناقة المثقب العبدي تبثه همومها متأوهة حزينة من خلال التشخيص الذي ينطوي على معنى كبير :[41]

---

٣٩ ــ المفضليات ٦١ ، والنصرانية ١٩٢ ، ١٩٣ .

٤٠ ــ ديوان النابغة ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

٤١ ــ ديوان المثقب ص ١٩٤ ، والكامل ١ : ٢٩٣ ، وطبقات فحول الشعراء محمد بن سلام الجمحي .

اذا ما قمتُ أرحلها بليل | تأوّهُ آهة الرجل الحزين
تقول اذا درأتُ لها وضيني[٤٢] | أهذا دينه أبدا وديني ؟
أكلّ الدهر حلّ وارتحال | أما يُبقي عليّ وما يقيني

اذا كان هذا حال الرجال ، واذا كان هذا حال الناقة الصبور المتعودة على كل صنوف العذاب ، ومشاق الصحراء ، فكيف بفتاة قرر والدها الرحيل بحثا عن الرزق ، تاركا اياها واخوتها بلا نصير ، ولا معين في هذا المجتمع القائم على مبدأ (القوي يأكل الضعيف) ، انها لا شك ترفض الغربة ، وترفض أن تترك وحدها غريبة ، وأن يعاني والدها أيضا قسوة الغربة • انها ابنة الأعشى تقول :[٤٣]

تقولُ ابنتي حين جدّ الرحيل | أرانا سواءً ومن قد يتمْ
أبا نافلا رِمْتَ من عندنا | فانا بخير اذا لم ترِم
ويا أبتا لا تزل عندنا | فانا نخاف بأن تُخترَم
أرانا اذا أضمرتك البلا | دُ بجفى وتُقطع منا الرحِم

وقد عاش الشاعر الجاهلي في غربته عن وطنه وأهله ، ملحمة حنين وشوق ، نراها تتردد في كل الشعر الجاهلي ، وفي كل ثنايا قصائده ، في أطلاله ، وغزله ، ووصف ناقته ، ومشاق الطريق ، وفي مديحه ، وفخره•

فقد كان في غربته يلون كل شعره بلون الحنين والشوق الى الأهل وهو اذ يذكر الحبيبة مثلا ، فانه يربط حديثه عنها بالحديث عن أهله وأهلها ، وذكريات الأيام الماضية ، وحين يبكيها فانه يكون صادقا في

---

٤٢ ـ الحزام •
٤٣ ـ ديوان الأعشى الكبير ، القصيدة ٤ ، ص ٤١ •

بكائه ، يضج شوقا وحنينا : (٤٤)

هاج بك الشوق من ريحانة الطربا

اذ فارقتك وأمست دارها غربا

ما زلت أحبس يوم البين راحلتي

حتى استمروا وأذرت دمعها سربا

ومرة أخرى يستخدم الشاعر ناقته للتعبير عن شوقه وحنينه ، والشاعر ليس أقل شوقا منها ، ولكن كيف يحن الى وطن بعدت عنه الحبيبة (هند) ، ان الشوق يتنازعه فيستخدم طريقة فنية ذكية ، الناقة مشتاقة ، وهو يزجرها عن هذا الشوق ، فهو يحب الوطن ، لأن الحبيبة فيه ، أما وقد بعدت عنه ، فلا شوق ولا محبة لهذا الوطن :(٤٥)

وحنت قلوصي بعد وهن وهاجها

مع الشوق يوما بالحجاز وميض

فقلت لها : لا تضجري ان منزلا

نأتني به هند الي بغيض

٤٤ ــ ديوان عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، ص ٢٧ .

وقال الوقاف (ورد بن ورد الجعدي) :

اذا تركت وردية النجد لم يكن | لعينيك مما يشكوان طبيب

واني لأخشى أن يعود عليهما | قذى كان في جفنيهما وغروب

وكانت رياح الشام تبغض مرة | فقد جعلت تلك الرياح تطيب

(الأمالي ، أبو علي القالي ٢ : ٦١ ــ ٦٢) .

٤٥ ــ ديوان عبيد بن الأبرص القصيدة ٣١ .

وربما عبر الشاعر عن محبته لوطنه وشوقه اليه ، في غربته . وان كان في ديار حبيبة ، انه يفضل الوطن على نزواته ورغباته ، وماذا يشوقه في الوطن ؟ كل شيء فيه ، جباله ، وأرضه ، والناس الذين يقطنونه . فقد كان حاتم الطائي في الطريق قافلا من عند (ماوية) حبيبة القلب ، ولكنه لم يعد يطيق صبرا ، فقد حن الى جبال طيء ، وحنت ناقته معه ، والناقة في الشعر الجاهلي ــ كما هو معلوم ــ الرفيق الوحيد المخلص للشاعر ، حاملة الهموم ، وشريكة الدرب[٤٦] ، فهي أيضا تعرف جبال الوطن . وتعرف الطريق اليه ، لذا فهي تغذ السير ، ويزداد حنينها حين تشتم رائحة الوطن : [٤٧]

حننتُ الى الأجبال ، أجبال طيّءٍ
وحنتْ قلوصي أن رأتْ سوطَ أحمرا

فقلتُ لها : ان الطريق أمامنا
وانا لمُحيّو ربعِنا ان تيسّرا

. . . .
. . . .

لَشَعْبٌ من الريان أملك بابَه
أنادي به آل الكبير وجعفرا

أحب الي من خطيب رأيتُه
اذا قلتُ معروفا تبدّل مُنكرا

---

٤٦ ــ أنظر الرحلة في القصيدة الجاهلية ، د. وهب رومية ، ففيه حديث مفصل حول هذا الموضوع .

٤٧ ــ الأغاني ١٧ : ٣٨٠ ــ ٣٨١ ، وشعراء النصرانية ١٠٧ .

ويكون الأمر أشق حين يترك الشاعر وطنه وقومه ، لأمر ما ، كأن يخرج على العصبية ، أو يعاني اهمالاً من قومه ، أو يحس بأنهم قد ارتكبوا أخطاء لا يحسن السكوت عليها ، فيغلبه الحنين على نفسه . ولكنه لا يستطيع العودة الى الوطن والعشيرة ، فيعبر عن شوقه الى الأرض والأهل ، والى الحياة التي كان يعيشها بينهم ، ويمتدحهم دون تملق . ولكن باحساس صادق . لأنه يريد أن يعبر لهم عن الشوق الذي تغلبه عزة نفسه ، ويغالبها فيه . (٤٨) « كان زهير بن عروة المازني الملقب بالسكب جاهليا ، وكان من اشراف بني مازن وأشدائهم وفرسانهم وشعرائهم . فغاضب قومه في شيء ذمه منهم . وفارقهم الى غيرهم من بني تميم . فلحقه فيهم ضيم . وأراد الرجوع الى عشيرته ، فأبت نفسه ذلت عليه . فقال يتشوق ناسا منهم كانوا بني عمه دنية يقال لهم بنو حنبل :

اذا الله لم يسقِ إلا الكرام ... فسقّى وجوه بني حنبل

. . . .

. . . .

فنعم بنو العم والأقربون ... لدى حُطمة الزمن الممحل

ونعم المواسون في النائبا ... ت للجار والمعتفي المرمل

بل ان بعضهم كان يفضل الضيم والحيف ، على فراق الوطن والأهل ونحن نعرف قصة إسلام جبلة بن الأيهم (٤٩)، وارتداده عن الاسلام ، لاعتقاده أن الخليفة ، عمر بن الخطاب ، اذ أراد أن ينتصر للأعرابي منه ،

---

٤٨ ـ الأغاني ٢٢ : ٢٧٠ .

٤٩ ـ أنظر تفصيل القصة في الأغاني ١٥ : ١٦٢ وما بعد ، والشعر التالي للنص منه أيضا .

قد أذله وكيف ذاك (وهو ملك وذاك سوقة) فهرب تاركا وطنه وأهله ، ميمما وجهه شطر قيصر الروم ، ولكنه في منفاه كان يذكر الوطن وأهله. فقد « أمر جواريه أن يبكينه ، فغنينه :

تنصّرتِ الأشرافُ من عـار لطْمـة
وما كان فيها ، لو صبرتُ لها ، ضررْ

تكنّفني فيهـا لَجـاج ونخـوة
وبعتُ بها العين الصحيحة بالعَورْ

ويا ليتني أرعـى المخـاضَ بقفـرة
وكنت أسـيرا في ربيعـة أو مضـر

ويا ليت لي بالشام أدنى معيشة
أجالسُ قومي ذاهب السمع والبصر

ولنتأمل في شعوره بمرارة الغربة ؟ كيف يدفع حب الوطن بهـذا المتغطرس الى قبول أن يكون راعيا في بلده ، أو أسيرا ، أو أن يكون أعمى أو أصم ، ولكن على أن يكون في وطنه وبين أهله ؟ لقد رضي هذا (الملك) بما كان يعتبره ذلا ولم يرض أن يبقى غريبا في غير قومه ووطنـه .

والصعاليك : على الرغم من تمردهم ، وخروجهم على قبائلهـم ، كانوا يحنون الى حياة القبيلة والى الأرض التي تضمهـا ، والى أقاربهم الذين خلفوهم ، وكانوا ، كلما سنحت الفرصة لهم ، يزورون أهلهم ، أو يكتفون ببث الحنين والشوق ، والشكوى الدائمة من الغربة . فهذا

أبو الطمحان القيني[٥٠] قد نزل على الزبير بن عبد المطلب (بمكة) فطال مقامه لديه ، واستأذنه في الرجوع الى أهله وشكا اليه شوقا اليهم فلم يأذن له . وسأله المقام . فأقام عنده مدة ، ثم أتاه فقال له :

ألا حنّتِ المرقال وائتبَّ[٥١] ربُّها
تذكّرُ أوطانا وأذكرُ مَعْشري

ولو عرفتْ صرف البيوع لسرها
بمكة أن تبتاع حمضا[٥٢] بأذخرِ[٥٣]

أسرّكِ لو أنا بجنبيْ عُنَيزَةٍ[٥٤]
وحَمْضٍ[٥٥] وضمران[٥٦] الجناب وصَعْترِ[٥٧]

انه وناقته تذكرا الوطن والأهل ، ثم خص الناقة بالحديث ، فعقد مقارنة بين موطن أهله ، ومكة ، وعلى الرغم من أن مكة أفضل الا أن الناقة (الشاعر) تصر على الذهاب الى الوطن ، وتكحيل العين برؤية ترابه وناسه .

ولم ينس الصعلوك ، حتى وهو في الأسر ، أن يذكر الوطن والأهل،

---

٥٠ ــ الأغاني ١٣ : ١٣ .
٥١ ــ تهيأ للرحيل .
٥٢ ــ نبات مالح .
٥٣ ــ حشيش طيب الرائحة .
٥٤ ــ موضع في بني تميم .
٥٥ ــ موضع في البحرين .
٥٦ ــ موضع .
٥٧ ــ موضع

فقيس بن عيزارة[٥٨] «حين وقع في يد فهم فأنشأ يتذكر داره ، ودور قومه ، في «ذات الغمر» وراح يقول :

سقى الله ذات الغمر وبلا وديمة ... وجادت عليه البارقات اللوامع

بما هي مقناة أنيق نباتها ... مُربٌ فترعاها المخاض النوازع

أما تجربة امرىء القيس مع الوطن والغربة عنه . فهي تجربة خاصة. لأنه فقد ملكاً ، وأباً ، وطورد في وطنه ، وخرج الى ملك الروم مستنجدا ، ولقي هناك العز والنجدة . ومع هذا فقد ظل الوطن يضج في أعماقه ، وظلت الغربة تأكل فؤاده منذ سفره . وحتى موته في الغربة .

لقد كان في كنف القيصر ، يعيش في قصوره ، ولكن الحنين الى ابنته هاجه ، وغالبه فقال :

أأذكرت نفسك مالن يعودا ... فهاج التذكر قلبا عميدا

تذكرت هندا وأترابها ... فأصبحت أزمعت منها صدودا[٥٩]

وكان أثناء سفره يمر بالقرى والمدن العربية . فيألم لفراقها ، ويعلم أنه ربما لا يعود اليها ثانية :

---

٥٨ ــ شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والاسلامي . ص ٩٧ ، وديوان الهذليين ، ٣ : ٧٩ ــ ٨٠ .

٥٩ ــ ديوان امرىء القيس ص ٦٤ (ليس مهما هنا تحقيق ما اذا كانت هند ابنته أم حبيبته ، ذلك أن ما يعنينا هو تجربة الغربة ، وحنين الشاعر الى الأهل « هنا ») وله في البعد عن الحبيبة (الديوان ص ١٠٤) .

أمن ذكر سلمى اذ نأتك تنوص ... فتقصر عنها خطوة وتبوص

تبوص وكم من دونها من مفازة ... ومن أرض جدب دونها ولصوص

وكل ما يرد من الشعر له فيما يلي هو من الديوان ص ٦٩ وما بعد .

تذكرتُ أهلي الصالحين وقد أتت

على خملي خوص الركاب وأوجرا

فلما بدت حوران والآل دونها

نظرتَ فلم تنظر بعينيك منظرا

تقطع أسبابَ اللبانة والهوى

عشية جاوزنا حماةَ وشيزرا

وقد بدأ يحس (وصاحبه عمرو بن قميئة معه) بالغربة وهو لم يزل في الطريق ويحس بالحنين ، الى الوطن والأهل ، ولما يصل الى غايته بعد، لقد أنكرته المدن والطرق المؤدية اليها ، وأحس بمرارة المصاب الذي حل به ، فهو مضطر الى الذهاب ، والحنين الى الوطن يجتذبه ، وقسوةالغربة ترده عن قصده :

بكى صاحبي لما رأى الدربَ دونه

وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

لقد أنكرتني بعلبك وأهلها

وابن جريجٍ كان في حمص أنكرا

وعمرو بن قميئة ، رفيق الشاعر في رحلته ، يصور حنين ابنته الى موطنها (اذ شطت بها النوى فبكت)[٦٠] فقد أحست بالغربة ، وأنكرت الأرض التي تمر فيها ، انها ليست أرض الوطن ، والشاعر لا يلومها اذ

٦٠ ـ الأغاني ١٦ : ١٥٨ ، وشعراء النصرانية ٢٩٥ .

تذكر الوطن والأقارب ، انه أيضا يحس بمرارة الغربة ، ويذكر الوطن والأهـــل :

قــد سألتني بنتُ عمرو عن الـ ...... أرض التي تُنكــر أعلامهــا

لمّا رأت (ساتيدمــا) استعبرتْ   لله دَرّ اليوم مَن لامهــا

تذكرتْ أرضــاً بهــا أهلُهــا   أخوالهــا فيهــا وأعمامهــا

وبعد : فهل يلام الشاعر الجاهلي في حبه لوطنه وأهله ، وفي احساسه بالغربة بعيداً عنهما وهو الذي قال على لسان شاعر من بني ضبة :(٦١)

نسير علــى علــمٍ بِكُنْهِ مَسيرنــا

بعِفّةِ زادٍ في بُطــونِ المــزاودِ

ولا بُدَّ في أسفارنــا مــن قبيصَةٍ(٦٢)

من التُّربِ نُسقاهــا لحُبِّ الموالــدِ

ولا ينسى الشاعر الجاهلي ، وهو في غربته ، وطنه . فان أمن وطنه وسلامة أهله ، يشغلانه باستمرار ، وهو لهذا حريص على خدمتهما بكل ما يملك ، وان تعارض هذا مع مصلحته الشخصية ، فهو يضحي بنفسه في سبيل وطنه وقبيلته .

ويكفي هنا أن نذكر (لقيط بن يعمر الأيادي)(٦٣) ، فهذا الشاعر كان يعمل في ديوان كسرى وكان مقربا اليه ، ولكنه حين علم بأن كسرى

---

٦١ ــ رسالة الحنين الى الأوطان ص ٢٢ .

٦٢ ــ حفنة .

٦٣ ــ قصتة كاملة في الأغاني ٢ : ٢٢ : ٣٥٨ . وفي ديوانه ص ٢٨ ــ ٣٣ .

يجهز حملة قوية لغزو قومه في عقر دارهـم ، أبى الا أن يبلغ قومـه بذلك في رسالتين شعريتين ، يقول في مطلع الأولى :

سلامٌ في الصحيفة من لَقيط الى مَنْ بالجزيرة مِنْ إيـاد
بأن الليث كسرى قـد أتاكم فـلا يشغلْكم سوق النقـاد

وفي الرسالة الثانية يتوجه اليهم بالنصح والرأي السديد على عجل: أن يسارعوا الى تجميع شتاتهم ، ان كانوا مفرقين ، ويوحدوا صفوفهم ، وآراءهم اتقاء لعدو قد تجهز لهم بجيش كثيف يسد الأفق ، في كامل عدته . ثم يلومهم لالتفاتهم الى أمور الزراعة ، والرعي ، وزيادة الأموال ، دون أن يحسبوا لهذا اليوم حسابا . أو يجمعوا الرجال والسلاح :

يا أيهـا الراكبُ المُزجي على عجَل
نحو الجزيرة مرتادا ومُنتجعـا
أبلـغْ إيـاداً ، وخلّل في سراتهـم
أني أرى الرأيَ ان لم أُعصَ قد نصعا
يا لهف نفسي اذا كـانت أموركـمْ
شتى ، وأُحكم أمرُ الناس فاجتمعا
ألا تخافـون قومـا ، لا أبالكـم ،
أمسْوا اليكم كأمثال الدبـا سُرعـا
. . . .
وأنتم تحرثـون الأرض عـن سَفَه
في كـل معتمـل تبغون مُزدرعـا

وتلقحــون حيـــال الشـّوْل آونــة

وتـنتجون بــدار القلعـــة الرُبعــا

• • • • • • • • • •

وتلبسون ثيــاب الأمــن ضاحيــة

لا تجمعون ، وهذا الليثُ قد جمعا

لم يزل هذا الرجــل متمسكا اذن بقبيلته ، الوطن والقبيلة أولا • ولولا إحساس هذا الشاعر بالغربة في ديــار كسرى ، ولولا أنه ظــل متمسكا بانتمائه الى العرب ، لما قام بتبليغ قومه ، وتحذيرهم من تجهيزات كسرى ، وعرض نفسه لأبشع المخاطر •

وتزداد تجربة الغربة عن الوطن فجيعة ، حين يتعرض الوطن وأهله لمخاطر حروب ، أو دمار ، فيعود الشاعر من غربته ليجد كل شيء قاعا صفصفا ، وماذا يصنع الشاعر بأطلال دارسة ، أو دور مهدمة ، أو قصور فرغت من ساكنيها ، ان الأسود بن يعفر التميمي النهشلي[٦٥] حين يقف على قصور (آل محرق) ، ومنازل (اياد) فيبكيها ، يشعر بالغربة عنها . وماذا تنفع هذه القصور ؟ وهل سيأنس بهــذه المنازل المهجورة ؟ انه غريب على الرغم من وجود الوطن (متمثلا ببقاياه) :

مــاذا أؤمــلُ بعد آل محــرّق

تركــوا منازلهــم وبعد إيــاد

أهــل الخَورْنَق والسدير وبارق

والقصر ذي الشرفات مِن سِنْداد

٦٤ ـ أنظر ديوان لقيط بن يعمر الايادي ص ٢٧ ، ٢٨ •

وإذا كان هذا موقف رجل حيادي ــ أو يشبه الحيادي ، إذ القوم ليسوا قومه ــ فكيف بعبيد بن الأبرص ؟ لقد كانت له تجربة خاصة مع الوطن ، فشارح ديوانه[٦٥] يذكر في مقدمة معلقته ، أن الشاعر قد جاء ديار قومه ــ لعله كان في زيارة للحيرة ــ فوجدها مهدمة تهديما كاملا ، وأهلها قد هجروها فلم يبق فيها إلا الدمار والخراب ، وذلك بعد احدى غارات الحارث الأعرج الغساني عليها[٦٦] . ولهذا فهو يذكر هذا المنظر دائما . ويردده في أغلب قصائده ، انه يقف عاجزا لا يمتلك الا الدموع ، وتظل الأرض دون معنى لديه ، ويظل الأهـل ، الذين قتلتهم الحـرب وشردتهم ، غربة الشاعر :

لمـن طلـلٌ لـم يعف منه المذانب
فجنبـا حبر قـد تعفى فواهب[٦٧]

ديـارُ بنى سعد بـن ثعلبـة الألى
أذاع بهم دهـرٌ علـى الناس رائب

فأذهبهم مـا أذهب الناسَ قبلهـم
ضراسُ الحروب والمنايـا العواقب

وهو دائم الذكرى لأهله ، حيث حل ، وحيث رحل ، وهو يذكرهم بالخير دائمـا ، ويبكي لفراقهم أبدا ، لقد بكى في المعلقة طويلا ، حتى حـار الناس في بكائه هـذا ، وهو هنـا يبكي أيضا أمجـاد قومه ،

---

٦٥ ــ تح د. حسين نصار عن نسخة ليال .
٦٦ ــ أنظر مطلع المعلقة في ديوانه ص ٩ .
٦٧ ــ ديوان عبيد ص ٤٠ .

وفروسيتهم ، وكرمهم . ويبكي أيضا حياة الصبا التي قضاها بين ظهرانيهم ، وأصبح بعدها غريبا وبعيدا عن كل هذا[68] :

تذكرت أهلي الصالحين بمَلْحوب ،[69]

فقلبي عليهم هالك جِدّ مغلوب

تذكرت أهل الخير والباع والندى .

وأهل عتاق الجُرْد والبرّ والطيب

تذكرتهم ما انْ تجفّ مدامعي ،

كأنْ جدولٌ يسقي مزارع مخروب

فأصبحَ مني كل ذلك قد مضى

فأيّ فتى في الناس ليس بمكذوب ؟

والوطن دون الأهل (والحبيب خاصة) غربة ، وماذا تنفع أرض دون ساكنيها ؟ بل كيف يعيش الانسان في وطن ، والحبيب في وطن آخر ؟ وكيف يمكنه أن يحيا سعيداً بأرض ، والحبيبة بعيدة ، أو غاضبة؟ لقد ربط الشاعر الجاهلي ، كما رأينا ، حب الوطن بحب القبيلة ، وهو هنا يرفض وطنا بلا حبيب ولا أهل ، انه يعتبر نفسه غريبا عن هذا الوطن :

قفي ودّعينا اليوم يا ابنة مالك

وعوجي علينا من صدور جمالك

---

68 ـ نفس المصدر ص ٣٧ وما بعد .

69 ـ يلاحظ أنه نفس المكان الذي أقفر في معلقته فبكاه .

أخبرك أن الحي فرق بينهم

نوى لي غربة ضرارة لي كذلك[70]

والوطن دون حياة كريمة غربة أيضا ، فمع محبة الشاعر الجاهلي الكبيرة لوطنه وقبيلته ، نراه اذا ضاقت به الحياة فيهما ، يتنقل في كل الأرض ، ويبحث عن العدالة حيث يجدها (الصعاليك مثلا) الا من كانت العصبية القبلية متمكنة منه ، فانه يدعو الى تحمل ظلم القبيلة ، وقساوة الحياة حبا بالوطن وامتثالا لواجبات العصبية .

فأوس بن حجر يعبر بكل بساطة عن هذا ، حين يجعل ارتباطه بالوطن من خلال تأمين الوطن لكرامته ، وهو بكل بساطة ينتقل الى وطن آخر وأهل آخرين (وان كان هذا لن يؤمن له ما يطلب ، وذلك لأن نظام الحياة القبلية سيوقعه فيما هو أمر وأدهى لأنه سيكون آنئذ جارا وحليفا (مولى) في غير قومه ، وتلك طامة أكبر ، سنراها فيما بعد) :

أقيم بدار الحزم ما دام حزمها

وأحر اذا حالت بأن أتحولا[71]

وقد مر بنا قول عروة : (دعيني للغنى أسعى فاني[72] ....) الذي يعتبر الفقر في الوطن غربة .

وتصل الثورة بالشاعر أحيانا الى درجة يرفض فيها العودة الى الوطن ، مع وجود الحياة الرخية فيه . ذلك لأن في العراق كان الأمر

---

٧٠ ـ ديوان طرفة بن العبد ، ص ٨٦ ـ ٨٧ وشعراء النصرانية ٣١٣ .

٧١ ـ ديوان أوس بن حجر ص ٨٣ .

٧٢ ـ الأغاني ٣ : ٧٥ .

مختلفا عن الصحراء ، فهناك ملك هو ملك الحيرة يفرض سلطته الرسمية على الناس • فالوطن ، على الرغم من وجود الأهل والحياة الرخيـة . يتحول الى جحيم يحتوي على الحشرات والأمراض والوحوش ، فضلا عن الظلـم الذي يمارسه الملك (عمرو بن هند) علـى رقاب الناس . فالشاعر سويد بن خذاق يعبر عما يمكن تسميته ، بالغربة السياسية[٧٣] :

أبى القلبُ أن يأتي السديرَ وأهلـه

وان قيل عيشٌ في السـدير غزيـر

بـه البقّ والحمّى وأُسْدُ خفيَّةٍ

وعمرو بنُ هنـد يعتدي ويجور[٧٤]

ويعبر عقبة بن حوط التميمي عن هذه الغربة بمعناها العامْ ، دون تحديد لوطن أو لطاغية ، انه يرفض رفضا مطلقا أن يقيم في وطن ينبو به، وانه سرعان ما يتحول الى غير أهله . ضاربا عرض الحائط بكل ما يمكن أن يحصل له بعد هذا ، وهو يتجاوز حتى مفاهيم مجتمعه في هذا المجال، فهم كانوا يعتقدون ، أنه اذا مر طير سانح بقرب الرجل ، فعليه ألا يفعل ما يعزم عليه . واذا نعب غراب ، فهذا دليل شؤم . أمـا شاعرنا فالأمر سيان ، لا يهمه اطلاقا ، ولا يثنيه أي شيء عن تحقيق غرضه . انه بهذا يشير الى الظلم الذي حاق به من ناحية ، والى أنفته وعزته من ناحيـة أخرى ، انه يؤكد مفهوم الكرامة ، ويعمق طريق الغربة السياسية :

أقيـمُ بالـدار مـا اطمأنتْ بـي

الـدار وان كنتُ نازعـاً طَربـا

---

٧٣ ـ سندرس هذه الغربة مفصلة في حديثنا على غربة المتلمس ·

٧٤ ـ المفصل ٣ : ٢٤٧ ·

وإن بأرضٍ نبتْ بـيَ الـدارُ م

فعجّلْتُ الى غير أهلهـا القرُبـا

لا سانحٌ مـن سوانح الطـيرِ م

يثنيني ولا ناعِبٌ اذا نعَبـا[٧٥]

واننا لنقرأ أحيانا شعرا تنسبه كتب الأدب الى شاعر من بني فلان . فنحس بأننا أمام ملحمة شوق وحنين الى الوطن رائعة ، تدخل الناقـة عنصرا أساسيا فيهـا . فثمة شعر نسبه (المبرد)[٧٦] الى أعرابي من بني كلاب ، يقول ان حبه وحنينه لا يمكن أن يحملها أحـد بين ضلوعه . وهنا يعود الى شطر نفسه شطرين : شطر تعبر عنه الناقة ، وشطر يعبر عنه هو ، كلاهما عاشق . وكلاهما ممتلىء صبابة ، ولكنها تبدي ويخفي هو ، انها تبدي لأنها لا تلام . وهو يخفي خوف اللوم ، ولكن شوقه يتفجر في النهاية ، فيوجد نفسه مرة أخرى مع ناقته ، فهو قد خرج عن وطنه وأهله لأمر ما ولكنه لم يكد يخرج الى هواه (قصده) حتى بدأت الناقة (شطره الأول) تحن الى الحمى وأهله ، وهو يغالب هذا الحنين . ثم يقر معها بشوقها راسما أجمل ملاحم الشوق والحنين ، رافضا الغربة بكل ما يجنيه المرء من ورائها :

فمنْ يكُ لـم يغرَضْ فاني وناقتي

بحَجْرٍ الى أهـل الحمى غرِضـان

هوى ناقتي خَلْفي وقُدّامي الهوى

وانـي وايـاهـا لمختلفـان

٧٥ ـ حماسة البحتري ١٧٩ .
٧٦ ـ الكامل ١ : ٣١ ـ ٣٢ .

تحِن(٧٦) فتُبدي مـا بها من صَبابة

وأُخفي الـذي لولا الأسى لقضاني

فيا كَبِديْنا أجْملا قـد وجدتُمـا

بأهل الحمى ما لـم يجِـدْ كَبِدان

اذا كبدانـا خافتـا وشْكَ نيَّـةٍ

وعاجِـلَ بَيْنٍ ظلّتـا تَجِبـان

وتصطرع عاطفة الشوق والحنين في نفس الشاعر ، حين يترك قبيلته ويجاور غيرها ، اذا لقي حيفا منها . ويعود الى شطر نفسه . بينه وبين ناقته ، ان الجانب الايجابي من القبيلة والوطن تحتله الناقـة ، وتحتل ذات الشاعر المكلومة الجانب الآخر ، فهذا رجل آخر من بني كُليب ، تخلى عنه أبناءعمومته ، ولم يقفوا بجانبه أثناء شدته ، فهجرهم . ولكنه ظل يحن الى القبيلة والوطن ، وتؤدي الناقة هذا الدور . وتؤدي نفسه موقف الرفض . ومغالبة هـذا الشوق ، انه لا يمكن أبـدا أن يسمح لعاطفة الحنين أن تتسرب الى نفسه ، وتدوس كبرياءه . ويبقى حـب الوطن قتالا ، فتنزع نفسه . ويعبر عن نزوعها تعبيرا غير مباشر ، حين ينال من بني عمه الذين قبلوا أن يجاور في غيرهم . ويهجرهم ووطنه ، انه احساس مريـر بالغربة ، فالجـار مهما حسن . لا يمكن أن يكون كالأهل ، واذ يرضى الشاعر بمرارة الغربة ، وبأن يعتبر مواطنا في غير أهله ، فان هذا يزيد اللوعة لوعة ويزيد الغربة مرارة :(٧٧)

وحنّت ناقتي طربـا وشوقـا

الى مَنْ بالحنين تَشوّقيني ؟

٧٧ ـ شعر الحماسة ١ : ٢٩٤ .

فاني مثْلَ ما تجدين وَجْدي

ولكنْ أصبحتْ عنهم فروني[٧٨]

رأوْا عرشي تثلَّم جانباه

فلما أن تثلَّم أفردوني

هنيئاً لابن عمٍّ السّوء ، أني

مجاورةٌ بني تُعَل لبوني

ويذكر الشاعر الجاهلي الحبيبة ، وقد فارقت حيه ، فقد تكون مجاورة ، أو محالفة أو ينتقل حيها بحثاً عن المرعى ، فيتألم للفراق . وللغربة التي حلت به بعيداً عنها . ويذكر أيام السعادة التي قضاها بقربها . ويتصور ألم الغربة بعدها .

ولقد أبدع الشعراء الجاهليون في وصف لحظة الفراق ، وألمها ، وما سيحل بهم بعدها ، ووصفوا الأيام الماضية قبل الفراق ، وبكاءهم على تلك الأيام[٧٩] ....

لحظة الوداع اذن تحمل في داخلها ألم الغربة ، ولهذا فقد أسهب الشعراء الجاهليون في الحديث عنها ، وقد تضيق الصفحات الكثيرة عن استيعاب المادة الشعرية التي تتعلق بهذا الموضوع ، وكلها تؤكد على بعد المكان الذي حلت به الحبيبة ، وتذكر الأيام الماضية وتبكيها . وصعوبة اللقاء بها ، وأخيرا ألم الغربة الذي يعانونه :

٧٨ ــ النفس .

٧٩ ــ أنظر قصيدة الحادرة : بكرت سمية بكرة فتمتع ، والدراسة البديعة التي قام بها الدكتور محمد النويهي لها في كتابه : « الشعر الجاهلي »

حلّتْ تماضـر بعدنـا رببـا
فالغمـر فالمـرين فالشعبـا

حلـت شآمية ً وحـلّ قسـاً
أهلـي فكان طلابهـا نصبـا

لحقتْ بأرض المنكـرين ولـم
تمكن لحاجة عاشق طلبـا (٨٠)

وانهم ليتزودن بنظرة وداع ، وعلى الرغم من أنها لا تكفي ، فالنفس الانسانية تطلبها ، وتحتاج اليها ، قبل أن يحـل الفراق الذي قـد لا يكون بعده لقـاء :

ودّعْ أمامـة ، والتوديع تعذيـر
وما وداعـك من قفّت به العـير

وما رأيتك الا نظرة عرضت ،
يوم النّمارة ، والمأمـور مأمور (٨١)

وقـد يقف الشاعر علـى الربع ، فيطلب منه أن يحدثه عن الفراق ، وكيف رحل الأحبة مخلفين الشاعر في غربته (٨٢) :

٨٠ ــ ديوان أوس بن حجر ص ١ ٠
٨١ ــ ديوان النابغة ص ٧١ ٠
٨٢ ــ امرؤ القيس ص ١١٧ ٠

ألا عِمْ صباحاً أيها الربْعُ فانطق
وحدِّثْ حديث الركب ، ان شئت ، فاصدق

وحدث بأن زالتْ بليل حمولُهم
كنخلٍ من الأعراض غير منبق

علـى إثـر حيٍّ عامدين لنِيَّة فحلّوا العقيق أو ثنية مطرق

وربما رأى شاعر من الأعراب أن الغربة ليست في البعد عن الوطن . وليست في البعد عن الناس جميعا ، وانما الغريب من تنأى عنه حبيبته ، وهذا يؤكد أن الشاعر كان يحس بغربة حقيقية حين يفقد مصدر الفرحة الوحيد في حياته القاسية (المرأة الحبيبة) :

وفي الجيرة الغادين من بَطْن وجرةٍ
غزالٌ كحيل المقلتين ربيبُ

فلا تحسبي أن الغريبَ الذي نأى
ولكنّ من تنأين عنه غريب[٨٣]

وقد يبكي الشاعر الجاهلي من ألم الفراق ، والغربة التي ستحل به بعد ذهاب الحبيبة ، فهذا قيس بن الحدادية[٨٤] يبكي فراق سلمى بنت منقذ ، أخت قيس بن منقذ الذي رحل الى مصر والشام بحثا عن الغيث . مخلفا وراءه نفس الشاعر المكلومة :

---

٨٣ ـ الحماسة ٣ : ١٣٢٧ ، وأنظر : امرؤ القيس (٣٢) وفيه تساؤل عن حالها وهل حفظت الود في الغربة ؟
٨٤ ـ الأغاني ١٤ : ١٥٧ .

بكى من فراق الحيِّ قيسُ بن منقـذ

واذ راء عيني مثلـه الدمعَ شائعُ (٨٥)

وتغدو الغربة أصعب ، والفراق أشد ايلاما ، حين تفارق الحبيبه الى موطن لا يستطيع الشاعر الذهـاب اليه ، فقد تكون بين قومه وهؤلاء ثارات وأحقاد ، وهنا يفقد الشاعر الأمل بلقاء الحبيبة وتتضاعف غربته، فيفقد كل احساس بمعنى الوطن ، بل انه يتصوره جحيمـا لا يطاق . فالوطن الجميل اذا هـو ذاك الذي هجـرت اليه الحبيبة ، ولكن اين الشاعر من ذاك الوطن ؟ انه وطن الأعداء ، ولهذا يتحول وطن الشاعر الى وطن للوباء ، والقتل ، والخوف ، وهكـذا تكون الأرض نعيما ، فاذا فارقتها الحبيبة أصبحت جحيما ، هكذا يفعل الحبيب ، أو هكذا تفعل الغربـة :

بانتْ سُليْمى فأمستْ دونهـا عـدنْ

وغُلِّقتْ عندهـا من قلبـك الرّهَـنْ

حلت بأبين في حـيٍّ مجـاورةً

أرضـاً يُحاكُ بهـا الكتّانُ والقطُـن

أرضاً بهـا الطعن والطاعون ينكؤهـم

كمـا تنحـر في لبّاتهـا البُـدُنُ (٨٦)

٨٥ ـ وبكى مثله أوس بن حجر (ديوانه ١٢٩) .

٨٦ ـ الشعر لقعنب بن آم صاحب . مختارات ابن الشجري ، ص ٦ـ٧ . وأنظر امرأ القيس ٢٦٩ .

وأثر الغربة قوي في نفس الانسان . فهو الذي دفع بامرأة من العرب تسمى (شقراء)[٨٧] ، على حياء المرأة وخفرها ، وعلى صرامة الأعراف الى أن تقول شعرا تذكر فيه وطنا يضم حبيبا ، وهي ترفض ، مسبقا ، لوم اللائمين ، وترى أن عليهم أن يعذروها فان ألم الغربة ، ولوعة الفراق قد شفا جسمها فهزل ، على الرغم من صبرها وتجلدها . وهي تعد الحبيب في غربته بأن ترعى وده ما عاشت ، وأن تذكره ولو أدى ذكره الى قطع لسانها ، انها تعلم أنها تخرج على عرف القبيلة ، ومع هذا فان قسوة الغربة دفعتها لأن تقول مافي نفسها بكل جلاء :

خليليَّ ان أصعدتما أو هبطتما
بلاداً هوى نفسي بها فاذكرانيا

ولا تدعا ان لامني ثَمَّ لائم
على سخط الواشين أن تعذرانيا

فقد شفَّ جسمي بعد طول تجلّدي
أحاديث من عيسى تشيبُ النواصيا

سأرعى لعيسى الود ما هبت الصبا
وان قطعوا في ذاك عمداً لسانيا

وربما ذكرت المرأة الوطن ، وهي تريد الحبيب ، مغلفة شوقها ، ومدارية رغبتها ، فقد صبغت أسماء المرية ، صاحبة عامر بن الطفيل حنينها الى حبيبها بصبغة الشوق الى الوطن :[٨٨]

٨٧ ــ الأمالي ٢ : ٢٥ .
٨٨ ــ الأمالي ٢ : ١٩٧ .

أيا جبلَيْ وادي عُرَيْعِرة التي
نأت عن ثوى قومي وحُمَّ قدومها

ألا خلّيا مجرى الجنوب لعلّه
يداوي فؤادي من جواه نسيمها

وكيف تداوي الريح شوقا مماطلا
وعيناً طويلا بالدموع سجومها

وقولا لركبان تميمية غدت
الى البيت ترجو أن تُحطَّ جرومها

بأن بأكناف الرِّغام غريبة
مولّهة ثكلى طويلا نئيمها

مقطعة أحشاؤها من جوى الهوى
وتبريح شوق عاكف ما يريمها

فهي تذكر الأرض التي حل بها الحبيب ، وتتوق الى ريح الجنوب التي تهب من طرفه علها تداوي ألم الفراق والغربة ، ولكن هيهات أن يداويها شيء الا رؤية الحبيب ، وهي اذ تبث حنينها وشوقها فانها تريد أن يسمع الحبيب المفارق ، وأن يعرف لوعتها ، وثكلها .

ونمضي مع الشاعر الجاهلي الى بداية الاسلام ، بداية الفتوحات الاسلامية على وجه التحديد ، فنجد الشباب الذي آمن بالدين الجديد، يندفع في جيوش الفتح غازيا ، مخلفا وراءه آباء يقاسون لوعة الفراق ،

ومرارة الغربة ، فيشكون أمرهم لأولي الأمر . فيستجيب هؤلاء ، لشيخوختهم تقديرا منهم لغربتهم بعد فراق فلذات أكبادهم . فقد « هاجر شيبان بن المخبل السعدي[89] ، وخرج مع سعد بن أبي وقاص لحرب الفرس ، فجزع عليه المخبل جزعا شديدا ، وكان قد أسن وضعف فافتقر الى ابنه فافتقده ، فلم يملك الصبر عنه فكاد أن يغلب على عقله ، فعهد الى إبله وسائر ماله فعرضه ليبيعه ويلحق بابنه ، وكان به ضنينا (أي بماله) ، فمنعه علقمة بن هوذة ... ثم مضى الى عمر (رضي) فأخبره خبر المخبل . وجزعه على ابنه ، وأنشده قوله :

أيُهلكُني شيبانُ في كلِّ ليلةٍ
لقلبي من خوف الفراق وجيبُ

ويخبرني شيبان أن لن يعقّني
تعقّ اذا فارقتني وتَحوب

فلا تدخلَنَّ الدهر قبرك حوبةً
يقومُ بها يوماً عليك حسيب

قال : فلما أنشد عمر بن الخطاب هذه الأبيات بكى ورق له ، فكتب الى سعد يأمره أن يقفل شيبان بن المخبل ويرده على أبيه »[90] .

ونأتي الآن الى نوع آخر من الغربة ، ونوع آخر من الشكوى ، والشوق ، والحنين ، فنحن الآن أمام نساء شواعر ، زوجن في غير

---

٨٩ ـ الأغاني ١٣ : ١٨٩ وما بعد .

٩٠ ـ وأنظر (الأغاني ٢١ : ٤٧ ، وديوان الهذليين ٢ : ١٧١ و ١٩٩ ، وشعر الهذليين ٣٦٧) .

قبائلهن فلم تستطع رابطة الزواج ، على متانتها ، أن تنزع من نفس هذه الشاعرة ، الشوق الى القبيلة وموطنها ، وأن تنسيها الرابطة القبلية ، انها في غير أهلها ، وان كانت في كنف زوجها ، فانها تعتبر رابطة الدم هي الرابطة الوحيدة التي تشعر معها بالألفة ، وحيث وجدت بعدها فهي غريبة ، لذا فهي تحن الى أرض عشيرتها ، وتصرح بكرهها لأرض زوجها وتعبر عن غربتها[٩١] .

فهذه وجيهة بنت أوس الضبية تقول :[٩٢]

وعاذلة تغدو عليَّ تلومني
على الشوق لم تمحُ الصبابة من قلبي

فما لي ان أحببتُ أرضَ عشيرتي
وأبغضتُ طرفاء القصيبة من ذنب

فلو أن ريحا بلغتْ وحي مُرسلٍ
حفيٍّ لناجيتُ الجنوب على النقب

فقلت لها : أدّي اليهم رسالتي
ولا تخلطيها طال سَعدكِ بالتُرْب

فاني اذا هبَّت شمالا سألتها
هل ازداد صُدّاح النُميرة من قُرب ؟

٩١ ـ لقد آثرت أن أسجل الأشعار التي وقعت عليها في هذا المجال ، وذلك لأنها طريفة أولا . ولأنها تعمق احساسنا بالموضوع الذي نحن بصدده ثانيا . ولأنها غير معروفة على نطاق واسع ثالثا .

٩٢ ـ شرح الحماسة ٣ : ١٤٠٧ ، والمرأة في الشعر الجاهلي . د. الحوفي ص ٦٥٢ .

وقالت امرأة من أبان زوجت في كلب [٩٣]

الا أيهـا البِـكْر الأبانـي" إنني

وايـاك في كَلْبٍ لمغتربـان

تحن" وأبكي ذا الهـوى لصبابة

وانا علـى البلوى لمصطحبـان

وانْ زمـاناً أيهـا البكر ضمني

واياك في كلـب لشـر" زمـان

وكانت ربيعة الزهراء (أخت كليب)[٩٤] متزوجة للبيد بن عنبسة ، عامل ملوك كندة ، وكانت وطأته قـد ثقلت على ربيعة ، فأنكرت عليه صنعه فقال لهـا : ما بال أخيك كليب يتنصر لمضر ويتهدد الملوك •••• فقالت : ما أعرف أعز من كليب وائل •••• فغضب ، فصفعها فخرجت باكية الى كليب تقول :

ما كنتُ أحسب والحوادث جمـة

أنا عبيـد الحـي" من قحطـان

حتى أتتْني مـن لبيـد لطمـة"

فعشَتْ لهـا من وقعها العينـان

٩٣ ـ رسالة الحنين الى الأوطان ص ٢٢ ٠

٩٤ ـ شعراء النصرانية ١٥١ ـ ١٥٢ ٠

أن ترضى أسوة تغلب ابنة وائـل

تلك الدنيـة أو بنو شيبان

لا يبرحوا الدهـر الطويل أذلّة

هـدْل الأعنّة عند كل رهـان

وهذه امرأة عامرية ، نقمتْ من أبيها وأخيها لأنهما زوّجاهـا في عشيرة أخرى :(٩٥)

لا تحمدنّ الدهـرَ أختٌ أخـاً لها

ولا ترثيـنّ الدهـرَ بنتٌ لوالـد

همُ جعلوهـا حيثُ ليستْ بحُرّةٍ(٩٦)

وهم طرحوهـا في الأقاصي الاباعد

وهذه امرأة شيبانية تزوجت في بني يشكر تقول :(٩٧)

أصبحتُ في آل الشقيق غريبـةً

عليَّ الـذي لا عيب فيه معيب

٩٥ ـ المرأة ١٧٤ .

٩٦ ـ يلاحظ هنا أن مرارة التجربة ، وأثر العصبية جعلها تحس بأنهـا « ليست بحرة » .

٩٧ ـ أشعار النساء للمزرباني ص ٥١ (مخطوط) ، عن المرأة ص ١٧٥ .

وان زمــانا ردّني في عشــيرتي

اليّ وانْ لــم أرجــهُ لحبيب

فسمعها زوجها ، فردها الى قومها .

وهذه هند بنت عصم السدوسية تحن الى بلادها[98] ، وهي عند زوجها ربيعة بن غزالة الكندي :

ألا لا أرى مــاءَ المصبّح شافيــا

نفوساً الى أمــواه بقعاء نُزّعــا

فمن جاء من مــاء السبان بشرْبة

فان لــه مــن مــاء لينــة أربعــا

وقــد زادني وجــداً ببقعاء أنني

رأيتُ مطايانــا بلينــةَ ظُلّعــا

وقالت تماضر بنت مسعود بن عقبة :[99]

نظرت ودوني القُفّ والنخل هل أرى

أجارع في آل الضُحى من ذرى الأَملَ

فيالك مــن شــوق وجيــع ونظــرة

ثناهــا على القف خبْلا من الخَبَل

٩٨ ــ المرأة ص ٦٥١ .

٩٩ ــ الأمالي ٢ : ٣٠ ، ومقدمة القصيدة في الشعر الجاهلي ص ٥٠ .

ألا حبذا مـا بين حزْوى وشـ ارع

وأنقاء سلمى من حزون ومن سهـل

لعمري لأصوات المكاكيّ بالضحـى

وصوت صبا في حائط الرمث بالدّحل

وصوت شمـالٍ زعزعت بعد هـدأة

ألاءً وأسباطاً وأرطى مـن الحبـل

أحب الينا من صياح دجاجـة

وديك وصوت الريح في سعف النخل(١٠٠)

★ ★ ★

---

١٠٠ ـ وأنظر قول نائلة بنت الفرافصة حين زوجها أخوها ضب لعثمان بن عفان ، فلما حملت اليه كرهت الغربة :

ألست ترى ياضب بالله أنني مصاحبـة نحـو المدينـة أركبـا

اذا قطعوا حزنـا تحـت ركابهـم كما زعزعت ريح يراعا مثقبـا

لقد كان في أبناء حصن بن ضمضم لك الويل ما يغني الخباء المطنبـا

قضى الله حقـا أن تموتي غريبة بيثرب لا تلقـين أمـا ولا أبـا

(رسالة الحنين ٢ ٢، الأغاني : ١٦ : ٣٢٣) ٠

وأنظر قصيدة ميسون بنت بجدل (المعروفة) في مقدمة القصيدة ص ٥٠ لبيت تخفق الأرواح فيه ٠

ثالثاً ــ دراسة موضوع الغربة في شعر المتلمس الضبعي

اننا الآن أمـــام شاعر ، عرف الغربة منذ ولادته وحتى مماته . ولن نقوم هنا ، بالطبع ، بدراسة تقليدية لحياته وشعره ، وانما سنختار من شعره ما يخص غربته . ذلك لأنه ــ وان عاش غريبا ــ لم يوقف شعره كله على الغربة . وان ظلت الموضوع الأساسي في شعره .

والمتلمس ، شاعرنا ، هو خال الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد ، وقد غضب عليهما ملك الحيرة ، عمرو بن هنـــد ، (في قصتهما المشهورة) وحملهما رسالتين الى عامله على البحرين.وفتح المتلمس رسالته.وعرف أنه مقتول عند عامل عمرو ، فنجا بنفسه ميمما شطر الشام حيث الغساسنة (هذه كانت بداية غربته الثانية ، التي أسميناها الغربة السياسية) . أما طرفة فقيل أنه أصر على متابعة طريقه ، الى وجهته ، وهناك قضي عليه ، في قصة تراها في ديواني المتلمس وطرفة).

أما الذي يهمنا من حياة هذا الشاعر ، فقد ألمحت اليه كتب الأدب، وتحدث عنه شارحـــو الديوان والمتفرق من شعره . ولن يعدو وقوفنا عنده أن يكون دراسة للقصائد ، أو الأبيات التي قالها في غربته الأولى ، وفي غربته الثانية .

أمـــا غربته الأولى : فتحدثنا كتب الشعر والأدب ،[١٠١] أنه ولد في

---

١٠١ ــ الكامل ١ : ٢٤٠ ، ومختارات ابن الشجري ١ : ٢٨ ــ ٢٩ ، والأصمعيات ، ٢٨٦ ، وشعراء النصرانية ٣٣٧ والمــرأة في الشعر الجاهلـــي ص ٨٤ .

آخواله بني يشكر . ومكث بينهم حتى كادوا يغلبون على نسبه ، وسأل مرة عمرو بن هند الحارث بن التوأم اليشكري . عن نسب المتلمس (والمتلمس عنده) فقال الحارث : آنا يزعم أنه من بني يشكر ، وآنا يزعم أنه من بني ضبيعة ، فقال عمرو بن هند : ما أراه الا كالساقط بين الفراشين ، فغضب المتلمس وقال :

تعيّرني أمّي رجالٌ ولن ترى
آخا كرم الا بأن يتكرّما

. . . .

فلو غير أخوالي أرادوا نقيصتي
جعلت لهم فوق العرانين ميسما

وهل لي أمٌّ غيرها ان ذكرتها
أبى الله الا أن أكون لها ابنما

وعبر عن غربته هذه مرة أخرى حين قال :(١٠٢)

تفرّق أهلي من مقيم وظاعن
فلله دري أيّ أهلي أتبَع

أقام الذين لا أبالي فراقَهم
وشطّ الذين بينهم أتوقّع

---

١٠٢ ـ الأغاني ٢٤ : ٢٥٩ ، والنصرانية ٣٤١ ، ٣٤٢ .

على كلّهم آسى وللأصل زُلفَــةٌ
فزحزح عن الأدنين أن يتصدّعوا
ألكني الى قومي ضبيعــة إنهــم
أناسي فلوموا بعد ذلــك أودعوا
وقد كان أخوالي كريماً جوارهم
ولكنّ أصل العود من حيث يُنزع

فالشاعر يقف وهو في حيرة من أمره ، أمام واقعه ، فقد وجد نفسه بين أخواله . ومنطق حياة العرب الجاهليين يقضي أن ينشأ المــرء في أعمامه . انه اذا غريب . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل لقد عيره أخواله في حضرة الملك بذلك . كان يمكنه . طبعا ، أن يرد ردا عنيفا . ولكن هل يقطع المرء أنفه من وجهه ؟ انه لهذا يريد اللحاق بأهله وأولئك قد تفرقوا . فأقام حيث لا يريد الاقامة ، وبعد الذين يريد أن يحيا بينهم (وهذا الأمر خارج عن ارادته) . انه يعتبر أخواله أهلا له ، دون شك . ولكن الأعمام هم الأهل الحقيقيون ، لهذا فهو يريد اللحاق بهم ، لقد قرر التخلص من مرارة الغربة واللحاق بأصله . لقد كان أخواله جيرانا كرماء ، ولكن العود يعود الى أصله ، والشاعر يبقى غريبا حتى يستقر به المقام في قبيلته . وعلى أرضها .

تلك كانت غربة الشاعر الأولى ، ولا ندري ان كان قد وضع حداً لها قبل أن تبدأ غربته الثانية .

تبدأ غربته الثانية (السياسية) بعد أن ألقى الصحيفة ويمم وجهه شطر الشام . لا يلوي على شيء ، ونعود الى الكتب لنقرأ أخباره . فلا

نعثر الا على تتف لا تغني ، ولهـذا فسنعمد الى الشعر وحده ، نقرؤه ونستنتج منه معاناته . بعيدا عن وطنه (العراق) وعن أهله وأحبته .

يذكر الدكتور جواد علي[١٠٣] أن المتلمس قد فـر الى بلاد الشام حيث الغساسنة أعداء المناذرة ، وصار يمدحهم ويهجو عمرو بن هند ، واستقر بـ (بصرى) الى أن هلك . وهناك قصص عن عودته الى زوجته، وعن وصوله اليها ساعة عقد قرانها على رجل جديـد في كنيسة ، لظن أهلها أنه قد مات[١٠٤] . والأخبار تؤكد أنه قد مات في الغربة في بلاد الشام ، فلا عودة اذن ، ولا عقد قران ، ولا ما شابه ذلك .

المتلمس اذاً ، ذهب الى الشام طريداً ، وأرغم على ترك وطنه وأهله. وذلك لأن الطاغية ، عمرو بن هند ، كان قد نذر دمه ، وحرم عليه دخول العراق ، والا فان عقابـه القتل . ولكن الى متى يستطيع الشاعـر أن يحتمل الفراق ؟

ومن الشام يتوجه الشاعر بالنداء الى أهله في العراق . أن يثوروا بالطاغية ، وألا يناموا على الضيم . فقد طال الانتظار ، انه قد فعل ما في نفسه فما عليهم الا أن يحذوا حذوه . ويضرب لهم مثالا لقوم هجروا أرضا حل بها الظلم ، لأنهم لم يقبلوه . ويضرب مثالا آخـر كي يدلل على صحة ندائه لهم ، وصواب رأيه :

يا آلَ بَكْرٍ ألا لله أمكُـمُ
طالَ الثواء وثوبُ العجز ملْبوس
أغنيتُ شاني فأغنوا اليومَ شانكم
واستحمِقوا فيذكاء الحربأو كِيسوا

---

١٠٣ ـ المفصل ٢٤٥ وما بعد .
١٠٤ ـ هذا من باب الخيال والقصص الشعبي غالبا .

ان العلاف ومن باللـوذ من حضن

لمـا رأوا أنـه دِيـنٌ خلابيس

ردّوا عليهم جمال الحيِّ فاحتملوا

والضيمُ ينكره القومُ المكاييس

كونوا كسامـةَ اذ شعف منازلـه

ثم استمرت به البُزْل القناعيس(١٠٥)

ثم ينتقل الشاعر الى غربته وحنينه مستخدما الناقة أيضا :

حنّتْ قلوصي بهـا والليل مطّرق

بعد الهـدوءِ وشاقتْها النواقيسُ

معقولة ينظر الاشـراق راكبُهـا

كأنهـا من هوىً للرملِ مسلوس

وقـد ألاح سهيلٌ بعدما هجعوا

كأنـه ضـرم بالكف مقبوس

أنّى طربتِ ولم تُلْحي على طرب

ودون إلْفِكِ أمراتٌ أماليس

---

١٠٥ ـ ابن الشجري ١ : ٣١ ، والنصرانية ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، وانظر : الرحلة في القصيدة الجاهلية ١٧٦ وما بعد ، وفيه دراسة لهذه القصيدة جيدة، (وان يكن الغرض من دراستها هناك في ليس غرضنا) .

حنتْ الى النخلة القُصوى فقلتُ لها :

بسل عليك آلا تلك الدهاريس

أمّي شآميةٌ اذ لا عراقَ لنـا

قومـا نودُهـم اذ قومنـا شوس

لن تسلكي سبل البوبـاة منجـدة

ما عاش عمرو وما عُمّرتَ قابوس

آليتَ حبَّ العراق الدهرَ أطعَمُهُ

والحب يأكلـه في القريةِ السّوس

لم تدرِ بصرى بما آليتَ من قسم

ولا دمشقُ اذا ديس الفراديس

فان تبدلتُ مـن قومي عديّكمُ

إنّي اذا لضعيف الرأي مألوس

في هذه القصيدة ، نرى ألم الغربة عن الأهل والوطن على أشده ، لقد نظم الشاعر من منفاه هذه القصيدة ، مصورا شوقه ، وألم غربته . ولكن بعد أن عبر عن سخطه على بني قومـه ، الذين آذعنوا للظلـم والطغيان ، وطلب منهم أن يثوروا بعمرو بن هنـد ـ رمز الظلم ـ . لقد أضناه البعد ، وبرح به الشوق والحنين . بعد أن قضى عمره غربة متصلة ، وقضى دون أن يكحل عينيه برؤية العراق وأهله ، ودون أن يبل ريقه بماء العراق ، ودون أن يملأ معدته بخبز العراق ، طيلة خمسة عشر عامـا .

ونأتي للقسم الثاني من القصيدة ، الذي بدأه الشاعر بشطر نفسه الى شطرين (كما فعل الكثير من الشعراء الجاهليين) شطر احتلته الناقة وتغلب العاطفة عليه ، أمـا الشطر الآخـر ، فقد احتله الشاعر ويغلب عليه العقل .

حل الليل . وأرخى سدوله بأنواع الهموم (كما عبر امرؤ القيس) علـى الشاعر وبـدأ الحنين يتسرب بين ضلوعـه ، فحن شطره الأول (القلوص) وشاقته النواقيس (العراق) . ولقد كانت الناقـة معقولة بانتظار الصباح . وكان راكبها ينتظره أيضا . وقد فرغ صبره ، يريـد جهة الشرق (العراق) .

والناقة كأنها من هوى للرمل مسلوس . وصاحب الأغاني يرويهـا كأنه . ذلك أن الراوي ، ما أراد التمييز فالمحصلة واحدة . ولمـا لاح سهيل في كبد السماء ، ازداد الشوق وهاجه وناقته الطرب ، لقد اندفع خلف شطره الأول ، ولكنه سرعان ما عاد الى عقله (أنى طربت) انه لا يلومها على طربها ولكنه يلومها لاندفاعها وراء هـذا الطرب ، ذلك لأن الموت يفصل بينها وبين ما تشتاق اليه ، ان حنينها الى النخلة (العراق) مشروع ، ولكن (أمي شآمية ، اذ لا عراق لنا) الشام أقرب وفيها الود، أما العراق ، فلم يعد لها ، ان الموت فيه . هنا الحب ، وهناك الكره[١٠٦] ولهذا فلن تتجه صوب العراق ما عاش طغاته من المناذرة[١٠٧] .

ثم يتجه الشاعر بحديثه الى عمرو ، الذي أقسم أن لا يطعم المتلمس حب العراق ، فيعبر عن سخريته به ، اذ ان بصرى لم تسمع بقسمه ، ولا

---

١٠٦ ـ هكذا يختار الانسان وطنا بديلا . حـين يشعر أنه لا يمكنه أن يعيش كريما في وطنه .

١٠٧ ـ يكتفي بذكر عمرو وقابوس رمزين للظلم .

سعت دمشق وغلالها الكثيرة ، ان الشاعر يرفض الآن العودة الى العراق ، ويعتبر أن من يعيش بينهم كريما عزيزا هم قومه وحدهم •

تلك هي مرارة التجربة التي عاشها هذا الشاعر ، وفي سفر غربته الذي امتد حتى قضى ، اتصلت غربة الحياة بغربة الموت ، لقد كان موته بعيدا عن وطنه وأهله أيضا •

إنّ العراقَ وأهلَه كانوا الهوى
فاذا نأى بي وُدّهم فليَبعد[١٠٨]

فلتتركنّهم بليل ناقتي
تذر السّماك وتهتدي بالفرقد

لبلاد قوم لا يُرام هديُّهم
وهديّ قوم آخرين هو الردي

ان الخيانة والمغالة والخنا
والغدر أتركه ببلدةِ مُفْسد

فاذا حللْتُ ودون بيتي غاوة
فابرقْ بأرضك ما بدالك وارعد

الشاعر مرة أخرى مع تجربة الغربة ، ونحن مرة أخرى معه ، وهو يعبر عن زهده بالعراق وأهله[١٠٩] • بعد أن كانا (العراق وأهله)

---

١٠٨ ـ أنظر شعراء النصرانية ٣٤٠ ـ ٣٤١ •

١٠٩ ـ يقصد الملك وأعوانه من اخواله بني يشكر ، فقد كان الحارث اليشكري صديقا لعمرو بن هند •

هواه ، فالشاعر قرر أن يبعد عمن نسي وده وهواه ، وأن يقصد قوما يحفظون عهده ، يجاور فيهم ، فلا يضام عندهم ، ولا يتنكرون له كما تنكر العراق وأهله .

الناقة هنا مرة أخرى التي ستترك السماك (من جهة الشرق) وتهتدي بالفرقد (من جهة الغرب (الشام) الى أولئك القوم الذين ذكر .

انه يهجر بلادا كثر فيها الغدر ، والظلم ، والخيانة ، قرر أن يترك بلدا مفسدا ، وهو يطلب من ناقته أن تغذ السير كي يصل الى مقصده ، وهو حين يتجاوز (غاوة) وهي قرية قرب حلب ، فهو يغمز من قناة عمرو بن هند بأنه لا يستطيع أن يناله . اذ أنه أصبح في حمى أعدائه الغساسنة .

الشاعر يشعر بالأمان اذاً في وطنه الجديد . ولكن السؤال الآن : لماذا كل هذا الشوق والحنين ؟ لماذا يصر على ذكر العراق ، وساكني العراق ؟ أليس هو الشعور بالغربة ؟ .

★ ★ ★

الفصل الثاني

الغربة عن المجتمع

ـ الغراب

ـ دراسة غربة عنترة

٢ ـ الدّعي ، والخليع

٣ ـ الصعلوك والفقير

ـ دراسة غربة الشنفرى

٤ ـ السجين والأسير

ـ دراسة غربة عدي بن زيد

٥ ـ الجار والحليف

ـ دراسة غربة الحارث بن ظالم

١ ـ الغـراب

•••• وأغربة العربْ : سودانهم[١] ، شبهوا بالأغربة في لونهم • والأغربة في الجاهلية : عنترة ، وخفاف بن ندبة السلمي ، وأبو عمير بن الحباب السلمي أيضا ، وسليك بن السلكة ، وهشام بن عقبة بن أبي معيط (الا أنه مخضرم ••• وتأبط شرا ، والشنفرى ، وحاجز الأزدي وأسود غُرابيّ وغِربيب : شديد السواد •

وطائفة (الأغربة) السود الذين سرى اليهم السواد من أمهاتهـم الامـاء ، فلم يعترف بهم آباؤهم العرب ، ولم ينسبوهم اليهم • لأن دماءهم ليست عربية خالصة ، وانما خالطتها دماء أجنبية سوداء لا تصل في نقائها الى نقاء الـدم العربي[٢] • فقد كان يحدث أحيانا أن يتزوج العربي من أمته . ولكن المجتمع الجاهلي كان يرى في هذا الزواج زواجا غير متكافىء ، ومن هنا أطلق على ثمرته اسما خاصا ، فسمّي ابن العربي من الأمـة (هجينا)[٣] •

وفي القاموس المحيط مادة (هجن) • والهجين : اللئيم ، وعربي ولد من أمـة ، أو من أبوه خـير من أمـة • والهجين عند العرب الذي أبوه شريف وأمه وضيعة . والأصل في ذلك أن تكون أمة[٤] •

---

١ ـ أنظر لسان العرب مادة (غرب) •
٢ ـ الشعراء الصعاليك ص ٥٦ •
٣ ـ المصدر نفسه ص ١٠٧ •
٤ ـ الكامل ص ٣٠٢ •

والعبيـد أدنى الطبقات منزلـة في المجتمع الجاهلي ، وهي تقوم بالخدمة وبسائر الأعمال التي يأنف الانسان الحر من ممارستها[٥] وقد يكون معظم أفرادها من الزنوج القادمين من افريقية • وأمـا الباقون فمن الرقيق الأبيض القادم من أسواق العراق والشام • وقد كان العبد ملكا يباع ويشترى ، ويتصرف به صاحبه تصرفه بملكه الخاص ، انه نوع من البضاعة ، أو هو كالماشية ، وان كان انسانا حياً له مـا لأي انسان من روح وادراك وشعور •

والمولى : عبد ، مملوك يمن عليه صاحبه ، بأن يفك رقبته ، فيعتقه ويصير بذلك مولى لعاتقه[٦]• والموالي أنواع : عتق ، وعتاقـة [٧] ، ومكاتبة[٨]، وعقد[٩]، وحلف[١٠] • وهم ، مهما كانوا ، أقـل شأنا في مجتمعهم من الأحرار ، اذ نظر اليهم على أنهم دون العرب الأحرار في المكانة ، ولهذا فقلما زوج الأحرار بناتهم للموالي ، حتى ضرب بهم المثل في القلة والذلة •

وقد سمى العرب ابن الأمـة البيضاء هجينا تمييزا له من الغراب (الأسود)[١١] وقد عابته وعـدته دون العربي الصريح ، لوجـود دم أعجمي فيه •

وكانت الأمة عند العرب تدعى فَرْتنى ، أو ثُرْنى ، وكانت طبقة العاهرات تتألف عادة من الإماء[١٢] أو ممن أعتق منهن.ولم يكن العربي

---

٥ ــ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٤ : ٥٥٥ •
٦ ــ أنظر المفصل ٤ : ٣٦٦ •
٧ ــ وهو الرقيق أو الأسير الذي تفك رقبته بعتقه •
٨ ــ لأجل محدد وعلى مال معلوم •
٩ ــ انتماء رجل الى آخر بعقد •
١٠ ــ انتماء قبيلة الى أخرى بحلف •
١١ ــ المفصل ٤ : ٣٩٠ •
١٢ ــ الشعراء الصعاليك ١٠٨ •

يعرف لهؤلاء الاماء مساواة في الحقوق ولا مساواة في المعاملة . ويبدو أن المسألة لم تكن أكثر من نزوة جنسية ، فقد كان أبغض ما يبغضه العربي أن تلد أمته منه . ومن هنا كانوا يستعبدون أولاد امائهم ، ويرفضون الاعتراف بهم الا اذا أبدوا نجابة ظاهرة فقد قالت العرب « انا قوم نبغض أن تلد فينا الاماء »[١٣]. وكان أسوأ هؤلاء الهجناء حظاً ، وأوضعهم منزلة اجتماعية ، أولاد الاماء السود الذين سرى اليهم السواد من أمهاتهم ، فقد كانوا سبة يعير بهم آباؤهم • ومرد ذلك ، من غير شك ، الى ظاهرة اللون ، فقد كان العرب يبغضون اللون الأسود بقدر ما يحبون اللون الأبيض ••• ومن هنا أطلقوا على هؤلاء السود اسما خاصا تمييزا لهم من سائر اخوانهم الهجناء ، فسمّوهم «الأغربة» تشبيها لهم بذلك الطائر البغيض المشؤوم في لونه الأسود ، ونسبوهم في أكثر الحالات الى أمهاتهم •

ويخرج هؤلاء الأغربة الى الحياة ، وقد وسمتهم الطبيعة بذلك اللون الذي يبغضه مجتمعهم ، والذي لا يد لهم فيه ، ولا خروج لهم منه فاذا به يحول منذ البدء دون أن يعترف بهم آباؤهم ، ثم اذا به بعد ذلك يحول دون أن يشاركوا في الحياة الاجتماعية • كما يشارك غيرهم ، ولا يهيىء لهم الا فرصة ضيقة للحياة على هامش المجتمع حياة ذليلة محتقرة يخدمون فيها ساداتهم ••• فما يحسن هؤلاء الأغربة أولاد الاماء السود غير (الحلاب والصر) كما قال عنترة •

١٣ ــ أنظر الأغاني ٢٠ : ١٦٥ •

ويرفض بعضهم هذه الحياة الهامشية ، ويتمرد على الوضع الاجتماعي الذليل المحتقر الذي فرض عليه ، لأن لديه من القوة النفسية ما يجعله يرفض قبوله ، ومن القوة الجسدية ما يمكنه من رفع راية العصيان في وجه هؤلاء السادة •

وقد خرج هؤلاء الأغربة الأقوياء على أوضاع القبيلة • ورفضوا الحياة الذليلة التي فرضتها عليهم ، وخرجوا من حماها ، ليشقوا طريقهم في الحياة بالأسلوب الذي يضمن لهم حياة كريمة حرة تعتمد على القوة في سبيل الحصول على الحق ، ومن هؤلاء الأغربة المتمردين تألفت جماعة من صعاليك العرب •

وكان هؤلاء الأغربة يجدون غضاضة في الحديث عن هذه الظاهرة التي كانت مصدر احتقار المجتمع الجاهلي لهم •

ولقد سمّى العرب بعض الأغربة . وقد مر ذكرهم . ويعتبر عنترة رأسهم في هذا الباب،وبالنظر الى أهمية الغربة في شعره من ناحيةسواده، فلا بد أن نعرض لها على نحو يبرز تميزها ــ كما سنرى ــ •

وقد ذكرت كتب الأدب أسماء بعض هؤلاء . محددة كيفية ولادتهم، وكيفية استرقاقهم ، فقد ذكر أبو الفرج[١٤] أن أبا وجزة كان عبداً ، وأصله من سليم من بني ضبيس •••• ولكنه لحق أباه وهو صبي سباء في الجاهلية ، فبيع بسوق ذي المجاز ، فابتاعه رجل من بني سعد ، واستعبده ، وكان عبيد أبوه[١٥] عبداً بيع بذي المجاز في الجاهلية ، ابتاعه وهيب بن خالد بن عامر • وكان خفاف بن ندبة : وندبة أمه ، فارسا شجاعا شاعرا ، أحد أغربة العرب •

---

١٤ ــ الأغاني ١٢ : ٢٣٩ ·
١٥ ــ المقصود ، والد أبي وجزة ·

ويفاخر الغربان بسوادهم ، ولكنه الفخر الذي يعني تعويضا عن النقص ، ان احساسهم بهوان منزلتهم ، وبضعة مكانتهم في المجتمع القبلي ، القائم على العصبية ، يجعلهم يسجلون مفاخر أخرى ، غير مفخرة اللون والنسب ، فهم يتحدثون عن أخلاقهم وفروسيتهم(١٦) ، وحسن صنيعهم بين الناس ، فهذا السليك بن السلكة يرد على حبيبته بأن لون الانسان ، وجمال شكله ليسا كل شيء فيه ، وانما المرء بحسن فعاله :(١٧)

ألا عتبتْ عليّ فصارمتني
وأعجبها ذوو اللمم الطوال

فاني يابنةَ الأقوام أربي
على فعل الوضيء من الرجال

فلا تصلي بصعلوك نؤوم
اذا أمسى يُعد من العيال

ولكن كل صعلوك ضروب
بنصل السيف هامات الرجال(١٨)

وعبروا عن احساسهم بالوضاعة ، وعن الظلم الذي يلحقه المجتمع القبلي بهم ، وان الأعراف التي تحكم مجتمعهم تفرض على الانسان

١٦ ـ عنترة رأسهم في هذا الباب .
١٧ ـ الكامل ٢ : ٤٦٠ .
١٨ ـ وأنظر الاغاني ٢٢ : ٣٠٤ .

من خلال مواضعاتها ، أن يكون متميزاً بمواصفات تضعها ، وهؤلاء الغربان ، لا يملكون من أمرهم شيئا ، فسوادهم منحتهم اياه الطبيعة ، وضعة نسبهم لم يصنعوها بأيديهم ، ويعاني السليك من مرارة الهوان فهو يرى خالاته مستعبدات مسترقات ، يلقين الضيم والاهانة كل يوم ، وهو لا يملك خلاصهن ، انه لا يملك مالا يفتديهن به :(١٩)

أشاب الرأسَ أني كـل يـوم
أرى لـي خـالة بين الرجـال

يشُق علـي أن يلقيْنَ ضيماً
ويعجـز عـن تخلصهن مالـي

ويعلم خفاف بن ندبة أن منزلته وضيعة ، وأن أمه قد جلبت أليه هـذا العار وهذا الهوان ،(٢٠)

فـكلانـا يسوده قومـه   على ذاك النسب المظلم

بل ان سحيما عبد بني الحسحاس يقر بوضاعة شكله ، وبقبح منظره فهو قد أتى نسوة فلم يقبلن به ، فوجهه قبيح ، وهـو يشبه الكلب في قبحـه ، ولولا احساسه بالانحطاط ، وبسرير الهوان لـما شبه نفسـه بالكلب :(٢١)

أتيت نساء الحارثيين غـدوة   بوجه براه الله غـير جميل

فشبهنني كلباً ولست بفوقـه   ولا دونه ان كان غير قليل

---

١٩ ـ الكامل ٢ : ٤٦٠ .
٢٠ ـ الشعر والشعراء ١ : ٣٤١ .
٢١ ـ الأغاني ٢٢ : ٣٠٦ .

وتكبر المأساة حين يكون الشاعر في قومه ، وهو يتصور أنه منهم ، فاذا به فجأة يعلم أنه هجين ، وغريب عنهم ، فقد كان الشنفرى في بني سلامان ، وطلب من أخته ذات يوم أن تغسل له رأسه ، فلطمته مذكرة اياه أنه ليس أخاها وانما هو عبد لديهم[٢٢] :

ألا ليت شعري والتلهف ضلـة

بما ضربت كفُّ الفتاة هجينَها

ولو علمتْ قسعوس[٢٣] أنساب والدي

ووالدهـا ظلت تقاصر دونهـا

أنا ابن خيار الحَجْر بيتا ومنصبا

وأمّي ابنة الأحرار لو تعرفينها

وقلما يقف الآباء موقفا حسنا من أولادهم الغربان ، فنحن نعلم كم قاسى عنترة حتى اعترف أبوه شداد ببنوته له ، ولكن يحدث أحيانا أن نسمع أبا يحس بمرارة غربة ابنه وبظلم الناس له ، حتى امرأته ، فيقف مدافعا عنه ، رافضا مذلة ابنه وهوانه ، فهو على استعداد لأن يتخلى عن زوجته ، ويفارقها غير آسف عليهـا ، فعمرو بن شأس[٢٤] ، أحس أن امرأته تكره ابنه عرارا ، فهددهـا وتوعدها ، وطلب منهـا معاملة ابنه معاملة حسنة ، والا فلتذهب مفارقة غير مأسوف عليها :

---

٢٢ ـ الأغاني ٢١ : ٨٧ ، وسندرس غربة الشنفرى مفصلة فيما بعد .

٢٣ ـ المرأة الدميمة .

٢٤ ـ شرح الحماسة ١ : ٢٨٠ ، وابن سلام ١٦٦ ـ ١٦٧ .

أرادت عِراراً بالهـوان ومن يُردْ

عرارا لعمري بالهـوان فقد ظلـم

فان كنتِ مني أو تريدين صحبتي

فكوني له كالسمن رُبَّتْ له الأدم

وان كنتِ تهويـن الفراق ظعينتي

فكوني له كالذئب ضاعتْ له الغنم

والا فسيري مثل مـا سار راكب

تجشم خِمساً ليس في سيره أمـمْ

فانّ عـراراً ان يكن ذا شكيمـة

تلاقينـا منه فمـا أملك الشيَم

وان عراراً ان يكن غـير واضـح

فاني أُحب الجَون ذا المنكب العمم

★ ★ ★

دراسة الغربة في شعر عنترة

« أنا العبد الذي حدثت عنه » هكـذا يعلن عنترة عـن سواده ، بمرارة ، وفخر ، ولكنه الفخر المبطن بتلك المرارة ، التي حملها كالوشم. كانت أمه زبيبة أمة . وكان النظام القبلي عند العرب يقضي أن يولـد الهجين علـى العبودية ، حتى يعترف به أبوه فقد « كانت العرب في الجاهلية اذا كان للرجل منهم ولد من أمة استعبده »[٢٥] ، وقد ظلـت عبودية عنترة فترة من الزمن لأن أباه ادعاه في كبره . فقد أعتقه حين أغارت بعض أحياء القبائل على عبس ، وأبى عنترة أن يشترك في القتال. فقال له أبوه : « كر ياعنترة » فأجاب عنترة : « العبد لا يحسن الكر وانما يحسن الحلاب والصر » فصاح أبوه : « كر وأنت حر »[٢٦] .

وقد عاش زمنا طويلا عبدا مغمورا كباقي العبيد والاماء ، الذين كانوا في الجاهلية لا يحسنون من حياتهم الا الخدمة والعمل ، يمضون أيامهم مع الابل في مراعيها . ومن كانت حياته هذه ، كان في معزل عن الشهرة بين الناس وحسن الصيت ، فضلا عن أن أباه لم يعترف به الا متأخرا ، فقد ذكر ابن قتيبة أنه « ادعاه أبوه بعد الكبر ... ... وكان لعنترة اخوة من أمـه ، ... وقـال حين قال له أبوه كر وأنت حر :

---

٢٥ ــ ديوان عنترة ص ٣٦ .
وأنظر الشعر والشعراء ١ : ٢٥٠ .
الأغاني ٧ : ١٤٢ .
٢٦ ــ أنظر تاريخ العرب مطول ١٣٢ .

كل امرىء يحمي حِرَه   أسودَه وأحمرَه

والواردات مِشْفَرة

وقاتل يومئذ فأبلى واستنقذ ما كان بأيدي عدوهم من الغنيمة ، فادعاه أبوه بعد ذلك ، ولحق به نسبه »[٢٧] .

ولقد لقي عنترة صنوفا من العذاب والاهانة من جراء سواده ، فقد كانت امرأة أبيه تكرهه لسواده ، فحرشت أباه مرة عليه . مدعية أنه راودها عن نفسها ، وكان ذلك قبل أن يدعيه أبوه ، فأخذه أبوه فضربه ، فأكبت عليه تستنقذه ، فكف عنه ، فلما رأت ما به من الجراحات بكت ، فقال في ذلك :[٢٨]

أمن سمية دمع العين تذريف

لو أن ذا منكِ قبل اليوم معروف

تجللتْني اذ أهوى العصا قبلي

كأنها صنم يُعتاد معكوف

المال مالكم والعبد عبدكم

فهل عذابك عني اليوم مصروف

تنسى بلائي اذا ما غارة لقحت

تخرج منها الطوالات السراعيف[٢٩]

---

٢٧ ــ ديوان عنترة ، ص ٢٠ ، الشعر والشعراء ١ : ٢٥٠ .
٢٨ ــ الأغاني ٨ : ١٤١ ، ديوان عنترة : ٢٧٠ .
٢٩ ــ اناث الخيل الضامرة .

ويدافع عنترة عن سواده كغيره من الغربان ، ويفخر بوالـدته التي تنتمي الى العرق الحامي ، وهو يعتبر سواده وسواد أمه مفخرة ، اذ إنّ تحت هذا السواد فارسا شجاعا مقداما ، يهزم الفرسان ويُجنْدِ لهُم في ساحة الوغى(٣٠) :

فان تكُ أمـي غرابيّـة　　　من أبناء حام بها عبتَني
فاني لطيف ببيض الظُبـا　　　وسمر العوالي اذا جئتني
ولولا فرارك يوم الوغـى　　　لقدتك في الحرب أو قدتني

بل انه يفخر بأخواله ، ولا يجد غضاضة في اعلان انتسابه الى العرق الأسود ، وكأنه بهذا يرد على مفاهيم العصبية ، والعرقية ، اللتين كانتا سائدتين في مجتمعه القبلي :

وأنا المجرب في المواطن كلهـا
مـن آل عبس منصبي وفَعالي
منهم أبي حقـاً ، فهـم لي والـد ،
والأم من حـام ، فهـم أخوالي(٣١)

ولأن كان يشعر في قرارة نفسه أنه دون عبلة في المقام ، وأنها أرفع منه شأنا لما نشأ عليه من عبودية ونشأت عليه من سيادة ، فانه لم يكن يتقرب اليها بالنسب ، ولم يذكر أنها ابنة عمه ، بل استعاض عن كل هذا بالفروسية والخلق الكريم .

---

٣٠ ـ ديوانه ٣٣٩ .
٣١ ـ ديوانه ص ١٢٩ .

فقد ضمه يوما مجلس بعدما كان قد أبلى ، واعترف به أبوه ، وأعتقه ، فسابّه رجل من بني عبس[٣٢] وذكر سواده وأمه واخوته ، فسبه عنترة وفخر عليه . وكان مما قاله له : « ان الناس ليترافدون بالطعمة ، فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدك رفد الناس قط ، وان الناس ليدعون الى الغارات فيعرفون بتسويمهم ، فما رأيتك في خيل مغيرة في أوائل الناس قط ، وان اللبس ليكون بيننا فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدك خطة فصل ، وانما أنت فقع بقرقر ، واني لأحتضر البأس وأني المغنم وأعف عن المسألة ، وأجود بما ملكت يدي ، وأفصل الخطة الصماء ، وأما الشعر فستعلم » .

عنترة اذا يفاخر بقيم مختلفة عن القيم الأساسية التي يفاخر بها العربي الجاهلي ، انه يضع فروسيته رداء يتدثر به مغطيا عبوديته وغرابيته ، ورجال الأدب يرون أن سبب قوله معلقته هو المسابة التي جرت بينه وبين الرجل العبسي ، وهو فيها يتحدث عن فروسيته وأخلاقه متجاهلا مسألة سواده ، الأساسية .

وعنترة ، وان لم يخرج على قبيلته ، كما فعل الصعاليك ، ظل يناضل ضمن القبيلة ، حتى نال حريته ، وان كانت حرية منقوصة ، ظلت تشوبها نظرة المجتمع العرقية الى عنترة . وهكذا كانت عبوديته مفتاح شخصيته وأدبه .

واذا كان عنترة قد نال بعضاً من الكرامة والمنزلة حين ألحقه أبوه بنسبه ، فقد ظل في عيون الناس وعيني عبلة وعينيه أسود اللون وابن

٣٢ ـ أنظر ديوانه ص ٤٣ ، والشعر والشعراء ١ : ٢٥٠ وما بعد ، والأغاني ٨ : ١٣١ .

أمة حبشية[٣٣] ، وقد ظل يتغنى في شعره بحب معذب محروم،واحساس باليأس والمرارة حاملا عاره في جسده ، ولقد حاول التعويض عن هذا النقص بالفروسية وكرم الأخلاق ولكنه لم يفد من هذا شيئا ، فقرر أن يتصدى لمفاهيم القبيلة التي تحط من منزلة الأسود من أجل لونه ، ويذكرهم أنه هو المدافع والمحامي عن القبيلة ، التي تقف منه هذا الموقف اللئيم[٣٤] :

يعيبون لوني بالسوادِ وانما فعالهم بالخبث أسود من جِلدي

ولقد أدرك عنترة أنه من خلال حصوله على حريته لم يغير مفاهيم المجتمع الذي ظل ينظر اليه نظرته الى العبد ، ولهذا فقد فاخر بسواده منطلقا من فرديته وكبريائه ، ومن موقف فيه انكار للتقاليد ودعوة الى وضع قيمة للانسان من خلال أفعاله ، لا من خلال لونه ، فاللون ما كان دليلا أبدا على حسن سريرة الانسان ، بل ان السواد ملازم للبياض فلولا سواد الليل ما طلع الفجر :

يعيبون لوني بالسواد جهالة

ولولا سواد الليل ما طلع الفجر[٣٥]

وقد كان اصراره على المفاخرة بسواده يصل به الى حد الفخر بأن السواد يلازمه في كل شيء ، حتى لون فرسه ، فالدر الناصع البياض ، مغلف بغلاف أسود يحيط به[٣٦] :

---

٣٣ ــ أنظر : مدخل الى الأدب الجاهلي ص ١٨٨ وما بعد .
٣٤ ــ ديوانه ص ٦٢ .
٣٥ ــ ديوانه ص ٨٩ .
٣٦ ــ المصدر ذاته ص ١٠٨ .

وإن يعيبوا سواداً قد كسيت به

فالدرّ يستره لون من الصّدفِ[٣٧]

واذ لم ير أثرا لذلك ، فقد تحول الى جبار كبير يبطش بالناس ، ويخضع له العرب ، فان في بطولاته ومكارمه ما يغطي على سواد جلده[٣٨] :

وإن كان جلدي يُرى أسودا

فلي في المكارم عِزٌ ورتْبَهْ

ولو صلَّتِ العُرْب يوم الوغى

لأبطالها كنتُ للعرب كَعْبَه

ولو أن للموت شخصاً يُرى

لروّعته ولأكثرت رُعْبَه

وهو اذ يكتشف نفاق المجتمع وزيفه ، فانه يصرح بهذا ، واصماً مجتمعه في وجهه ، كاشفا عن الرياء الذي يلجأ اليه الناس في سبيل مصالحهم . انه ابن زبيبة في السلم ، ولكنه ابن الأكارم في ساحة الوغى.

والأمر الذي يلفت النظر ، أن عنترة على الرغم من نضاله العنيف كي يحصل على اعتراف والده به ، فانه يفخر بانتمائه لأمه ، ويتغزل بسوادها ويمتدح مزايا العرق الحامي (الساق مثل ساق النعامة ، الشعر كأنه حب الفلفل ، الثغر أبيض ضمن ليل الوجه ...) معبرا بهذا

٣٧ ــ وله في هذا المجال شعر كثير ص ٥٧ ، ٨١ ،

٣٨ ــ ديوانه ص ٩ .

عن التحدي ، وعن الاحساس بالمرارة في الوقت نفسه ، فهو اذا أحس بأن هذا العار سيظل يلحق به مـا عاش ، كان لا بـد له اذاً من التصدي ، والفخر بالمزايا التي ينتقدهـا المجتمع نفسهـا ، انه نوع من العصيان والخروج المبطن على القبيلة ، انه يضرب عرض الحائط بكل القيم التي ناضل هو نفسه للحصول عليها . وذلك تعبير عن الغربة أشد مرارة مما لو عبر عن ألمه تعبيرا مباشرا[٣٩] :

وأنـا ابنُ سوداء الجبين كأنهـا
ضبـع ترعـرع في رسوم المنـزل
الساق منهـا مثل سـاق نعامـة
والشعر منهـا مثلُ حـب الفلفل
والثغر مـن تحت اللثـام كأنـه
برق تـلألأ في الظـلام المُسْدل

وتعود نفس الشاعر لتنطوي علـى المرارة ، فلقد يئس من مفاهيم مجتمعه ، وما كان منه الا أن عبر عن الظلم الذي حاق به ، وعن الاساءة التي قابلت احسانه[٤٠] :

أذكُر قومي ظلمهـم لي وبغيهـم
وقلة انصافي علـى القرب والبعـد

٣٩ ـ ديوانه ص ١٣٥ .
٤٠ ـ المصدر نفسه ص ٦٢ .

بنيتُ لهم بالسيف مجداً مشيداً

فلما تناهى مجدهم.هدموا مجدي

ونأتي الى معلقته ، فيتضح لنا كيف كان عنترة يغالب احساسه بغربته من خلال الحب والفروسية • وعلينا ، منذ البداية ، أن نذكر للشاعر موقفه من مجتمعه ، ذلك أن مطلع القصيدة (٤١) :

هل غادر الشعراءُ من متردم ‌ ‌ ‌ ‌ أم هل عرفتَ الدار بعد توهم

يوحي بهذا الموقف ، فنحن ان كنا نوافق الذين قالوا بأن عنترة قد سئم الوقوف بالأطلال ، وان قوله هذا دليل على أن الوقوف بالأطلال هو طريقة فنية أصبحت في وقته مملة ، وبدأ الجاهليون بالخروج عليها، فاننا نذكر هنا لعنترة كما سنذكر للصعاليك من بعد ، خروجه على التقليد الفني ، وكأنه يرفض هذا الوقوف بشعوره الباطن ، ويرفض من ثم قيم مجتمعه ، حتى الفني منها • وهو من جانب آخر يستحث نفسه للكلام في موضوع الحب • والحب عند عنترة ، كما هو معلوم ، ليس نزوة جنسية ، وليس حبا عاديا ، انه يتجاوز هذا للتأكيد على شخص الشاعر من خلال القول انه ، كسائر أفراد قبيلته ، يمكن أن يقاتل مدافعا عن حريته ، وطالبا التحرر من عبوديته :

إنْ تُغدفي دوني القناعَ فانني

طَبٌ بأخذ الفارسِ المستلئم

أثني عليّ بما علمتِ فانني

سهلٌ مخالقتي اذا لم أُظلم

٤١ ـ أنظر المعلقة في ديوانه ص ١٤٢ •

فاذا ظُلمتُ فانَّ ظلمي باسل

مُرٌّ مذاقته كطعم العلقم

انه في حبه يقرر عدة حقائق لا تخرج في جوهرها عن اعتراف القبيلة ببنوّته لشداد ، ومن ثم اعترافهم بأنه مكافيء لعبلة كأي ابن عم لابنة عمه ، وهو من ناحية ثانية يحقق ذاته من خلال تكوين أسرة يكون تاجها أبناء شرفاء لا يفرق المجتمع بينهم وبين أي فرد من أفراده .

حب عنترة اذاً مميز اجتماعيا تبعاً لتميز عنترة من خلال لونه . ونحن ان كنا لا نهتم بتفصيلات حديثه عن حبه ، الا أننا لا نتجاهل أن اللوعة التي يظهرها الشاعر لم تكن ناجمة عن الحب الغريزي بقدر ما هي ناجمة عن الظلم الاجتماعي :

حلّتْ بأرض الزائرين فأصبحتْ

عَسِراً عليّ طِلا بك ابنةَ مخرم

عُلّقتُها عرضا وأقتلُ قومها

زَعْماً لعمر أبيك ليس بمزعم

ولقد نزلتِ فلا تظني غيره

مِنيْ بمنزلة المُحِبِ المكرم

فالشاعر من حيث التعبير الفني في غزله ، وعلى الرغم من الاختلاف بينه وبين غيره — غزل امرىء القيس مثلا — فيجب ألا يخدعنا ظاهر كلامه ، فهو في لوعة وفي شوق ولكن الى اثبات نفسه من خلال حبه عبلة .

ويضيف الشاعر الى حبه فروسيته ، التي استطاع من خلالهـا أن يحصل على اعتراف أبيه به ، وهو يريد من خلالها ، أيضا ، أن يحصل على اعتراف من عبلة بحبه ، ويكمل عناصر شخصيته ويقول انه ليس حراً في ساحة المعركة فقط ، وانما هو حر كسائر البشر :

وحليل غانيـــة تركتُ مجـــدلا

تمكو فريصتُه كشدق الأعلـــم

سبقتْ يداي له بعاجـــل طعنة

ورشاش نافذة كلون العَنْدم

ربما كان هذا هو مفتاح المعلقة ، ومفتاح شخصية الشاعر . انه اذ يقدم نفسه لحبيبته ، فانه لا يجد الا القيم التي آمن بها ، والتي اعتبرها بديلا لقيم مجتمعه ، انه يقدم نفسه في صورة الفارس المثال أملا منه أن يكسب ود ابنة عمه ، وبالتالي ودّ المجتمع ورضاه . وتبلغ به الحماسة درجـــة ينساق فيهـــا مع نفسه واصفا للحبيبة بطولاتـــه وانتصاراته ، مسترسلا على طريقة الذكور في استرضاء اناثهم . بل ان عنترة يحتاج الى أكثر من غيره ، انه يعلم النقص الذي يعاني منه ويحاول جاهدا أن يخلفه بأخلاقه الكريمة وبطولاته النادرة :

هـــلاّ سألتِ الخيلَ يا ابنةَ مالك

ان كنتِ جاهلـــة بمـــا لـــم تعلمي

إذْ لا أزال علـــى رحـــالة ســـابح

نَهْد تعاوره الكمـــاة مكلّم

. . . .

بخبرك ِ مـــن شهــد الوقيعة أنني

أغشى الوغى وأعف ّ عنــد المغنم

ولقد ذكرتك ِ والرمــاح نواهــل

مني وبيض ُ الهنــد تقطر من دمي

فود ِد ْت ُ تقبيل السيوف ِ لأنهــا

لمعت ْ كبارق ثغــرك المتبسّم

ترى هل أقنع الشاعر حبيبته وقبيلته ؟ الحق أن المجتمع العنصري لم يكن يرحـم أحاسيس الشاعر ، ولم يكن يأبه لصرخـاته المستمرة ، وظل على عناده مميزا الأسود عنه ، مفردا اياه أفراد البعير المبعد ــ كما قال طرفة ــ لم ينل الشاعر من مجتمعه الا القسوة والهـوان والخدمة المتواصلة ، قبل حريته وبعدها ، لقد ظل في السلم ابن زبيبة ، وفي الحرب ابن الأكرمين :

لما رأيت ُ القوم َ أقبل جمعهــم

يتذامرون كررت ُ غــير مذمــم

يدعون عنتر َ والرمــاح كأنهــا

أشطان بئــر في لبان الأدهــم

. . . .

ولقد خشيت ُ بأن أموت ولم تــد ُر ْ

للحرب دائرة علــى ابني ْ ضمضم

الشاتميْ عرضي ولـم أشتمهمـا
والناذريـن اذا لقيتـهمـا دمـي

تلكم هي مأساة عنترة التي عبر عنها من خـلال معلقته ، فقد كان انفعاله وثورته وعشقه الذي لا يمل ولا يهدأ ، دليلا على غربته وعلى عدم انسجامه مع مجتمعه ، هذا المجتمع الذي وصفه بقوله :

أذكـر قومي ظلمهـم لـي وبغْيهـم
وقلـة إنصافي علـى القرب والبعـد

بنيتُ لهـم بالسيف مجـداً مشيداً
فلما تناهى مجدُهم هدمـوا مجدي(٤٢)

* * *

٤٢ ـ ديوانه ص ٦٢ .

٢ ـ الدّعي والخليع

سمّى العرب الدعي أسماء متعددة . لكنها من حيث الدلالة تتفق في أنها تعني من كان في القبيلة وليس من أبنائها الصرحاء . فابن سيده في (المخصص) يقول : النقيل : الغريب في القوم ان رافقهم أو جاورهم والأنثى نقيلة .

... والحميل : الغريب في القوم لا يعرف نسبه . ويرى فيليب حتي[٤٣] أنه ان كان أساس الانتساب الى عشيرة من العشائر قائما على صلة الدم ، فان لحيازتها أيضا طرقا أخرى ، كأن يشترك الفرد مع أبناء العشيرة التي يريد الانتساب اليها بمأكل أو مشرب أو امتصاص قطرات من دم أحد أفرادها رمزا الى اكتساب صلة الدم بهم .

ويسميه فيليب حتي أحيانا مولى ، وأخرى دخيلا : « واذا أعتق عبد فان مصلحته تقضي غالبا بأن يبقي علاقته بالأسرة التي ينتسب اليها سيده ، فيصبح من الموالي ... وقد يدخل غريب على قبيلة طالبا الولاء فيها فيسمى دخيلا .... وكثيرا ما تحتال العشائر الضعيفة على الدخول في ذمار أخرى ضمانا لمصالحها فتندمج فيها على تعاقب الأيام ... » .

ويسميه الدكتور جواد علي[٤٤] الدعي : « ويقال للمستلحق

٤٣ ـ تاريخ العرب (مطول) ص ٣٤ .
٤٤ ـ المفصل ٤ : ٣٥٧ .

(الدعي) • والدعي المنسوب الى غير أبيه • و (الدعوة) في النسب أن ينتسب الانسان الى غير أبيه وعشيرته وقد كانوا يفعلونه فنهي عنه ، وجعل الولد للفراش • ••• ويقال للدعي ينتمي الى قوم : منوط مذبذب سمي مذبذبا لأنه لا يدري الى من ينتمي •••• والاستلحاق يعني : أن يستلحق انسان شخصا فيلحقه بنسبه ، ويجعله في حمايته ورعايته ، أي في عصبيته • وقد يكون الرجل صريحا معروف النسب ، وقد يكون أسيرا أو مولى أو عبدا ، فيسميه مولاه وينسبه اليه • ••••

وينقل الدكتور جواد أيضا عن التاج أسماء أخرى للدعي : « ويقال للدعي (ملصقا) • والملصق ، هو المقيم في الحي وليس منهم بنسب •••• والمخضرم • وقيل هو من لا يعرف أبوه أو أبواه ، ورجل مخضرم أسود وأبوه أبيض ، أو هو من ولدته السراري ، وذلك ذم في الانسان • ويقال رجل (خلط ملط) بمعنى : مختلط النسب • وذكر أن الملط الذي لا يعرف له نسب ولا أب • وأما خلط ، فاما بمعنى مختلط النسب ، واما بمعنى ولد الزنا • والخليط المشارك في حقوق الملك ••••• ومنه الحديث : الشريك أولى من الخليط ، والخليط أولى من الجار » •

وقد تسمي العرب الدعي مولى : (٤٥) « والولاء هو الرابطة التي كانت توجد بين العرب والأعاجم الذين عاشوا بينهم ، ويسمون هؤلاء الأعاجم موالي ، ومثلهم الأسرى الذين لم يستطيعوا فداء أنفسهم ، وكان العرب يسمون هؤلاء جميعا بسمة القبيلة ، لأن كل قبيلة كان لها سمة خاصة تعرف بها ، وتسم بها رايتها وابلها كيّاً بالنار • وقد يسمونه

---

٤٥ ـ أنظر قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي ص ١٧٣ •

نقيلا أيضا ولعل في هذا الخبر ما يفيد في هذا المجـال :(٤٦) « وأسروا حزيمة بن طارق ، واختصم في أسره اثنان : أنيف بن جبلة الضبّي ــ وكان نقيلا في بني يربوع ، وليس معه من قومه أحد ــ .... » .

وحين نريـد القول ان هؤلاء (الأدعياء) كانوا يشعرون بالمذلـة والهـوان ، وانهم كانوا يعاملون معاملة متميزة ، فان هـذا سيكون تحصيل حاصل في المجتمع القبلي ، الذي رأينا أنه يقدس رابطة الدم ، ولا يعترف برابطة أخرى غيرها . فلقد عانى هؤلاء الأدعياء من غربتهم وسط قوم ليسوا قومهم من خلال مفهوم العصبية وعانوا أيضا من سوء المعاملة التي يلقونها . ولعل في القصة التالية ، التي يرويها أبو الفرج(٤٧) ما يغني عن إطالـة الحديث ، وايراد تفصيلات اضافية اليه فهو يحكي عن الشنفرى : « كان من الأواس بن الحجر بن الهنو بن الأزد بن الغوث أسرته بنو شبابة بن فهم بن عمرو بن قيس بن عيلان ، فلم يزل فيهم حتى أسرت بنو سلامان بن مفرّج بن عوف .... رجلا من فهم ، أحد بني شبابة ، ففدته بنو شبابة بالشنفرى . قـال : فكان الشنفرى في بني سلامان بن مفرج لا تحسبه الا أحدهم ، حتى نازعته بنت الرجل الذي كان في حجره ، وكان السلامي اتخذه ولدا وأحسن اليه وأعطاه ، فقال لهـا الشنفرى : اغسلي رأسي يا أخيّة ، وهو لا يشك في أنهـا أخته ، فأنكرت أن يكون أخاها ولطمته . فذهب مغاضبا حتى أتى الذي اشتراه من فهم ، فقال له الشنفرى : اصدقني ممن أنا ؟ قال : أنت من الأواس بن الحجر ، فقال : أمـا اني لن أدعكـم حتى أقتل منكـم مئة بمـا استعبدتموني .... وقال الشنفرى للجارية السلامية التي لطمته وقالت: لست أخي :

---

٤٦ ــ المفضليات ص ٣ ، وأنظر أيام العرب ١٨٢ .
٤٧ ــ الأغاني ٢١ : ١٧٩ .

ألا ليت شعــري والتلهف ضلّــة

بما (٤٨) ضربتْ كف الفتاة هجينها

ولو علمت فسعوس(٤٩)أنساب والدي

ووالدهــا ظلــت تقاصَرُ دونهــا

أنا ابن خيــار الحجر بيتاً ومنصباً

وأمي ابنةُ الأحــرار لو تعرفينهــا

قال : ثم لزم الشنفرى دار فهم فكان يغير على الأزد ... » • ولقد تصعلك الشنفرى ــ كما سنرى ــ وثأر لكرامته ، لكن الحطيئة لـم يملك سوى التعبير عن حزنه وألمه ، وهجاء أمه هجاء مقذعا ، يدل على الألم الذي امتلأت به نفسه من جراء العار الذي لحق به منها ، اذ لم يكن يعرف للحطيئة أب ، وسأل الحطيئة أمــه مرة عن أبيــه ، فخلطت عليه فقال :(٥٠)

تقول لي الضــراء لستَ لواحــد

ولا اثنين ، فانظر كيف شرك أولئكا

وأنت امرؤ تبغي أبــاً قــد ضللتَه

هَبِلْتِ ألمّا تستفق من ضلالكا ؛

٤٨ ــ ما ، هنا ، استفهامية •

٤٩ ــ اسم الفتاة ، وقيل المرأة الدميمة •

٥٠ ــ الأغاني ٢ : ١٦٠ وخزانة الأدب ، البغدادي ٢ : ١٧٥ (الشعر لتالي للحطيئة من هذين المصدرين) •

ويلتفت الشاعر اليها فيهجوها أقبح الهجاء ، مما لا يمكن أن يصدر عن ولد تجاه أمه ، ولكن من يعاني من الضعة التي عانى منها الحطيئة ، يمكن أن يصدر عنه شيء كهذا .

ولقد رأيتك في النساء فسوءتني وأبا بنيك فساءني في المجلس

وهو حين يهجوها لا ينسى أن يذكرها بالعار الذي جلبته عليه ، فلقد ساءته بين الناس ، وحطت من منزلته . ولهذا فهي لا تستحق الا العقوق ولا تستحق أن يبرّ بها الشاعر أو يحسن اليها :

جزاكِ الله شرّاً من عجوز
ولقاك العقوق من البنين
فقد ملكتِ أمر بنيك حتى
تركتهم أدق من الطحين
لسانك مبرد لا خير فيه
ودرّكِ درّ جاذبة دهين(٥١)

ولقد ثار كثير من الأدعياء،وخرجوا على الطاعة ملتحقين بالصعاليك (وهؤلاء سنراهم فيما بعد) ولكننا هنا أمام شعراء لم تبلغ ثورتهم حد

---

٥١ ـ ناقة قليلة اللبن . ويقول فيها أيضا :

تنحي فاجلسي عني بعيدا أراح الله منك العالمينا
أغربالا اذا استودعت سرا وكانونا على المتحدثينا
حياتك ما علمت حياة سوء وموتك قد يسر الصالحينا

(المصدر نفسه ٢ : ١٦٠) .

التمرد والتصعلك ، وانما كانوا يقفون موقف الثائر لكرامته ، والمدافع عنها أمام اعتداء الآخرين ، ففي الأغاني(٥٢) أنه « استطالت امرأة من بني مرة على سهية أم أرطأة ، وسبتها ، فخرج اليها أرطـأة ، فسبهـا وضربها ، فلامـه قومـه ، وقالوا : ما لك تدخل نفسك في خصومات النساء ؟ فقال :

يعيّرني قومي المجاهـل ــ والخنا
عليهم ــ وقالوا أنت غـيرُ صميم

هل الجهل فيكم أن أعاقب بعدمـا
تجَوّزَ سبي واستُحلّ حريمي

اذا أنا لـم أمنع عجوزي منكـم
فكانت كأخـرى في النسـاء عقيـم

وقد تختلف الأمور قليلا حين يكون الشاعر في قوم أمه (أخواله) فهو يعلم أنه ليس في قبيلته ، ولكنه في الوقت نفسه لا يستطيع التبرؤ من أخواله ، ومعاملتهم معاملة الأغراب ، وهو يقبل أحيانا أن توجه اليه الاهانة منهم ، لأنهم أهله أيضا ، ولكنه يظل يعبر عن غربته ، ويذكـر اهانة أخواله له ، ويذكرهم أنه ما كان ليسكت لو أن الاهانة قد صدرت من غيرهم :(٥٣)

---

٥٢ ــ ١١ : ١٤٠ ٠

٥٣ ــ أنظر ابن الشجري ٢٨ ، وشعراء النصرانية ص ٣٣٧ ، والشعر للمتلمس ٠

يعيرني أمي رجال ولا أرى

أخاً كرم الا بأن يتكرما

. . . .

أمنتضيا من نصر بهثة خِلْتني

ألا إنني منهم وان كنتُ ابنما

ألا انني منهم وعرضي عرضهم

كذي الأنف يحمي أنفه أنْ يُصلّما

. . . .

ولو غير أخوالي أرادوا نقيصتي

جعلت لهم فوق العرانين ميسما

وهل لي أمٌ غيرها ان تركتُها

أبى الله الا أن أكون لها ابنما

وما كنت الا مثل قاطع كفّه

بكف له أخرى فأصبح أجْذما

فلما استقاد الكف بالكف لم يجد

له دركاً في أنْ تبينا فأحجما

يداه أصابت هذه حتف هذه

فلم تجدِ الأخرى عليها مقدّما

في لسان العرب ، مادة (خلع) ، والخليع : الرجل يجني الجنايات يؤخذ بها أولياؤه ، فيتبرأون منه ومن جنايته ، ويقولون : إنا خلعنا فلانا فلا نأخذ أحدا بجناية تجنى عليه ، ولا نؤاخذ بجناياته التي يجنيها .

وفي النهايـــة لابن الأثير[٥٤] (مادة خلـــع أيضا) أن العرب كانوا « يتعاهدون ويتعاقدون على النصر والاعانة ، وأن يؤخذ كل منهـــم بالآخر ، فاذا أرادوا أن يتبرأوا من انسان قد حالفوه أظهروا ذلك الى الناس ، وسموا ذلك الفعل خلعا ، والمتبرأ منه خليعا أي مخلوعـــا ، فلا يؤخذون بجنايته ، ولا يؤخذ بجنايتهم ، فكأنهم قد خلعوا اليمين التي كانوا قد لبسوهـــا معه ، وسموه خلعا وخليعا مجـــازا واتساعا » وفي أساس البلاغة[٥٥] : « وكان الرجـــل في الجاهلية اذا غلبه ابنه ، أو من هو منه بسبيل ، جاء به الى الموسم ، ثم نادى : يا أيها الناس هذا ابني فلان ، وقد خلعته ، فان جرّ لم أضمن ، وان جُرّ عليه لم أطلب ، يريد قد تبرأت منه . »

ولقد عرفنا أن نظام العصبية كان يقتضي أن تدافع القبيلة عن المنتمي اليها اذا ارتكب جرما في حق قبيلة أخرى ، ولكنه اذا ارتكب جرما في حق قبيلته نفسها ، فانه يطرد منها ، ويسمى هذا الطرد خلعا ، ويسمى الطريد خليعا ، وقـــد أشار الدكتور يوسف خليف[٥٦] الى الخلـــع : أسبابه ، وصوره ولاحظ أنه اذا قتل فرد فردا آخر من قبيلته ، فقد كان يخلع أو يخلع نفسه ويهرب ، واذا تعددت جرائر فرد ووجدت القبيلة

٥٤ ــ النهاية ، مجد الدين بن الأثير ، ٢ : ٦٤ .

٥٥ ــ أساس البلاغة ، الزمخشري ١ : ٢٤٧ (مادة خلع) .

٥٦ ــ الشعراء الصعاليك ص ٩٠ وما بعد .

نفسها عاجزة عن تحملها ، فانها تخلعه ، واذا كان سلوكه الخلقي سيئا بحيث يحط من قدر القبيلة ، فانها تخلعه أيضا •

أما صور هذا الخلع فقد تعددت . فجعلوا الخلع رسميا في الاسواق والمواسم •

ويجد الخليع نفسه أمام مشكلة خطيرة ، هي مشكلة الحياة أو الموت فلقد سحبت منه الجنسية القبلية ، ورفعت عنه قبيلته حمايتها ، وطردته من بين صفوفها ، فلم يعد أمامه الا أحد أمرين : إما أن يفر الى الصحراء ليلاقي مصيره في البادية القاسية فقيرا مفردا ، لا اعتماد له على أحد ، ولا على شيء ، واما أن يلجأ الى من يحميه ويعيش في جواره[٥٧]، ومن هنا نشأ قانون آخر من قوانين المجتمع الجاهلي ، وهو قانون الجوار ، الذي سنتحدث عنه فيما بعد •

---

٥٧ ـ ويقول الدكتور جواد علي في (المفصل) ٤ : ٤١٠ وما بعد :

« ويقال للرجل الذي تغضب عليه قبليته وتحرمه عطفها وعصبيتها لـه (الخليع) • ويقال ذلـك لمن يخلعه أهله أيضا • وقـد يقال له (الرجـل اللعين) و (اللعين) • واللعين هو المطرود ، وكذلك يقال له (الطريد)••• وربما خلعوا الرجل من القبيلة ولو كان من صميمها ، ويسقط عن أهلـه وقبيلته كل واجب يترتب عليهم أو عليها اذا عمل عملا يستوجب خلعه ، كما تسقط عن القبائل التي قد تتعرض للخليع بشر كل تبعة تقع عليها من الاعتداء عليه ، لخلع أهله وقبيلته له ، وتبرئهم أو تبرئها منه ، فلا يطالبون بثأر •• » ويتحدث عن أماكن الخلع في المواسم والأسواق ، « أو يكتبون كتابا يعلقونه في مكان عـام ••• » ويبقى الفرد متمتعا بعطف قبيلته عليه ، وبحمايتها لـه ما دام قائما بواجباته المترتبة عليه ، شاعرا بعظم التبعة • فاذا أجرم ، أو عمل عملا ينافي شرفه أو شرف قبيلته ••• كاسرا أعراف آله وقبيلته ، فقد عصبية أهله وقبيلته له ، وهام على وجهه طريدا يلتمس مجاورة رجل من عشيرة أو قبيلة أخرى قريبة من موطنه أو بعيدة عنه • وتكون هذه الفترة من حياة الانسان شر فترة في حياته ، ولا يهدأ للطريد بال الا اذا وجد له حليفا ، أو جارا يتعهد له بحمايته ويبذل (العصبية) له ، وبالدفاع عنه • »

وأنظر قصة الأدب ١٧٢ ، وتاريخ العرب (مطول) ص ٣٣ •

وفي كلا الأمرين فانه سيعيش متاعب الغربة ، وآلامها ، ولما كنا سنتحدث عن الجوار فيما بعد ، فاننا سنشير الى الحالة التي كان يعيشها أولئك الذين تمردوا وانطلقوا الى الصحراء ، يشقون طريقهم بأسلوبهم الخاص ، فقد عاشوا عيشة صعبة ، لا أحد يساعدهم أو يؤويهم خشية أن ينزل بهم أذى ، أو يترتب على قبول جوارهم تبعة تجاه من يقتص آثارهم طلبا للثأر منهم • ولذلك فقد تكتلوا مشكلين مجتمعا خاصا بهم ، قائما على علاقات اصطلحوا عليها ، وعلى أساليب في الحياة اختاروها بأنفسهم ، وهؤلاء هم الصعاليك ، الذين سنتناولهم فيما بعد•

ولكننا قبل كل شيء يجب أن نعلم أنه ليست هناك كارثة على البدوي أشد من خسرانه نسبه القبلي • اذ كيف يحيا من لا قبيلة له تحميه وتدافع عنه ؟ وماذا يفعل من لا قبيلة له في بلاد يحسب بها الغريب عدوا — كما قال فيليب حتي — ؟ •

وقد ذكر كثير من الشعراء الخلعاء ، أمثال قيس بن الحدادية،وكان من الشعراء الصعاليك الفاتكين الشجعان ، خلعته خزاعة بسوق عكاظ • وأشهدت على نفسها بخلعها اياه ، فلا تحتمل جريرة له ، ولا تطالب بجريرة أحد عليه(٥٨) • وذكروا أيضا حاجزا الأزدي ، وأبا الطمحان القيني •

وكان يحدث أحيانا أن يخلع المرء نفسه من قبيلته ، كي لا تتحمل قبيلته جريرة أفعاله ، فقد خلع كل من عمرو بن العاص ، وعمارة بن الوليد من عشيرتيهما ، وسبب ذلك أنهما ذهبا في الجاهلية بتجارة الى الحبشة واختصما في الطريق ، فأساء عمارة الى عمرو فأضمر عمرو له الشر ، فكتب الى أبيه أن يخلعه ، دفعا لما قد يجره عليه من المكروه اذا

٥٨ — المفصل ٤ : ٤١٢ ، والأغاني ١٤ : ١٤٤ •

هو آذى عمارة ، وكتب كذلك عمارة الى أهلـه بمثل مـا كتب عمرو ، فخلعت كل من العشيرتين صاحبها ، وأرسلوا بذلك مناديا الى مكـة . أو يشعر أنه قد أتى من السوء ما لا يمكن أن تتحمله قبيلته أو مجيره ، فيخرج خالعا نفسه ومفارقا كما حدث مـع البراض بن قيس الكناني ــ وكان سكيرا فاسقا ــ فقد تبرأ منه قومه وخلعوه . ثم شرب في بني الديل فخلعوه أيضا ، فاستجار بحرب بن أمية فأجاره وأحسن جواره ، ولكنه شرب بمكة وأتى ما يستوجب التبرؤ منه ، وأحس هو بأن مـا ارتكبه خليق أن يخلعه ، فقال لحرب : انك ان خلعتني لـم ينظر إليّ أحد بعدك ، فدعني على حلفك فأنا خارج عنك[٥٩] .

وكان هؤلاء الخلعاء اذا وجدوا من يؤويهم ويجيرهم ، فانهم يلهجون بالشكر والثناء لأنهم وجدوا من ينظر الى مشكلتهم وينظر اليهم بعين العطف . فقد « أصاب (قيس بن الحدادية) دما في قوم من خزاعة هو وناس من أهل بيته ، فهربوا فنزلوا على فراس بن غنم ، ثم لم يلبثوا أن أصابوا أيضا منهم رجلا ، فهربوا فنزلوا في بجيلة على أسـد بن كرز ، فآواهم وأحسن الى قيس وتحمل عنهم ما أصابوا في خزاعة وفي فراس ، فقال قيس :[٦٠]

وقـد حللنا بقسـري أخي ثقـة
كالبدر يجلو دُجى الظلماء والأُفقا

لا يجبر الناسُ شيئا هاضه أسـد"
يوما ولا يرتقون الدهرَ ما فتقـا

---

٥٩ ــ قصة الأدب ٤٨٦ .
٦٠ ــ الأغاني ١٤ : ١٥١ .

وبالرغم من أن أبا عمرو يرى أن هـذه الأبيات من صنع حمـاد ، والتوليد فيها بيّن ، الا أن دلالتها تكفي ٠

ولا يكتفي بمديح مجيره أحيانا ، وانما يتعدى هـذا الى مهاجـة عشيرته ، والى اعتبار الناس الذين أجاروه وأمّنوه أهلـه الحقيقيين ٠ فقد روى أبو الفرج عن أبي عمرو قولـه[٦١] : « انه لما خلعت خزاعـة قيسا (ابن الحدادية) ، تحول عن قومه ، ونزل عند بطن من خزاعة ، يقال لهم بنو عدي بن خالد ، فآووه وأحسنوا اليه ، وقال يمدحهم :

جزى الله خيراً عن خليع مطرد

رجالا حَمَوه آل عمرو بن خالد

فليس كمن يغزو الصديق بنوكه

وهمته في الغزو كسب المزاود

ثم يتجه الى قومه بقوله : الزموا دوركم فانني متحول عنها ، وأرض الله واسعة ، انني لا يمكن أن أبقى في أرض وبين قوم لا يرعون عهدي، ولا يقومون بواجبهم الذي تفرضه العصبية عليهم ، بل انه يسخر منهم، ويصفهم بالظالمين :

عليكـم بعرصات الديـار فانني

سواكم عديد حين تبلى مشاهدي

ألا وَذْتم[٦٢] حتى اذا مـا أمنتم

تعاورتم سَجْعا كسجع الهداهـد

---

٦١ ـ الأغاني ١٤ : ١٥٢ ٠

٦٢ ـ استترتم ٠

تجنّى علـــيّ المازنـــان كلاهمـــا

فلا أنـــا بالمغصي ولا بالمساعـــد

ثم يعود الى مجيريه يستدحهم . ويوضح أنهم أهله الحقيقيون الذين هبوا لنصرته بكل ما يملكون :

وقد حدبت عمرو عليّ بعزّهـــا

وأبنائهـــا من كلّ أروع ماجـــد

. . . .

أولئك إخواني وجـــلّ عشيرتي

وثروتهم والنصر غير المحـــارد(٦٣)

وقد يعمد الخليع للثـــأر ممن خلعه ، أو كان سببا في خلعه ، فيغير عليه ، سالبا قاتلا سابيا . وتظل مع قيس(٦٤) فانه لما خلع ، قيل إنّ أكثر من كان قولا وسعياً في خلعه قوم من خزاعة يقال لهم : بنو قمير . فجمع لهم قيس شذّاذا من العرب وفتّاكا من قومه ، وأغار عليهم بهم ، وقتل منهم رجلا ، واستاق أموالهم ، ثم قال في ذلك :

تركـــتُ ابنَ عُشٍّ يرفعون برأســـه

ينوء بساق كعبهـــا غـــير راتـــب(٦٥)

---

٦٣ ــ المنقطع .

٦٤ ــ الأغاني ١٤ : ١٤٤ .

٦٥ ــ منتصب .

وأنها هــم خلعي علــى غــير مــيرةٍ

من اللحم حتى غُيبوا في الغوائب[٦٦]

ومثله أبو جندب[٦٧] ، وكان ذا شر وبأس ، انحرف عن قومه وأنشأ يغزوهم مع خلعاء بكر وخزاعة . ولقد قتل بنو لحيان جارا له وامرأة . فخرج حتى قدم مكة ، واستلم الركن وجعل يصيح :

إني امرؤ أبكي علــى جاريّه ... أبكي على الكعبي والكعبيه

ولو هلكتُ بكيــا عليّــه ... كانا مكان الثوبِ من حِقويّه

فلما فرغ من طوافه ، خرج ببعض الخلعاء الى بني لحيان ، فقتل وسبى.

ويشعر الخليع بالوحدة والذل ، وبأن أحدا لن يثأر له اذا مــات ، كما أنه لن يحمل تبعات أعماله . ولهذا فقد كان يجابه الامور وحيدا ، حتى الموت كان يقبل عليه راضيا لأنه ، وحده ، من يدافع عن حياته . ولعل في مقتل قيس بن الحدادية[٦٨] من المعاني ما يجعلنا نتوقف دون أية اضافات الى حديثنا عن غربة الخليع . فقد وقع قيس في مأزق . لقي جمعا من مزينة يريدون الغارة حيث كانت الجهة ، فطلبوا منه أن يستأسر فقال : وما ينفعكم أن أستأسر وأنا خليع ؟ والله لو أسرتموني ثم طلبتم بي من قومي عنزاً جرباء جذماء ما أعطيتموها . فأصروا على أن يستأسر ففضّل القتال ، وقتل ، وقال مرتجزا أثناء اللقاء :

٦٦ ــ نهى من اللحم : شبع ، والميرة : الطعام ، يمتاز (يجلب) .

٦٧ ــ الأغاني ٢٠ : ٢٠ ، وشعر الهذليين ١١١ .

٦٨ ــ الأغاني ١٤ : ١٦٠ .

أنا الـذي تخلعه مواليـه وكلهم بعد الصفاء قاليـه
وكلهـم يقسـم لا يباليـه أنّا اذا المـوت ينوب غاليه
مختلط أسفلـه بعاليـه قد يعلمْ الفتيان أني صاليه
اذا الحديد رفعت عواليـه

وقد يُخرج الانسان عن قومه لسبب ما غير ما قدمنا فقد روى أبو الفرج عن السكري[69] أن أمية بن الأسكر قد كانت له ابل هائمة[70] فأخرجته بنو بكر مخافة أن يصيب ابلهم . فحاول معهم دون طائل . ثم انه أتى مزينة فأجاروه . وأقام عندهم الى أن صّحت ابله ، وسكنت ، فقال يمدح مزينة :

تكنّفها الهيـام وأخرجوهـا
فما تأوي الى إبـل صِحـاح
فكان الى مزينة منتهاهـا
علـى ما كان فيهـا من جُناح
ومـا يكن الجناح فان فيهـا
خـلائق ينتمين الى صـلاح
ويومـاً في بني ليث بن بكـر
تُراعى تحـت قعقعة الرمـاح

٦٩ ـ الأغاني ٢١ : ١٢ .
٧٠ ـ داء من العطش .

وشـــر "" أخي مؤامرة خـ ذول

على ما كان مؤتـكل "[٧١] ولاح

وتبقى الأمور التي يخلع من أجلها الفرد كثيرة ، والتي يفارق فومه من أجلها خالعا نفسه كثيرة أيضا . وهو اما متمرد يرد بالقوة على من أساء اليه ، واما مكتف بالهجوم عن طريق شعره ، ويضيق المجـال عن ذكـر شعر كثير . لا يختلف في مضمونه عمـا ذكـرنا ، وان اختلفت المسببات وطريقة الرد[٧٢] .

ولعله من المفيد أن نذكر أن العرب كانوا ينفون خلعاءهم الى أماكن معينة مثل (حَضوْضى) ، وهو جبل في الجزيرة العربية ، كان الناس في الجاهلية ينفون اليه الخلعاء ، وقيل جبل في البحر أو جزيرة فيه[٧٣] .

★ ★ ★

٧١ ـ غاضب .

٧٢ ـ أنظر شرح الحماسة ١ : ٤١١ ، وديوان طرفة بن العبد ص ١١٨ وفيه شعر قاله قبل مقتله على يد عامل عمرو بن هند في البحرين .

٧٣ ـ المفصل ٤ : ٤١٣ .

٣ ـ الصعلوك والفقير

نحن هنا أمام طائفة أخرى من الغرباء . هذه الطائفة تكونت نتيجة عوامل مختلفة ، لعلنا تحدثنا عن بعضها ، ولعلنا أيضا قدمنا الحديث عن أسباب نشوئها ، ولما كنا بصدد بحثها على نحو مستقل ، فلا بأس في الحديث المفصل عنها . واذا كان الصعاليك فقراء ، فليس كل الفقراء صعاليك ، فنحن سنرى أن الصعاليك يتوجهون بلومهم الى هؤلاء الفقراء الخانعين القابعين الراضين بالمذلة ، ولكننا لا ننكر أن الفقر لم يكن السبب الوحيد في الصعلكة .

واذا عدنا الى أهم مرجع يتحدث عن الصعاليك[٧٤] فاننا نراه يعرف لنا الصعلوك بأنه : « الفقير الذي يواجه الحياة وحيدا ، وقد جردته من وسائل العيش فيها ، وسلبته كل ما يستطيع أن يعتمد عليه في مواجهة مشكلاتها . فالمسألة ليست فقرا وحسب ، ولكنها فقر يغلّق أبواب الحياة في وجه صاحبه ، ويسد مسالكها أمامه » .

ولقد كانت هناك أسباب متعددة ، وكل سبب منها كاف لأن يجعل هؤلاء يخرجون على طاعة بيوتهم وعشائرهم ــ كما قال احسان سركيس[٧٥] ــ ولقد أدى عدم الانسجام بينهم وبين قبائلهم الى نفورهم وخروجهم على طاعة مجتمعهم ، وهروبهم منه ، والعيش عيشة الذؤبان

٧٤ ــ الشعراء الصعاليك ، د . يوسف خليف ص ٢١ .
٧٥ ــ مدخل الى الأدب الجاهلي ص ١٩٢ .

معتمدين على أنفسهم في الدفاع عن حياتهم ، وعلى قوتهم في تحصيل ما يعتاشون منه بالاغارة على الطرق والمسالك . وبمهاجمة أحياء العرب أفرادا وطوائف . فقد كونوا جماعات وحدهـا الهدف . وكان فيهـم الحر الثائر ، والغاوي الضال ، والأسود ابن الأمة . والقاتل الفاتك ، ومن قبائل مختلفة ، وبطون متنافرة ــ مخالفين منطق العصبية ــ .

ويمكننا أن نميز فيهم ثلاث مجموعات : الخلعاء والشذاذ (ذكرنا حاجزا ، وقيسا ، وأبـا الطمحان) والأغربة السود (ذكرنا السليك ، وتأبط شرا ، والشنفرى) ، والذين احترفوا الصعلكة احترافا (عروة بن الورد) ، والفقراء المتمردون . من هؤلاء تألفت عصابات الصعاليك، التي قطعت صلاتها بقبائلها ، وانطلقت الى الصحراء كالذئاب الجائعة ، تشق طريقها في الحياة بنفسها ، ولقد جمع ، بين أفرادها ، الفقر والتشرد والتمرد ، والظلم الاجتماعي والاقتصادي ، والايمان بأن الحق للقوة ، وأن الضعيف مهضوم حقه في مجتمع ظالم كهذا .

ولقد كان هؤلاء ، سواء قبل تصعلكهم أم بعده : هم المستضعفون من الناس ــ كما قال جواد علي ــ[٧٦] وقد نظر مجتمعهم اليهم نظـرة ازدراء واستهجان ، واعتبرهم الطبقة الدنيا فيه ، اما لفقرهم ، واما لخروجهم على مجتمعهم ، واما لأصلهم ، فقد كان منهم الطريد والضال والغراب . ونحن نسمع في أشعـار هؤلاء صيحات الجـوع والفقـر والثورة ، الى جانب الشعور بالامتهان والضعة ، هذه الصيحات يدرك مسبباتها من يفهم طبيعة المجتمع القائمة على العصبية ، فهـذا المجتمع القائم على العرف القبلي كان يقهر أفراده ، ويطرد من يخرج على أعرافه .

---

٧٦ ــ المفصل ٤ : ٥٦٣ .

أما أسباب نشوء ظاهرة الصعلكة ، فنجد أنها ليست تمردا كيفيا نشأ عن رغبات خاصة ، وانما كان لها أسبابها الاجتماعية والاقتصادية . فهؤلاء ، كما رأينا بعضهم ، خلعتهم قبائلهم فعاشوا منبوذين لا يجدون الحماية في مجتمع لا يعتمد الا على القوة ، واذا نظرنا الى توزيع الثروة في ذلك المجتمع فاننا نجده سيئا حيث يعاني كثير من أفراده من الفقر والجوع ، أما أبناء الاماء ، الذين يأتون في الدرجة الدنيا ، ففيهم يتلاقى الفقر مع وضاعة الأصل والمنزلة الاجتماعيه . وقد رأينا أن قيس بن الحدادية يصرح أنه لا يساوي عند قومه (عنزا جرباء جذماء)[77]، والشنفرى لم يعده قومه من اسره وامه واخاه ، بل ان اللطمة التي وجهتها الفتاة السلامية له ، بعد أن كان يظن أنها أخته ، كانت سببا مباشرا في تصعلكه ، لأنها أنكرت عليه أن يتسامى الى مقامها الاجتماعي ويرفع الحواجز الاجتماعية التي تفصل بين طبقتيهما ، ولعل في هذا وفي أمثلة كثيرة نراها في حياة الصعاليك وفي أشعارهم ما يدل على ما كان يعانيه هؤلاء من غربة في مجتمعهم ذاك .

ولم يقف الأمر عند خروج هؤلاء على قبائلهم ، أو طردهم ، بل انهم أصبحوا مطلوبين من قبائل أخرى نتيجة قيامهم بالاغارة عليها ، ولهذا كانت حياتهم شاقة ، لا أحد يساعدهم أو يؤويهم خشية أن ينزل به أذى ، ذلك أنه يترتب على قبول جوارهم تبعة تجاه من يقتص آثارهم طلبا للثأر منهم . وقد كانوا ـ أحيانا ـ يحصلون على موافقة من قبيلة ما على مجاورتها ، ولكن في الغالب كانوا ينطلقون الى الصحراء يحيون على طريقتهم الخاصة ، وكل هدفهم الانتقام ممن كانوا سببا في خلعهم ، أو ظلمهم الاجتماعي والطبقي .

---

٧٧ ـ الشعراء الصعاليك ص ٢١ .

ومن يبحث في النظام القبلي لابد أن يرى المشكلة التي بدأت تظهر والتي تمثلت بتناقض بين ظاهر تقاليد هـذا النظام ، وبين تطبيقاته في الواقع ، فقد بدأت انسانية القبيلة تخلي المكان لأشكال من التمايز أو التفاوت[٧٨] . وبدأ الاحساس بوطأة هذه الظاهرة يقترن بوعي جديد لمشكلة تباين الناس من حيث الفقر والغنى . والوفرة والحرمان ، ومن حيث تجمع السلطة أو الزعامة أو النفوذ في أيدي الأثرياء علـى حساب المحرومين . فيمضي في أول سعيه لاقامة حـوار مع المجتمع المتمثل في القبيلة ، يبدؤه بالكلام ، وقد ينتهي به الى امتشاق الحسام ، ليبت حبل الصلة التي تربطه بهذا الكيان المرافق للصحراء .

هذا الخلل في النظام القبلي والاقتصادي أوجد بين الجاهليين فقراء معدمين لم يملكوا من حطام هذه الدنيا شيئا . وكانت حالتهم مزريـة مؤلمة ، منهم من سأل الموسرين احسانهم . ومنهم من تحامل على نفسه تكرما وتعففا .... منهم من كانوا يختارون الموت على الدنية ..... ولم يكن في وسع كثير من الجاهليين الحصول علـى الطعام والكساء والمأوى . فقد أحدث النشاط التجـاري اختلالا في التوازن الاقتصادي نشأت عنه طبقة الفقراء الصعاليك . ذلك أن التشريع كان في أيدي الطبقة العليا ، التي وسعت نشاطاتها ، ونمّت أموالها على حساب الفقراء ، فانتشر الربا والتلاعب . وكل هـذا أدى في النهاية الى زيادة الهوّة بين الأغنياء والفقراء ، واذا كان هذا هو وضع الطبقة الفقيرة في الحواضر ، فكيف كان وضعها في البادية . لقد كانت تضطر لقتل أولادها من املاق ، أو خشية املاق . ولقد عبر الأحيمر السعدي[٧٩] (وهـو

٧٨ ـ أنظر مدخل الى الأدب الجاهلي ١٨١ .
٧٩ ـ المؤتلف والمختلف ، الآمدي ص ٤٣ .

شاعر صعلوك) عن وضع طبقته بأنها « تجرّ حبلا ليس فيه بعير » .

والحق أن المتأمل في حياة الصعاليك ، يروعه الفرق الهائل بينهم وبين الطبقة العليا[80]. وليس ثمة تسلسل اجتماعي بينهما . والملاحظ أنه على الرغم من كثرة عددهم فانهم كانوا وراء القافلة دائما ، وكانوا ذليلين ، لا يملكون أنفسهم ولا يحظون الا بازدراء الطائفة المترفة صاحبة الثراء العريض . واذا بحثنا في مدلول الاسم الذي عرفوا به وجدناه يدل على الضعة والمذلة اذ أن حروف الصاد والعين واللام تدل على الصغر .

واذا بحثنا في التلاؤم الاجتماعي ، فاننا نجده مفقودا بين الصعاليك ومجتمعهم ، ولعل فقدان هذا التلاؤم ينتهي بالفرد ، عادة ، الى أن تكون صلته بمجتمعه قائمة على أساس (السلوك الصراعي)[81] ، ولقد بحثنا في سبب هذا السلوك ، ولكننا نريد أن نؤكد على ظاهرة الفقر التي كانت عقدة العقد في حياة جميع الصعاليك ، وتحدث عنها جميع شعرائهم ، فلقد كانت السبب الأقوى في تصعلكهم .

أما صورة الصعلوك فانه ترتسم أمامنا صورتان لأنموذجين من الصعاليك الأولى : صورة الفردية الناقمة المكابرة التي تستشعر مهانة الفقر والمكانة الاجتماعية وتتجلى في شخصية الشنفرى ، وصورة الفردية ــ الاجتماعية التي تحس بتخلخل النظام القبلي والتفاوت في الأرزاق والظلم الذي ينزل بساح الفقراء والمستضعفين فتحمل لواء الدعوة الى التمرد ، ويمثلها عروة بن الورد .

وكلاهما فقد احساسه بالعصبية القبلية ، وتطورت عنده الى عصبية

---

٨٠ ــ لسان العرب مادة (صعلوك) ، وشعر الهذليين ص ٩٠ .

٨١ ــ الشعراء الصعاليك ٥٦ .

مذهبية ، فقد كانوا يغيرون على قبائلهم ذاتهـا ، (قيس بن الحدادية ــ كما رأينا ــ جمع شذاذا من العرب ، وفتاكا من قومه ، وأغار على قومه ، والشنفرى أغار على قومه ٠٠٠٠) ٠

لقد تحدث كثيرا عن احساس الصعاليك الفاجع بالغربة في مجتمع أبرزنا ملامحه الطبقية والاجتماعية ، بشكل يجعلنا : « نحس تلك المرارة التي تفيض بها مشاعرهم وهم يهيمون على وجوههم في الفلوات أحرارا ــ فيما يبدو ــ وغرباء في الواقع ، فاننا نلتفت الى مـا ترك الخلـع في وجدانهم من أثر عميق نافذ ، سجلته أشعارهم المشحونة بأشجان الغربة ووطأة الوحدة النفسية ، وقسوة الحرمان من السكن والأهل والدار ٠ بل ان سلوكهم نفسه كان يطوى وراء الاستهانة بالحياة والانطلاق في الفضاء العريض ، والمغامرة الفتاكة المثيرة » « وهذا الاحساس بالمرارة طبيعي ، لأن التضامن في سبيل العيش ، قد جعلهـم يقدسون الحيـاة القبلية ، والشعور بالوحدة القبلية كان عميق الجذور في نفوس العرب ٠ فالخلعاء الذين فروا الى الصحراء مشردين ، لا بـد أن يقاسوا مـن الاحساس بالغربة ، والحنين الدافق الى حياة الجماعة ، مهما صقلت حياة الوحدة من شخصياتهم ، ونجد ذلك واضحا في شعر أبي الطمحان ، فانه يردد في بعض شعره أن ناقته قـد حنت كأنما تذكر أرمامـا فذكرتـه بمشعره »(٨٢) ٠

ولا بد أن يكون لهؤلاء هدف ، فالخارج على القبيلة من خـلال منطلق اجتماعي لا يتمثل نفسه منفصلا عن واقع القبيلة فحسب ، وانما يتصور مجتمعا آخر لا بد أن تقوم به طائفة أو جماعة من الناس ٠ وقد يحدث أن تتطور هـذه الأهداف الاجتماعية والاقتصادية عنـد بعض الصعاليك ، الى لون من التمرد الخالص الذي لا يميز بين الأهداف ٠

---

٨٢ ــ الحنين والغربة ص ٨ ٠

ولما كان لتصعلكهم صلة وثيقة بغربتهم فسنعرض لبعض جوانب هـذه الحياة موضحين مرارة الحيـاة التي عاشوا ، وفظاعة الغربـة التي قاسوا .

ونبدأ بالحديث عن فقرهم وحالتهم الاقتصادية المزرية ، لنرى من خلالهـا كيف كانوا يعانون مرارة الفقر ، وكيف كان المجتمع الطبقي يقهرهـم وبالتالي نحس بمرارة الشكوى ، وحرارة التمرد ، وقسوة الغربة عن مجتمعهم . فهذا المزرد بن ضرار يصف حال فقير من (بني صباح)[٨٣] يعاني شقاء مستديما ، فهو لا يمتلك من دنياه الا قوسـه وسهامه وجراء من كلبين سلوقيين كانا يعينانه على أمور الحياة ، فلما ماتـا أيقن أنه متعرض للجوع والفقر المزري لا محالة ، فذهب يطرق أبواب أصحابه دون جدوى ، فعاد الى بيت ليس فيه سوى أولاد جياع هزيلين ، وامرأة حمقاء همهـا الطواف ببيوت جاراتهـا ، فسألها عن طعام ما ، وشكا اليها الناس (أذم اليك الناس) ، فكان جوابها أنه ليس لديها سوى الماء ، فلم يستطع النوم من جوعه وظل ساهرا ، وحين أراد النوم لم يجد الا فضل ردائه يتدثر به ، ولكن الهموم أيضا تضافرت مع الجوع ومنعته من النوم :

فعـدِّ قريض الشعر ان كنت مغـزراً

فان غزيـر الشعر مـا شـاء قائـل

لنعت صُباحي[٨٤] طويـل شقـاؤه

له رُقميـات[٨٥] وصفراء ذابـل

٨٣ ـ المفضليات ١ : ٩٩ .
٨٤ ـ رجل من بني صباح .
٨٥ ـ سهـام .

بقيـن لـه ممـا يُبرّي ، وأكلـب
تقلقلُ في أعناقهـن السلاسـل

بنـات سلوقيّين كانـا حياتـه
فماتـا فأودى شخصه فهـو خامـل

وأيقن ، اذ ماتـا ، بجـوع وخيبـة
وقـال لـه الشيطان : انـك عائـل

فطوّف في أصحابـه يستثيبهـم
فآب وقد أكْدَتْ[86] عليه المسائل

الى صِبية مثل المغالي[87] وخَرمل[88]
رواد[89]، ومن شـر النساء الخرامل

فقال لهـا : هـل من طعـام فانني
أذمّ اليك الناس ، أمـكِ هابل[90]

فقالت : نعم ، هذا الطوي[91] وماؤه
ومحترق من حائل[92] الجلـد قاحل

---

٨٦ ـ امتنعت ٠
٨٧ ـ ضعاف كالسهام ٠
٨٨ ـ حمقـاء ٠
٨٩ ـ طوافة بيوت الجيران ٠
٩٠ ـ دعاء (مفقودة) ٠
٩١ ـ البئر ٠
٩٢ ـ أتى عليه حول ٠

فلمــا تناهت نفسه من طعامــه

وأمسى طليحــا[٩٣] مــا يعانيه باطل

تغشّى ، يريــد النوم ، فضل ردائــه

فأعيا علــى العينِ الرقادَ البلابل[٩٤]

بل ان السليك يخرج في ليالي الشتاء الباردة آملا أن يصيب ابــلا أو غنيمة[٩٥] ، ويضطر الى النوم مشتملا بثوبه منتظرا رزقه في الصباح، وهو يصرح بأنه لم ينل رزقــه الا بعد أن أشرف علــى الموت ، وذاق مرارة الجوع :

ومــا نلتُها حتى تصعلكت حقبــة

وكــدت لأسباب المنيــة أعــرف

وحتى رأيتُ الجوع بالصيف ضرّني

اذا قمت تغشاني ظِلالٌ فأسدفُ

وكانوا يصفون حياتهم القاسية بعد أن لفظهم المجتمع ، واضطروا الى العيش معتمدين علــى أنفسهم ، فهم ان وجــدوا فرصة سانحة ، انقضوا وأخذوا ما يحتاجونه بالقوة فان الجوع سيعض بأنيابه القاسية أمعاءهــم • والشنفرى هنــا يصف (تأبط شــرا) ، رفيقه ، بأنه (أم العيال)[٩٦] التي تشرف على اطعام أبنائها ، ولأن الطعام قليل فانها لا

---

٩٣ ــ ضعيفا •
٩٤ ــ همام صدره •
٩٥ ــ الأغاني ٢٠ : ٣٧٦ •
٩٦ ــ المفضليات ١ : ١٠٨ ، وشرح الحماسة ٢ : ٦٤٠ حاشية (١) •

تعطي الا القليل ، وعلى كل حال فان أكثرت أو أقلت فالنتيجة واحدة ، اذ ليس لديها من الطعام ما يكفي عيالها ، والشاعر لا يتهم رفيقه بالبخل، ولكن تقتيره جاء مخافة الجوع ، ثم يصف حال جماعته واستعدادهم الدائم للغارة ، أو لصد الغارة ، وقسوتهم في القتال أو تمرسهم فيه ، ثم يذكر بعدهم عن أقوامهم ، ولو أن منبتهم منهم :

وأمِّ عيال قــد شهدتُ تقوتهــم
اذا أطعمتهم أو تحَتْ[97] وأقلَّت

تخاف علينا العَيْل إن هي أكثرتْ
ونحــن جياع أيَّ آل[98] تألَّتِ

وما إنْ بها ضِـنٌّ بما في وعائهــا
ولكنّهــا من خيفة الجــوع أبقت

مصعلكة لا يقصــرُ الستر دونهــا
ولا ترتجى للبيت ان لم تبيّت

ولقد كانوا يتذمرون من فقرهم وهوانهم وسوء حالهم ، وانهم ليغتربون بحثا عن الغنى ، وفي محاولة لتجــاوز واقــع البؤس الذي يعيشون ، فالفقير شر الناس ــ كما يقول عروة بن الورد ــ وهو هين وحقير ، وان كان نسبه رفيعا ، فهو مهضوم حقه ، مبعد عن أداء دوره

---

٩٧ ــ أعطت قليلا ٠

٩٨ ــ سياسة ٠

في أمور قبيلته ، بل ان زوجته تزدريـه ، وينهره الصغير فضـلا عن الكبير[٩٩] :

ذريني للغنى أسعى فانّي
رأيتُ الناسَ شرّهـم الفقير
وأهونهـم وأحقرهـم لديهـم
وانْ أمسى له نسبٌ وخـير
ويُقصى في النـدي وتزدريـه
حليلتُه وينهـره الصغـير

وهذه الأبيات هي التي رفض عبد الله بن جعفر أن يعلمها المعلـم أولاده قائـلا : ان هذا يدعوهم الى الاغتراب عن أوطانهم .

ويعتبر عروة مقدما في هذا الباب ، بل هـو رأسه ، وله فيه شعر كثير ، فهو دائما يدعو الى التمرد والثورة على الفقر ، وهو دائما جوّاب وراء الغنى له ولرفاقه الصعاليك ، وهو لا يهاب الموت . اذ كل انسان لا بد وارده[١٠٠] .

انهم أغراب حتى مع زوجاتهم . فالزوجة التي يجب أن تكون شريكة حياته ، تقاسمه أفراحه وأتراحه ، وتقف الى جانبه تشق معه طريقهما في الحياة ، هذه المرأة ــ الزوجة . نراها تعبس في وجه زوجها وتخاصمه لأنه افتقر ولقد كانت في أحسن حال معه ، حين كان غنيا ، فما بالهـا

---

٩٩ ــ ديوانا عروة والسموأل ص ٤٥ ، وشعراء النصرانية ٨٨٨ .

١٠٠ ــ أنظر أبيات عروة في الأصمعيات ص ٣٦ .

تعبس الآن وتخاصم ؟ صحيح ان الفقر يكشف العيوب . والفقير بعد هذا لا بد أن يعاني من كل هذا ، وخاصة حين تصل الأمور الى أقرب الناس اليه . فقد عبست أم حبيش في وجه زوجها ذي الخرق وخاصمته لأنه افتقر فقال :(١٠١)

ما بالُ أم حُبَيْش لا تكلمنــا
لما افتقرنــا وقــد نثري فنتفــق

تقطع الطــرف دوني وهي عابســة
كما تشاوسَ فيكَ الثائر الحَنِق

لمــا رأتْ ابلي جاءت حمولتهــا
غرثى عجافا عليها الريش والخِرَق

قالت : ألا تبتغي مــالا تعيشُ به
عما نلاقي وشــرّ العيشة الرمــق

بل ان الزوجة قد تعمد الى طلب الطلاق ، فتضيف الى غربة الشاعر من جرّاء فقره غربة أخرى هي وحدته ، وبقاؤه منفردا يصارع الحياة . ويعاني من صنوف غربة متعددة . فقد طلبت زوجتا سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل الطلاق منه لأنه افتقر ، فقال :(١٠٢)

---

١٠١ ـ خزانة الأدب ١ : ٤٣ ، وهناك شعر في هذا المجال في ديوان عروة ص ٩ ، وشرح الحماسة للمرزوقي ١ : ٣٠٤ ، وهناك قصيدة رائعة للجميح سنستعرضها في حديثنا عن الشيخوخة .

١٠٢ ـ الأغاني ١٦ : ٦٠ .

تلك عرساي تنطقان على عمد لِيَ اليوم قول زور وهَتْر

سألتاني الطلاق أن رأتــا مالي قليلا ، قــد جئتماني بنُكْر

وأخرى هزئت بالشاعر لفقره . وثالثة لشيخوخته . والشاعر يرد عليهما مذكرا بأيام غناه وصباه . أما الآن فان الحال تغير وما كان يجب أن تتخذ المــرأة هــذا الموقف الذي يذكر الشاعــر بذلــه ووضاعته وغربته[١٠٣] .

وكم يشعر الشاعر بالمرارة والغربة حين تكون زوجه تحته وهــي تنظر الى رجل غني معجبة به مذكرة اياه بأنه فقير ، وأنها كانت تود لــو تزوجها غني ، وأنها لو لم تتزوجه لتزوجت سيدا موسرا ، فيذكرها أنه يجل أشياء أخرى في الحياة ، غير المال ، ثائرا لكرامته المهدورة ، فهو يجوع ولا يهدر كرامته ، ويجوع كي تشبع زوجه وأطفاله ، وهو فضلا عن كل هذا بطل في ساح الوغى ، ثم يلوم زوجه التي عرفت كل مناقبه الحسنة هذه ، ثم تحولت عنه الى غيره وهي لمّا تزل في عصمته[١٠٤] :

رأتْ رجلا قد لوّحته مخامِص[١٠٥]

وطافتْ برتّان المعدّين[١٠٦] ذي شحم

غــذيّ لقــاح لا يزال كأنــه

حميت[١٠٧] بدبغ عظمه غير ذي حجم

---

١٠٣ ــ أنظر شعرا لصخر بن عمير في الأصمعيات ٢٧٤ ، ويرويها أبوعلي في أماليه لصخر الغي الهذلي ٢ : ٢٨٤ .

١٠٤ ــ ديوان الهذليين ٢ : ١٢٦ ، وشعر الهذليين ١٢ ، والشعر لأبي خراش .

١٠٥ ــ غيرته مجاعات .

١٠٦ ــ يرن جنباه .

١٠٧ ــ شديد .

تقول : فلــولا أنت أُنكحتُ سيّداً

أُزفّ اليه أو حُملت على قِرْم[108]

. . . .

فــلا وأبيــكِ الخــيرَ لا تجدينــه

جميل الغنى ولا صبورا على العُدْم

ولا بطــلا اذا الكمــاة تزيّنــوا

لدى غمرات المــوت بالحالك الفَدْم

أبعدَ بلائي ضلّتِ البيت مــن عمىً

تحــب فراقي أو يحــل لهــا شتمي

. . . .

وإني لأثــوي الجــوع حتى يملّني

فيذهب لــم يدنسْ ثيابي ولا جرمي

وأغتبقُ المــاء القــراح فأنتهــي

اذا الــزاد أمسى للمــزلّج ذا طَعْم

أردُّ شجــاعَ البطن قــد تعلمينه

وأوثــر غــيري من عيالــك بالطعم

---

١٠٨ ـ فعل ٠

مخافة أن أحيا برغم وذلة

ولَلْموتُ خير من حياة على رغم

ويعبر الصعاليك عن يأسهم من الناس، وتبرمهم بهم، فينطلقون الى الصحراء، ويعايشون ساكنيها، مفضلين عالم الوحوش على عالم الانسان. مقررين أن الوحش أكثر اخلاصا ومصاحبة من بني الانسان لأنه لا يغدر بمن عاهده على الوفاء، ولا يسرق، ولا يستغل .... ولذلك فلا نعجب حين نجدهم يلحون في شعرهم على هجرهم لعالم الانسان والتصاقهم بعالم الحيوان. وفي هذا، كما يبدو دون كبير عناء، تتجسد غربتهم الحقيقية عن المجتمع. والأمثلة كثيرة نراها مبثوثة في شعرهم الكثير أيضا: فهذا القتال الكلابي[109] قد قتل ابن عم له لأنه كان يحادث أخته، فتوعده ابن عمه ثم لحق به، فاضطر الى قتله وهرب الى الجبال، وهناك صادق نمرا وعاش معه يقاسمه طعامه وشرابه:

ولي صاحب في الغار يعدل صاحبا أبا الجون[110] الا أنه يتعلّل

ولص من بني سعد يعلن انتماءه الى عالم الحيوان من خلال تمثله لحياته، فقد ترك الانس مرغما، بعد صبر طويل، فكان كالصقر الذي صاد صيدا، وبدأوا يعللونه بشوائه، ويطلبون منه الاقتراب وهو يبتعد مرة بعد مرة، ويعدد أصحابه ــ كما فعل الشنفرى ــ القوس والسيف والجنّ والفلاة[111]:

---

١٠٩ ــ الأغاني ٢٤ : ١٧٣ .

١١٠ ــ كنية النمر .

١١١ ــ الكامل ١ : ٢٩٥ .

فانّي وترْكي الانس من بعد حبهم
وصبري عمن كنت ما إن أزايله

لكالصقر جلّى بعدما صاد قينة
قديرا ومشويّا عبيطا خرادله

أهابوا به فازداد بعداً وصدّه
عن القرب منهم ضوء برق ووابله

ألم ترني صاحبت صفراء نبعة
لها رَبَذِيّ لم تفلّل معابله

وطال احتضاني السيف حتى كأنما
يُلاط بكشحي جفنُه وحمائله

أخو فلوات صاحبَ الجن وانتحى
عن الانس حتى قد تقضّت وسائله

له نسب الانسيِّ يُعرف نجره
وللجن منه شكله وشمائله

ويصف تأبط شراً(١١٢) حال الصعلوك ، وكيف يصل الأمر بالناس أن يرفضوا تزويجه لأنه مقتول لا محالة ، وكيف ترضخ المرأة لما يرون،

١١٢ ـ شرح الحماسة ٢ : ٤٩١ ، وأنظر الابيات هناك .

ثم يصف حاله بأنه قليل النوم ، همه الثأر أو لقاء المحاربين الأبطال ، وهو قد ألف الوحش مبتعدا عن عالم الانسان ، جائعا هائما على وجهه وكيف أن الأغنياء يخافونه سواء كان وحيدا أو مع شيعته ، لأنه فتى قوي يخوض المعارك غير خائف من الموت الذي لا بد أن يأتي في يوم من الأيـام .

والذي يبدو أن هذه الحياة القاسية ، وهـذه الغربة الملعونة قـد جعلت هؤلاء الفقراء الصعاليك يتكتلون في مواجهـة قسوة المجتمـع والطبيعة ، انهم لا يسمحون للخلاف أن يدب بينهم ، وان أحدهم ليؤثر أن يضحي بكل ما يملك في سبيل الحفاظ على أصحابه وعـدم تمزيق وحدتهم . ولعل عروة بن الورد يكون مثالا في هذا المجال ، فهو يغزو ويقدم كل ما يحصل عليه لأصحابه وللفقراء من أبناء قومه ، ولقد غزا مرة فأصاب رزقا ، فخص نفسه بامرأة سباها وراحلة ، فلم يوافق صحبه على الراحلة فتركها لهم قائلا(١١٣) :

ألا إن أصحـاب الكنيف وجدتهـم
كمـا الناس لمـا أمرعـوا وتمولـوا

واني لمدفـوع الـيّ ولاؤهـم
بمـاوان اذ نمشي واذ نتملمَل(١١٤)

واني وإياهـم كـذي الأم أرهنـتْ
له مـاء عينيهـا تفـدّي وتحمـل

١١٣ ـ الأغاني ٣ : ٨٠ .

١١٤ ـ ماوان : موضع .

فباتت بحدّ المرفقين كلاهما

تُوَحْوح مما نالها وتولول

تُخَيَّرُ من أمرين ليسا بغبطة

هو الثكل الا أنها قد تجمّل

انها دعوة لمواجهة جماعية للغربة وأسبابها ، وان من يؤمن بضرورة تغيير واقع مزر يحياه . عليه أن يضحي في سبيل هذا التغيير . وهذا ما فعله عروة ، ولعل في سيرته وشعره الكثير الذي يؤيد ما ذهبنا اليه .

ولقد انكشف زيف المجتمع واضحا أمام الصعاليك . وعرفوا أنه قد اتخذ منهم موقفا سلبيا زاد من غربتهم ومن احساسهم بها . فهذا المجتمع يقف في الطرف الآخر من الصعلوك ـ الشاعر ، أية سبيل سلك ، وأية خطة اتبع ، وأية حال وصل اليها . فعروة بن الورد ـ مثلا ـ لم يكن غرابا ، ولا وضيع النسب فبحث له مجتمعه عن جوانب يزدريه من خلالها ويعزله ويحتقره ، فوجد أن أمه ليست من عبس فعيروه،ووجدوه اغتنى فعيروه ، وافتقر فعيروه ، وعيروه بشبابه ، وشيخوخته .... انهم متى شاؤوا عيروه (متى ما يشأ رَهْطُ امرىء يتَعَيَّرُ)[115] :

هم عيروني أنّ أمي غريبة ،

وهل في كريم ماجد ما يعيّر ؟

وقد عيروني المال . حين جمعته ،

وقد عيروني الفقر ، اذ أنا مقتر

---

١١٥ ـ عروة ص ٤٠ .

وعـيرني قومي شبابي ولمّتي

متى مـا يشـأ رهط امرىء يتعيّر

لهذا فقد كان دائما يحرص علـى السعي في سبيل الحياة . وهـو يحمل مفاهيم مختلفة عن مفاهيم مجتمعه . لقد أدرك عروة أنه بموقفه هذا أصبح معزولا عن مجتمعه . فهو يريد أن يثبت أنه أهل للحيـاة ، وأن يقطع الطريق على هؤلاء الناس الذين سيشمتون به عاجلا أو آجلا. انه يدعو الى مقارعة الحياة ، والحصول منها على ما يبتغيه المرء لأنه لابد أن يكبر ، ويقعد عن طلب الرزق والمغامرة ، فاذا به (رهينه قعر البيت، يطوف به الوالدان)[116]. هذا السعي الدائب وراء الحيـاة الكريمة يخلف وراءه نفسا مكلومة . لفظها المجتمع فخرجت تبحث عن تحقيق ذاتها من خلال السعي الدائم ، ومن خلال المقارعة المستمرة للحيـاة . ونظل مع عروة فاذا به يشكو لوم زوجه له . وطلبها منه الاقامة بينهم والاغتناء عن التطواف وهي لم تدر أنه انما يسعى لهـذا (يسعى لأن يقعد مرتاح البال والضمير . وموفور الكرامة)[117] :

أرى أمّ حسان الغداة تلومني

تخوفني الأعداء والنفس أخوف

تقول سليمى لو أقمت لسرنـا

ولـم تـدر أني للمقام أطوّف

لعل الذي خوّفتنا من أمامنـا

يصادفـه في أهلـه المتخلّف

---

١١٦ ـ أنظر أبيات عروة في الأغاني ٣ : ٨٢ ـ ٨٣ .

١١٧ ـ نفس المصدر ٣ : ٨٢ ، وأنظر أبياتا في هذا المجال لجابر بن ثعلب الطائي في شرح الحماسة ١ : ٣٠٤ . بل هي أبلغ في الدلالة .

ان تصويرهـــم لأنفسهم متقشفين ، قليلي النوم ، مستعدين للقتال دائما يعبر عمـا في أنفسهم من الخوف أولا ، ومن الشقاء ثانيا ، ومن الرغبة في أن يعيشوا كسائر الناس ثالثا ، بل انهم يدلون بآرائهم في كل صغيرة وكبيرة من شؤون الحياة .

وكأننا نحس أن هؤلاء ليسوا من ذاك المجتمع ، ولو لم تعرف عنهم شيئا أو عن حياتهم . وهذا عمرو بن براقة الهمداني[118] وهو يصف حاله فهو قليل النوم ككل صعلوك ، يسهر حين ينام (الخلي المسالم) أما هو فهو دائما في حالة الحرب ، ثم يعبر عن موقفه من الحيـاة بأن الانسان اذا امتلك قلبا شجاعـا وسيفا بتارا ، وأنفا حميا ، فانه يبعد الظلام عن حياضه ، وأن على الانسان أن يجمع المال بأسنة الرماح كي يعيش غنيا ماجدا أو انه يعيش عرضة للمذلة والهوان .

ألـم تعلمي أن الصعاليك نومهـم
قليـل اذا نـام الخليّ المسالـم

اذا الليل أدْجـى واكفهر ظلامـه
وصاح من الأفراط بوم جاثـم

. . . .

متى تجمع القلب الذكي وصارمـا
وأنفـا حميـا تجتنبـك المظالـم

---

١١٨ ـ الأمالي ٢ : ١٢٢ .

متى تطلبِ المـال الممنّع بالقنـا

تعش ماجدا أو تخترِ مـك المخارم(119)

واذا أردنا رؤية صورة لصعلوك فاننا يجب أن نرى الصورة التالية التي رسمها تأبط شرا ، ولعل في رؤيتها ما يغني عن الحديث عن صورة الصعلوك كما تجلت في الشعر الجاهلي ولعل فيها من الادانه للمجتمع الجاهلي ما يكفي لتوضيح صورة الغربة في نفوس هؤلاء الناس(120) :

اذا المرء لم يحتل وقد جـد جدّه

أضاع وقاسى أمره وهـو مدبِر

ولكن أخـو الحزم الذي ليس نازلاً

به الخطب الا وهـو للقصد مبصر

فذاك قريع الدهـر ما عاش حوّل

اذا سُدّ منه منخـر جاش منخـر

أقول للحيان وقـد صَفِرت لهم

وطابي(121)ويومي ضيّق الحجر مُعور(122)

119 ــ أنظر في الأغاني 21 : 128 ومـا بعد قصص عـدو تابط شرا ، واغاراته ، والحاح الناس في طلبه ، وهروبه الدائم ، والاغاني 14 : 144 وفيه خبر وشعر حول قيس بن الحدادية .

120 ــ شرح الحماسة .

121 ــ أشرفت على الهلاك .

122 ــ من العورة .

همـا خُطّتا إمّا إســارٌ ومِنّةٌ

وإمـا دم والقتل بالحُرّ أجـدر

وأخرى أصادي النفس عنها وانهـا

لمورد حـزم إن فعلـت ومصـدر

فرشتُ لها صدري فزلّ عن الصفا

به جُؤجـؤ عبـل ومتن مُخَصَّر

فخالط سهل الأرض لم يكدح الصفا

به كدْحةً والموت خزيان ينظـر

فأُبْتُ الى فَهْمٍ ولـم أكُ آيبـا

وكم مثلهـا فارقتُهـا وهي تصفر

وكان الصعاليك أباة يرفضون الهوان والضيم ، يرفضون ما فرضه مجتمعهم عليهم فهم لا يوافقون على سلوك مجتمعهم ومواقفه ، يثورون على الخلع والعبودية والفقر ، ويحتقرون الخانع الذي يقبل بمواضعات القبيلة ،وبأوضاعه الاقتصادية السيئة » وقد مر بنا خبر مقتل قيس بن الحدادية(١٢٣) وكيف رفض أن يستأسر وقاتل حتى قتل ، وصخر ألغي بلغه أن أناساً يعرضون على قتله فقال :(١٢٤)

فلست عبداً لموعديّ ولا ... أقبل ضيماً يأتي به أحـد

١٢٣ ـ الأغاني ١٤ : ١٦٠ .
١٢٤ ـ شعر الهذليين ١٨٠ ، وديوانهم ٢ : ٦١ .

وعروة بن الورد يلح على ضرورة السعي من أجل الحياة ، مفضلا الموت على الخنوع والفقر،والرحيل الدائم على القبوع في البيوت[١٢٥]:

اذا المرء لم يبعث سواما ولم يُرح
عليه ، ولـم تعطف عليـه أقاربـه

فللموت خـير للفتى مـن حياتـه
فقـيرا ، ومن مولى تدب عقاربـه

وسائلة : أين الرحيـل ؟ وسائل ،
ومن يسأل الصعلوك : أين مذاهبه ؟

مذاهبـه أن الفجـاج عريضـة ،
اذا ضنّ عنه ، بالفعـال ، أقاربـه

ويتوجـه باللـوم للفقراء الذين يقبعون بانتظار فتات الأغنياء ، ويقرعهم طالبا منهم السعي في سبيل الغنى والمجد ، ويقارن بينهم وبين من يشق طريقه في الحياة عزيزا باحثا عن أجمل صورة فيها[١٢٦] . وفي سنوات الجفاف لا يقعد الصعاليك عن السعي الدائم وراء العيش حتى يأتيهم الموت في عقر دارهم ، وانما يذهبون لملاقاته في ديار الآخرين . فاما أن يصيبوا بغيتهم ، والا فالموت حق ، وهـو مصيب كـل انسان لا محـالة . وترد في شرح الحماسة قصة حـول عروة بن الورد[١٢٧]

١٢٥ ــ ديوانا عروة والسموأل ص ١٩ .
١٢٦ ــ أنظر شعره في الأصمعيات ٣٨ وما بعد .
١٢٧ ــ شرح الحماسة ١ : ٤٦٤ .

ملخصها أنه « تتابعت على بعد سنوات جهدن الناس جهـدا شديدا ، وكانت غطفان من أحسن معد فيها حالا ، وترك الناس الغزو لجدوبة الارض ، وكان عروة في تلك السنين غائبا فرجع مخفقا قد ذهبت ابله وخيله ، وجاء الى قومه وقد عنن بعضهم عليه عنة ، فندب منهم رهطـا فخرجوا معه .... يريـد أرض قضاعة .... فمر بمالك بن حمـار الفزاري وقد نفد ما معه فقال له مالك : أين تنطلق بفتيانك هؤلاء تهلكهم ضيعة ؟ قال : ان الضيعة ما تأمرون به : أن أقيم حتى أهلك هزالا ... وقـال :

قلت لقوم في الكنيف تروّحـوا
عشية بتْنـا عنـد مـاوان رزّح

تنالوا الغنى أو تبلغوا بنفوسكـم
الى مستراح مـن حمـام مبـرّح

ليبلـغ عـذرا أو يصيب رغيبـة
ومبلغ نفس عذرهـا مثل مُنْجح

ولقد كان للصعاليك هـدف كبير في حياتهم يسعون اليه من وراء ثورتهم ، فعروة بن الورد ، في معرض حديثه عن أخلاقه ، يوضح هدفه في الحياة قائلا(١٢٨) :

إني امرؤ عـافي إنائيَ شركـة
وأنت امرؤ عافي إنائك واحـد

١٢٨ ـ الأغاني ٣ : ٧٤ ، وشرح الحماسة ٤ : ١٦٥٣ .

أتهزأ مني أنْ سمنتَ وأن ترى

بجسمي مسّ الحق ، والحق جاهد

أفرّق جسمي في جسوم كثيرة

وأحْسو قَراحَ الماء ، والماء بارد

ومالك بن الحارث أيضا يقول : انه لن يتوقف عن مساعدة الناس ولو ذهب ماله ، وضمنه الأرض تحتها ، وهو يرفض اللوم على فعاله ، وينتقد أولئك الذين يتملقون الأغنياء ، وان كانوا لا يستحقون مديحا ولا ثناء :

فلست بمنتصرٍ ما ساف مالي[١٢٩]

ولو عُرضت بلبّتي الرماح

ومن تَقْتُل حلوبته وينكل

عن الأعداء يغبقه القُراح

فلوموا ما بدا لكم فاني

سأعتبكم اذا انفسح المراح[١٣٠]

رأيت معاشراً يثني عليهم

اذا شبعوا وأوجههم قباح

١٢٩ ـ ماتت ابلي .

١٣٠ ـ حيث تروح الابل .

يظل المصرمون[131] لهم سجودا

ولو لم يُسق عندهم ضياح[132]

وتتجلى غربة الصعاليك في أوضح صورها وأمرها ، حين يذكرون أهلهم ، أزواجهم وأولادهم ، وقد تركوهم للفقر والمرض والتشرد . فتزداد غربتهم غربة ، وعذابهم عذابا ، وقسوة الحياة عليهم قسوة . فقد كان حبيب الأعلم مطرودا[133] ، ولعله كان في نعمان (واد خصيب) فذكر أولاده وهم بالعراء ، لا يملكون شيئا ، ولا يعطف عليهم أحد ، ولكنهم مع ذلك ينظرون الى من عسى أن يأتيهم من أقاربهم بشيء يقتاتون به :

وذكرتُ أهلي بالعـرا ء وحاجة الشُّعْثِ التوالب

المصرمين مـن التـّلا د اللامحيـن الى الأقـارب

وبجانبي نعمـان ، قلـــتُ ألـن يبلـّغني مـآرب

ويقع قيس بن عيزارة في يد فهم فيتذكر داره وقومه :[134]

سقى الله ذات الغمر وبْلاً وديمـة

وجادت عليه البارقـات اللوامـع

بما هي مِقْناة أنيق فباتُـها

مربّ فترعاهـا المخاض النوازع

---

١٣١ ـ الفقراء .
١٣٢ ـ لبن مخلوط بماء .
١٣٣ ـ ديوان الهذليين ٢ : ٨١ ، وشعر الهذليين ١٠٤ .
١٣٤ ـ ديوان الهذليين ٣ : ٧٩ ، وشعر الهذليين ٩٧ .

كأنْ يلنجوجا ومسكا وعنبرا

بأشرافه طلت عليه المرابع

ويشكون من تغير الدهر عليهم ، وانحطاطهم بعد عزة ، وهوانهم بعد رفعة ، وفقرهم بعد غنى ، فتزداد غربتهم ، ويزداد شعورهم بالمرارة. هذا أبو كبير عامر بن الحليس يقول لابنته[١٣٥] :

أزهيرُ إنْ يصبح أبوكِ مقصراً

طفلا ينوء اذا مشى للكلكل

يهدي العمودُ له الطريق اذا همُ

ظعنوا ويعمد للطريق الأسهل

فلقد جمعت من الصحاب سريّة

خُدْبا لدات غير وخش[١٣٦] سُخَّل[١٣٧]

وساعدة بن جؤية يذكر أنه كان له بيت فيه فرش ، وقدور ، وكان لديه لطائم ، وأموال ، وكان يعيش في حياة رغيدة ، ولهذا فهو يتحسر على تلك الأيام بعد أن افتقر وبعد أن أصبح بيته خرابا ، وحياته صعبة[١٣٨] :

---

١٣٥ ـ ديوان الهذليين ٢ : ٩٠ ، وشعر الهذليين ١٧٧ .

١٣٦ ـ الرذل .

١٣٧ ـ ضعاف .

١٣٨ ـ شعر الهذليين ٩٥ ، وديوانهم ٢ : ٢٢١ .

إنْ يكُ بيتي قشعة قــد تخذّمت

وغصنا كأنالشوك فيه المواشم[139]

فذلك ما كنا بسهلٍ ومــرةٍ

اذا مــا رفعنا شـــثة وصرائم[140]

فقد أشهــد البيت المعجّب زانــه

فراس وجـّدْر موجع[141] ولطائم

★ ★ ★

---

١٣٩ ــ الابــر .

١٤٠ ــ نبات وبيوت وابل .

١٤١ ــ غليظ . وأنظر لمعقل بن خويلد وقد عرض عليه أبرهة أن ينكحه يقعد عنده :

(شعر الهذليين ص ٢٦)

ألا من حَوال الدهر أصبحت جالسا

أُسام النكــاح في خزانــة مرثــد

دراسة غربـة الشنفرى

حدثتنا كتب الأدب عن الشنفرى حديثا مبتسرا ، بل ان بعض الرواة ينكر القصيدة اللامية[١٤٢] التي قالها . ويرى أنها مصنوعة ولكنها على الرغم من عـدم اللجـوء الى التحقيق قصيدة جاهلية ، وهي قصيـدة صعاليك ، وليس هناك ما يمنع أن تكون للشنفرى .

فحياة هذا الرجل غربة متواصلة ، وقد مـر بنا كيف نشأ في غـير أهله . بعد أن سبي أبوه ، وكيف احس بمرارة غربته وهو بعد صغير ، حين اكتشف أنه ليس من القوم الذين يحيا بينهم ، وبدأت غربته الثانية حين قرر أن يتصعلك وأن ينتقم من المجتمع الذي حرمه حقوق الحياة. ونحن هنا لسنا بصدد دراسة حياته وشعره . وانما نعنى بالجوانب التي تؤكد غربته والتي وضحت صورتها جلية من خـلال لاميته التي هي موضوع دراستنا وقد حظيت اللامية بدراسات مطولة ، بعضها تناول الجانب الذي نريد ولكنه لم يوضح الصورة ، ففي القصيدة صرخات احتجاج على الواقع الطبقي الذي عاشه الشاعر مع أمثاله من الصعاليك وعلى الواقع الاجتماعي الذي قدس رابطة العصبية ، متجاهلاً الرابطة الانسانية . وفيها دعوة سبقت (الرومانتيه) بمئات السنين الى هجران مجتمع الانسان الى مجتمع الصحراء والحيوان . كما أن فيها دعوة الى

---

١٤٢ ـ مختارات ابن الشجري ١ : ١٨ وما بعد ، وذيل الأمالي والنوادر، ص ٢٠٣ وما بعد .

الأنفة والكرامة التي تمثل جانبا كبيرا من خلق العربي . وقد تناسى بعضهم هذا الخلق ، فقسا على هؤلاء الفقراء والصعاليك ، فجعلهم يهيمون على وجوههم بلا معين ، متجاهلين قيم المجتمع الذي رفضهم . داعين الى مجتمع جديد تلغى فيه الفروق الطبقية والاجتماعية ، مجتمع يفضل أن يحيا كريما جائعا على أن يقبل المذلة مع الغنى .

والذي يلفت النظر أن الشنفرى يهاجم المجتمع هجوما مرا ، منذ مطلع القصيدة .

فمن الناحية الفكرية ، يخالف الشاعر العرف الطبقي حين يتجه بحديثه الى بني أمه ، فقد رفضه بنو أبيه . وهو لهذا يرفضهم ويعبر عن التصاقه بأمه متحديا أعرافهم .

ومن الناحية الفنية ، يخالف الشاعر عادة الشعراء الجاهليين في الوقوف على الأطلال ، والغزل ، والظعائن .... الخ . واذا كان في حياة الشاعر ما يدعو الى هذه المخالفة ، فان هناك أشياء نفسية تدفعه الى عدم الالتزام بطريقتهم الفنية ، والخروج على أعرافهم جميعها

أقيموا بني أمّي صدور مطيّكم
فاني أهل سواكم لأميل

فقد حُمت الحاجات والليل مقمر
وشُدت لطيات(١٤٣) مطايا وأرحل

وفي الأرض منأىً للكريم عن الأذى
وفيها لمن خاف القِلى مُتَحول

١٤٣ ــ حاجات .

لعمركَ ما بالأرض ضيقٌ على امرىء

سرى راغبا أو راهبا وهـو يعقل

انه يعلن خروجه على الناس (القبيلة) ويعتبر أن وطنـا وأهـلا لا يضمون بين جوانحهم محبة للشاعر . ولا يؤمنون له حياة كريمه ، لا يستحقون البقاء بينهم ولا العيش معهم • وأرض الله واسعة ، فمن خاف اهانة أو بغضا فعليه بالاغتراب في جنبات الأرض الواسعة المترامية الأطـراف •

ولي دونكـم أهلـون سِيدٌ عملّس[144]

وأرقط زهلول[145] وعرفـاء جيـأل[146]

هـم الرهطُ لا مستودع السـر شائـع

لديهـم ولا الجـاني بمـا جرَّ يخـذل

انه يوضح انتماءه الجديد اذا . الى عالم الحيوان ، فحين عجز عن التلاؤم مع محيطه لجـأ الى عالم الوحوش : الذئب . والنمر ، والضبع هم (الرهط) وهؤلاء يمتازون عن عالم الانسان بأنهم لا يفشون سـر الصاحب . واذا ما ارتكبت جنايه فان الجاني لا يخذل[147] •

وكـل أبـيٌ باسـل غـير أنني

اذا عرَضت إحدى الطرائد أبسَل

---

١٤٤ ــ ذئب سريع •

١٤٥ ــ نمر أملس •

١٤٦ ــ ضبع •

١٤٧ ــ نرى هنا ، اشارة الى الخلع الذي يجنيه من يرتكب جناية في قومه، في عرف القبيلة •

وان مُدّت الأيدي إلى الزاد لم أكن

بأعجلهم اذ أجشع القوم أعجل

وما ذاك الا بسطة عن تفضّل

عليهم وكان الأفضل المتفضّل

وهنا كما نرى يبدأ بتعداد مزاياه التي يعتبرها كما رأينا عند غيره المزايا البديلة التي يدعو اليها الصعاليك ويدافعون عنها والشجاعة هي القيمة الاولى التي يدعو اليها الشاعر والعفة هي القيمة الثانية ، الشجاعة ضرورة لمواجهة قسوة المجتمع والصحراء . أما العفة فهي ، على الرغم من الجوع ، دلالة على الكرامة ورفض الذل ، بل انه يصرح بأنه أفضل من أناس قبيلته .

واني كفاني فقدُ من ليس جازيا

بحُسنى ولا في قربه متعلّل

ثلاثة أصحاب : فؤاد مشيّع[148]

وأبيض إصليت[149]، وصفراء عيطل[150]

هتوف[151] من الملْس المتان يزينها

رصائع[152] قد نيطت اليها ومحمل

---

١٤٨ ـ مقدام .
١٤٩ ـ مجرد .
١٥٠ ـ قوس قوية .
١٥١ ـ رنانة .
١٥٢ ـ زينة للقوس .

اذا زلّ عنها السهم حنّت كأنها
مرزّأة ثكلى ترنّ وتعْوِلُ

ويستعيض الشاعر عن الناس ، الذين لا يجزونه بحسنى ، ولا يجد في قربهم الفائدة ، بثلاثة أصحاب : قلب مقدام ، وسيف مجرد ، وقوس قوية . ثم يصف قوسه وصفا تفصيليا ، هؤلاء الأصحاب ، هم الأصحاب الحقيقيون ، وهم الذين يقفون الى جانب الشاعر في أوقات الشدة ، حين يتخلى عنه الناس ، بل يكونون أعداء يشنون الغارات عليه وعلى أصحابه .

ولستُ بمهياف(١٥٣) يعشّي سوامه
مجدّعة سُقبانها(١٥٤) وهي بُهّل(١٥٥)

ولا جُبّأٍ(١٥٦) أكهى(١٥٧) مربٍّ بعرسه(١٥٨)
يطالعُها في شأنه كيف يفعل

ولا خَرِقٍ هَيْقٍ(١٥٩) كأن فؤاده
يظل به المكّاء يعلو ويسفل

---

١٥٣ ـ الذي يبعد ابله عن المرعى فتعطش .

١٥٤ ـ سيئة الغذاء أولادها .

١٥٥ ـ ناقة بلا صوار ولا خطام .

١٥٦ ـ جبان .

١٥٧ ـ أكلف الوجه .

١٥٨ ـ مقيم عندها .

١٥٩ ـ الدهش النافر من الخوف .

ولا خالف[160] داريّة[161] متغزّل

يروح ويغدو داهنا يتكحل

ولست بكلّ[162] شره دون خيره

ألفّ[163] اذا ما رُعْته اهتاج أعزل

ولست بمِحْيار[164] الظلام اذا نَحَتْ

هُدى الهوجلِ[165] العسّيف[166] يهماءُ هوجل[167]

والذي يلاحظ في الأبيات السابقة أن الشاعر يعدد مزاياه أيضا ، ولكن من خلال اشارات الى مسائل تؤكد على كرمه ، وخشونته . فهو يرفض أن يقوم بتصرفات تنقص من رجولته . ولعل في هذا اشارة الى خشونة عيشه في صحرائه ، فهو ليس ممن يلزمون الزوجات ، وليس ممن يتزينون ويترفون ، وانما هو على النقيض من كل هذا خيره مقدم على شره . وكرمه على الضيف بيّن . وثباته في ساحة الحرب واضح . المهم أن الشاعر يريد ان يميز نفسه وصعاليكه من بقية الناس ، وفي هذا من الدلالة على غربته ما فيه . اذ أنه يخص نفسه وصعاليكه بخصائص تميزهم من مجتمعهم .

---

١٦٠ ـ لا خير فيه .
١٦١ ـ لا يفارق داره .
١٦٢ ـ مسن صغير الجسم .
١٦٣ ـ لا غناء عنده للحرب والضيف .
١٦٤ ـ متحير .
١٦٥ ـ الرجل الطويل .
١٦٦ ـ المعتسف .
١٦٧ ـ فلاة لا أعلام بها .

اذا الأمعز الصوان[١٦٨] لاقى مناسمي
تطاير منه قادح ومفلّل[١٦٩]

أديم مطال الجوع حتى أميتَه
وأصرف عنه الذكر صفحاً فأذهل

وأستفّ ترْب الأرض كي لا يرى له
عليّ من الطّول[١٧٠] امرؤ متطوّل

ولولا اجتناب الذامّ لم يبق مشرب
يعاش به الا لديّ ومأكل

ولكن نفسا حرة لا تقيم بي
على الضيم الا ريث ما[١٧١] أتحول

وأطوي على الخمْص الحوايا[١٧٢] كما انطوت
خُيوطَةُ ماريّ تُغار وتُفتل

وأغدو على القوت الزهيد كما غدا
أزلّ[١٧٣] تهاداه التنائف[١٧٤] أطحل

---

١٦٨ ـ الحصى الملساء الصلبة .
١٦٩ ـ مكسر .
١٧٠ ـ المن .
١٧١ ـ بقدر ما .
١٧٢ ـ الأمعاء .
١٧٣ ـ الذئب .
١٧٤ ـ المفاوز .

غـدا طاوياً يعتن[175] للريح هافيا[176]
يخوت[177] بأذناب الشعاب ويعسل[178]

وآلف وجـه الأرض عنـد افتراشهـا
بأهـدأ[179] تـنْـبيه سناسِنُ قُحَّل[180]

. . . .

وان كان الشنفرى قد ألف الوحوش فان جسمه قد قوي واشتد مثلها . فالذي يعيش في الصحراء ، عليه أن يتكيف وأجواءها القاسية ، فالحصى يتطاير تحت قدميه أثناء جريه متكسرا محدثا شررا[181] . وهو قد تعود الجوع فقهره وبلغ من الأنفة أنه يستف تراب الأرض ، ولا يسمح لأحد أن يذله ، وتأكيد الشاعر على الصبر وتحمل الجوع والمشقة واتحاده بالأرض حتى كأنه جزء منها يدل دلالة أكيدة على أن الشاعر قد قرر نهائيا أن يعيش خارج اطار المجتمع القائم مغتربا اغترابا دائما فهو يكون لنفسه مجتمعا بديلا يألف كل شيء فيه حتى قسوته . ذلك لأن قسوة المجتمع أصعب عليه من قسوة الصحراء ووحشها .

ويستمر الشاعر على هـذه الوتيرة ، فهو يسخر من الحرب ، ولا يخافها فهي تلاحقه دائمـا بجناياته ، كما تلاحقه الهموم التي تعتـاده كالحمى . فهو دائما في حـالة حرب ، ولا يدري من أين يأتيه الموت ،

---

١٧٥ ـ يعارض .
١٧٦ ـ مسرعـا .
١٧٧ ـ ينقض .
١٧٨ ـ يسرع .
١٧٩ ـ يعني منكبه .
١٨٠ ـ فقار الظهر اليابسة .
١٨١ ـ نلاحظ استعماله لكلمة « مناسمي »

ويعود الى تصوير قسوة حياته ، هذا الالحاح الدائم يدل دلالة غير مباشرة على ضجره من هذه الحياة . ولكن ليس الضجر الذي يدفع به لقبول المجتمع الذي تركه . هو دائما بين فقر وغنى ، وهو دائما بين حر النهار وقر الليل بين الجوع الدائم والشبع القليل ، ولكنه لا يصوغ كلامه بطريقة الشكوى ، وانما هو يقرر الوضع البائس الذي عاشه الصعاليك . ونصل الى آخر القصيدة فنجد الشاعر يعود الى أهله الجدد وقد ألفوه وألفهم : فالأراوى تذهب وتجيء من حوله وقت الأصيل وكأنه ذكرهن وهو يصعد الجبل العالي بهن في صورة يعجز النثر عن ترجمتها وتمثلها ، ولكن لها من الدلالة الشيء الكثير ، فالحيوانات لا تألف الانسان ، فهي حين تألف الشاعر ، على الصورة التي رسمها ، فان هذا يعني اتحاده بها واتحادها به ، ويعني أيضا أن مجتمع الغربة هذا قد أصبح المجتمع البديل للشاعر :

تروذُ الأراوى الصُّحْمُ[183] حولي كأنها
عذارى عليهن الملاء المذيَّل

ويركُدنَ بالآصال حولي كأنني
من العُصْمِ أدفى[184] ينتحي الكَيحَ[185] أعقَلُ[186]

* * *

١٨٢ ـ يقصد حيوان البراري .
١٨٣ ـ انثى الوعول سوداء خالطتها الصفرة .
١٨٤ ـ وعل طويل القرنين .
١٨٥ ـ عرض الجبل .
١٨٦ ـ الممتنع في الجبل العالي .

٤ ـ الأسير والسجين

في المخصص[١٨٧] : أصل الأسير أنه ربط بالقد فأسره : أي شده • فاستعمل حتى صار الأخيذ : الأسير •

والأسر يأتي نتيجة للغزو الذي كانت غايته الاستيلاء على أكبر قدر من الغنائم والأسرى • فان كانت الحرب أخـذا بالثأر قتل الأسرى في الغالب . والا احتفظوا بهم طمعاً في الفدية •

وكان الأسير في عداد العبيد[١٨٨] . فقد أسر زيد الخيل جماعة من بني عامر وحلفائهم ، منهم الحطيئة الشاعر . ثم منّ عليه وأطلقه وقال :

أقول لعبدي جرول إذ أسرته   أثبني ولا يغررك أنك شاعر

ويحرص الآسر على اذلال أسيره بجز ناصيته قبل اطلاقه . لتكون بمثابة وثيقة في يده . يبرزها عند الفخر أو طلب الجزاء[١٨٩] •

وكان العرف القبلي يقتضي افتداء القبيلة أسراهـا . فان لم تفعل لهوان الرجل عليها •••• أصبح الأسير عبداً لآسره • وفي بعض الأحوال كان الأسرى يتعرضون للقتل ، وذلك حين يكون للقبيلة الظافرة ثـأر

---

١٨٧ ـ ص ٩٧ •
١٨٨ ـ أنظر الأغاني ١٦ : ٥٤ •
١٨٩ ـ أنظر العصبية القبلية ص ٨٤ •

عند قبيلة الأسرى صنيع بني أشجع ببني عامر يوم الرقم . .... (ذبحوا منهم سبعين أسيرا)[١٩٠] .

ونأتي الآن الى الأسير . وقد وقع في أيدي أعدائه . فهو بينهم غريب ، ولكن ليس غريبا عاديا . وانما يعيش قلقا منتظرا ساعة قتله ، أو هو يترقب بشوق من يفتديه ، أو يمن عليه فيطلقه . وسنسوق فيما يلي شعرا نوضح من خلاله غربة الأسير . وفظاعة الحياة التي كان يحياها بين أعدائه . فحين أسر الشنفرى[١٩١] من قبل أسيد بن جابر السلاماني وخازم الفهمي ونفر معه وأخذوه الى أهلهم . « وقالوا له : أنشدنا ، فقال : انما النشيد على المسرة . فذهبت مثلا ، ثم ضربوا يده فتعرضت . (أي اضطربت) فقال الشنفرى في ذلك :

لا تبعدي إمّا ذهبت شامه   فربّ واد نفرت حمامُه

ورب قِرْنٍ فُصلت عظامُه

ثم قال له السلامي : أأطرفك ؟ ثم رماه في عينه فقال الشنفرى له : كأنا كنا نفعل (كذلك كنا نفعل) ..... ثم قالوا له حين أرادوا قتله : أين نقبرك ؟ فقال :

لا تقبروني إنّ قبري محرّم   عليكم ولكنْ أبشري أمّ عامر

وهذا قيس بن عيزارة يقول حين أسرته فهم[١٩٢] وأخذ سلاحه تابط شرا :

---

١٩٠ ـ نفس المصدر ص ٨٣ .

١٩١ ـ الأغاني ٢١ : ١٨١ وما بعد ، وشرح الحماسة ٢ : ٤٨٧ ومابعد .

١٩٢ ـ ديوان الهذليين ٣ : ٧٦ وما بعد .

لعمرك أنسى[193] روعتي يوم أقتد
وهل تتركن نفسَ الأسير الروائعَ

غداة تناجوا ثم قاموا فأجمعوا
بقتليَ سلكى[194] ليس فيها تنازع

وقالوا عدوٌ مسرف في دمائكم
وهاجٍ لأعراض العشيرة قاطع

فسكنتهم بالقول حتى كأنهم
بواقر جلح[195] أسكنتها المراتع

وقلت لهم شاء رغيب[196] وجامل[197]
وكلكم من ذلك المال شابع

وقد أمرتْ بي ربتي أم جندب[198]
لأُقتل لا يسمعْ بذلك سامع

تقول اقتلوا قيسا وحزّوا لسانه
بحسبهم أن يقطعَ الرأس قاطع

١٩٣ ـ لا أنسى ·
١٩٤ ـ مجتمعين ·
١٩٥ ـ بقر لا قرون لها ·
١٩٦ ـ كثير ·
١٩٧ ـ جمال ·
١٩٨ ـ زوج تأبط شرا ·

فهو يصرح بالخوف الذي أخذ منه كل مأخذ ، ثم يصور كيف كانوا يتهامسون من حوله ، ويتفقون على قتله ، متذكرين فعاله فيهم ، وكيف كان يمنيهم بالفداء ويعرض عليهم كل ماله ، ولكن أنى له هذا وقد وقع في أيديهم ، وماذا يصنع وهو غريب بينهم مقيد لا يملك من أمر نفسه شيئا .

وكانوا يذكرون الاهانة التي يلقونها في أشعارهم ، ويعلنون تبرمهم بهذا الذي آلوا اليه ، فهم قد أعرضوا عن كل شيء منتظرين ساعة الخلاص بفداء أو بموت : هذا شبيب بن البرصاء(١٩٩) يرى الأسرى يفادون من حوله وهو موثوق . فلا هو يقتل فيرتاح ، ولا هو يفدى فيتخلص من وثاقه :

سلا أمَّ عمرو فيم أضحى أسيرها
يُفادى الأسارى حوله وهو موثق
فلا هو مقتول ففي القتل راحة
ولا مُنعم يوما عليه فمُعْتَق

وهذا مهلهل يقع أخيرا في أيدي بني قيس بن ثعلبة بعد اغارة على بني بكر ، فيعلن رفضه الحب والحياة ، بل انه لا يقبل عيشا بعد أن مات صحبه ، وهو مغلول في وثاقه :

طفلة ما ابنة المجلّل بيضا ... ء لعوب لذيذة في العناق
فاذهبي اليك غير بعيد ... لا يؤاتي العناق مَن ْفي الوثاق

. . . .

١٩٩ ـ أنظر الأغاني ١٢ : ٢٥٣ .

ما أرجّي العيش بعد ندامايَ أراهم سُقوا بكأس حلاق

ولقد هزئت امرأة بقبيصة بن كلثوم السكوني أن رأت في جيده الأغلال فعبر عن الأسى الذي خلفه هزؤها في نفسه[200] :

هزئتْ جارتي وقالت عجيبا إذ رأتني في جيديَ الأغلال

وتصل بهم الأمور أن يستغيثوا بآسريهم ، على الرغم عما في الاستغاثة من مذلة . فقد أسر حنظلة بن عمار ، جويرية بن بدر ، ولم يزل في الوثاق حتى رآهم ذات يوم قد قعدوا شربا ، فأنشأ يتغنى رافعا عقيرته[201] :

وقائلة ما غاله أنْ يزورَنا

وقد كنتُ عن تلك الزيارة في شغل

وقد أدركتني والحوادث جمة

مخالب قوم لا ضعاف ولا عزل

سراع عن الجلّى بطاء عن الخنا

رزان لدى الباذين في غير ما جهل

---

٢٠٠ ـ نفس المصدر ١٣ : ٣ ، وأبو النشناش (الأغاني ١٢ : ١٧١) يرد على امرأة سخرت به قائلا :

كأن لم تريْ قبلي أسيرا مكبّلا ولا رجلا يرمى به الرجوان

(أي استهين به) .

٢٠١ ـ الأمالي ١ : ٦ ، وأيام العرب في الجاهلية ص ١٧٣ .

لعلهم أن يُمطروني بنعمةً

كما صاب ماء المزن في البلد المَحْل

فقد ينعش الله الفتى بعد عثرة

وقد تبتني الحسنى سراة بني عجل

انه يمدح من آسره ، أعداءه . وهذا دليل الحاجة . والضنك الذي وقع فيه ، وهو يريد منه خلاصا .

بل ان بشر بن أبي خازم يصرح أنه سيبقى مدينا لآسره أوس ابن حارثة ما عاش ، وسيظل يشكر نعمته عليه . وهو يفديه بكل عشيرته ويعلن خوفه من آسره ، ويمتدح أياديه البيضاء عليه(٢٠٢) :

إنّي لأرجو منك يا أوس نعمة

واني لأخرى منك يا أوس راهب

فهل نافعي في اليوم عندكَ أنني

سأشكر إنْ أنعمتَ والشكر واجب

تداركني أوس بن سعدى بنعمة

وقد أمكنته من يديّ العواقب

ويبلغ التذلل والخضوع بعبيد بن الأبرص مبلغهما حين يبكّي أسرى قومه أمام حجر الكندي آسرهم(٢٠٣) فهو يعلن توبته وتوبة قومه ،

---

٢٠٢ ــ الشعر والشعراء ٨٦ ، أيام العرب ١٣٨ .

٢٠٣ ــ الأغاني ٩ : ٨١ .

ويصور لهم البؤس الذي يعيش به نساؤهم وأطفالهم من بعدهم ، ويطلب عفوه عن عبيده ، فهم العبيد وهو الملك ، وهم مستعدون لتأديب الملك لهم بالسوط ، كما يؤدب البعير المربوط من أنفه :

ياعينُ فابكي مـا بني ... أسد فهم أهل الندامـه
في كـلّ واد بين يثـربَ فالقصـور الى اليمامـه
تطريبُ عانٍ أو صياح ... محرّق أو صوت هامـه
ومنعتـَهم نجـداً فقد ... حلوا على وجَلٍ تِهامه

• • • • • • • •

إما تركتَ تركتَ عفواً ... أو قتلتَ فـلا ملامـه
أنتَ المليكُ عليهمُ ... وهم العبيد الى القيامـه
ذلّوا لسوطِك مثلمـا ... ذلّ الأشيْقرِ ذوالخزامه

وربما استغاثوا بسيد من أسياد العرب ، كما فعل الأعشى ، فقد هجا رجلا من كلب ، فأغار الكلبي على قوم ، وفيهم الأعشى وهـو لا يعرفه ، ثم جاء حتى نزل بشريح ابن السموأل .... فمر شريح بالأعشى فناداه :(٢٠٤)

شريحُ لا تتركنيّ بعد مـا علقتْ
حبالـَك اليوم بعد القِـدّ أظفـاري

٢٠٤ ـ الأغاني ٩ : ١١٨ ، وشعراء النصرانية ٣٦١ ، وأنظر في الأغاني شعرا لرجل قاله ويزيد بن عبد المدان عند ابن جفنة (والرجل أسير ابن جفنة) فعندما سمعه يزيد ، استدعاه ..... القصة والشعر في ١٢ : ١٥ .

قد جلتُ ما بين بانِقْيا الى عدَنٍ

وطال في العَجْم تَردادي وتسياري

ثم يمدحه ووالده . فيطلب شريح من الكلبي تسليمه أسيره ، فيأخذه فيطلقه . ويسرف الآسر في اهانة أسيره ، وتعريضه للخطر . ويوقعه في ضنك شديد . فيضطر الآخر الى الاستجداء والبكاء والتذلل والخضوع فهو يمد يده الى كل من يراه طالبا الرحمة ، ويستجير بكل عابر سبيل . ففي الأغاني(٢٠٥) أن خزاعة أغارت على اليمامة فلم يظفروا منها بشيء ، فهزموا وأسر منهم أسرى . فلما كان أوان الحج ، أخرجهم من أسرهم الى مكة في الأشهر الحرم ليبتاعهم قومهم ، فغدوا جميعا الى الخلصاء ، وفيهم (قيس بن الحدادية) ، فأخرجوهم وحملوهم ، وجعلوهم في حظيرة ليحرقوهم . فمر بهم عدي بن نوفل . فاستجاروا به ، فابتاعهم وأعتقهم ، فقال قيس :

دعوتُ عديّاً والكبول تكبّني

ألا ياعديُّ ياعديُّ بن نوفل

دعوت عدياً والمنايا شوارع

ألا ياعدي للأسير المكبّل

وحين تشتد الكربة بالأسير فانه يبحث عمن يبلغ رسالة الى قومه يخبرهم فيها أن صاحبهم واقع في الأسر ، وأن عليهم أن يفتدوه ، فانه يتعرض عند آسريه لشتى صنوف الاهانة والسخرية والتعذيب . وغالبا ما يذكرهم بفعاله الحسنة أو بشجاعته النادرة وبوقوفه الى جانب قومه

٢٠٥ ـ ١٤ : ١٥٣ .

في الملمات فكيف يسكتون على أسره ، وكيف يتركونه ملقى في أيدي أعدائه ضائعا غريبا ؟ • فقد روى ابن الكلبي عن أبيه[٢٠٦] أن قيسبةابن كلثوم السكوني كان ملكا يمنيا ، وأنه خرج للحج فأسره بنو عامر ابن عقيل وأخذوا ماله ، ومكث ثلاث سنين ، وأشيع في اليمن أن الجن استطارته ، ومر به أبو الطمحان القيني ، فقص عليه قصته ، وكتب على آخر راحلته :

بلّغا كندة الملوك جميعاً
حيث سارتْ بالأكرمين الجمالْ

أن رِدوا العين بالخميس عجالاً
واصدروا عنه والروايا ثقالْ

هزئت جارتي وقالت عجيبا
إذْ رأتني في جيدي الأغلالْ

إنْ ترَيني عاري العظام أسيرا
قد براني تضعْضُعٌ واختلالْ

فلقد أقدم الكتيبة بالسيف عليَّ السلاح والسربالْ

والأسر كربة وغربة ومشقة لا مثيل لها ، لكنه يصبح جحيما لا يطاق حين يكون الأسير جارا لقوم ، فيفتدي القوم أسراهم ، ويتركون جارهم يعاني آلام الأسر ، مضيفين الى غربته غربة جديدة • فقد كان

٢٠٦ ــ الأغاني ١٣ : ٣ •

رجلان مجاورين في ذبيان فأغــار قوم على بني ذبيان فأسروا أحــد الرجلين[٢٠٧]. فافتدى الذبيانيون أسراهم وتركوا جارهــم فاستغاث أخوه بوجوههم فلم يغيثوه ، فأتى منازل مذجج ليلا فنادى :

دعوتُ سناناً وابن عــوف وحارثاً

وعاليت دعوى بالحصين وهاشم

أعيِّرهــم في كــل يــوم وليلــة

بترك أســير عند قيس بن عاصــم

فياليتَ شِعْري مَنْ لاطلاق غلّة

ومَنْ ذا الذي يحظى بــه في المواسم

وكان الشاعر الجاهلي يتذكر أهله وموطنهم أيام بعده عنهم ، ولا تهــدأ له نفس الا بلقائهم . فكيف حاله حين يكون أسيرا ؟ ان غربــة الأسر تكون هنا عامــلا مضاعفا لغربة البعد عن الأهــل والوطن ، ان غربته هذه ستؤجج نار الغربة الأولى ، فهو يذكر أهله ويتصور حزنهم عليه ، ويدعو لوطنهم بالسقيا وينتظر اليوم الذي يفك فيه أسره ، كي تنتهي غربته ويعود اليهم :[٢٠٨]

وقــال نســاء لو قتلن لساءنــا

سواكنّ ذو الشجو الذي أنا فاجع[٢٠٩]

---

٢٠٧ ـ نفس المصدر ١٢ : ١٧ .

٢٠٨ ـ ديوان الهذليين : ٣ : ٧٧ وما بعد ، وشعر الهذليين ٩٧ ، والشعر لقيس بن عيزارة قاله حين وقع في يد فهم أسيرا .

٢٠٩ ـ يطلب من نساء آسريه أن لا يبكين ، لأن هناك من هم أهل بهذا ، فاهله هم الذين يبكونه .

رجـــال ونسوان بأكناف رايــة

الى حُثُش ثَمَّ العيون الدوامــع

سقى الله ذاتَ الغَمْر وبْلا وديمة

وجادت عليهــا البارقات اللوامــع

ويمكن أن نعتبر قصيدة عبد يغوث التالية نموذجا فــذا لقصيدة الأسر فهي تتحدث عن قصة أسر عبد يغوث وعن معاناته في أسره ، ثم موته على يــد آسريه :(٢١٠) فقد جمعت مذجج جموعها وأحلافهــا في جيش عظيم • وساروا يريدون بني تميم ، فوقعت بينهم وقعة الكلاب الثاني ، فهزمت اليمانية ، وقتل من الفريقين ••••• وأسر عبد يغوث . وكان قائد قومه مذجج ، وأراد أن يفدي نفسه ، وكان رجل عبشمي قد أسره ، وكان أهوج ، فقالت له أمه ــ ورأت عبد يغوث عظيما جميلا جسيما ــ : من أنت ؟ قال : أنا سيد القوم • فضحكت وقالت قبحك الله من سيد قوم حين أسرك هذا الأهوج • فقال عبد يغوث :

وتضحكُ مني شيخة عَبْشَمِيَّة

كأنْ لم تَرَيْ قبلي أسيرا يمانيــا

ثم قال لها : أيتها الحرة ، هل لك الى خير ؟ قالت : وما ذاك ؟ قال : أعطي ابنك مئــة من الابــل وينطلق بي الى الاهتم ، فاني أتخــوف أن تنتزعني سعد والرباب منه ، فضمن له مئة من الابــل •••• فقبضهــا العبشمي ، فانطلق به الى الأهتم فقال عبد يغوث :

---

٢١٠ ــ أنظر المفضليات ١ : ١٥٣ ومــا بعد ، والأغــاني ١٦ : ٣٣٣ ، وشعراء النصرانية ٧٨ وما بعد ، وذيل الأمالي ١٣٢ ، وأيام العرب ١٢٩ •

أأهتمُ يا خير البريّة والِدا

ورهطاً اذا ما الناس عدوا المساعيا

تدارك أسيراً عانياً في بلادكم

ولا تثقفنّي التيم ألقى الدواهيا

فمشت سعد والرباب فيه . فقالت الرباب : يابني سعد ، قتل فارسنا ولم يقتل لكم فارس مذكور ، فدفعه الأهتم اليهم . وكانوا قد شدوا لسانه لئلا يهجوهم ، فلما لم يجد من القتيل بدا طلب اليهم أن يطلقوا لسانه ، ليذم أصحابه وينوع على نفسه ، وأن يقتلوه قتلة كريمة . فأجابوه ، وسقوه الخمر وقطعوا له عرقا يقال له الأكحل ، وتركوه ينزف حتى مات ، فقال قصيدته هذه حين جهز المقتل :

ألا لا تلوماني كفى اللوم ما بيا

فما لكما في اللوم خير ولا ليا

ألم تعلما أنّ الملامة نفعها

قليل ، وما لومي أخي من شماليا

فيا راكبا إمّا عرضتَ فبلّغَنْ

نداماي مِنْ نجران ألاّ تلاقيا

. . . .

جزى الله قومي بالكلاب ملامةً

صريحهم والآخرين المواليا

الشاعر وقد أحس أن النهاية قد قربت ، وأنه لا ينفع بعدها نافع ، قرر ألا يلوم أحدا ولا يلومه أحد وألا يذم أخا ، ولا يعاتبه لأن أخلاقه تمنعه عن هذا اللوم من ناحية . ومن ناحية ثانية فانه أيقن بالهلاك فلا داعي إذاً لهذا اللوم • ويرسل الى قومه أنه قد هلك بين أيدي أعدائه ، وأنه مفارقهم مفارقة أبدية . ولكن لابد للنفس الانسانية من التعبير عما في داخلها ، فالشاعر على الرغم من شعوره بأنه قد انتهى ، وتصريحه بعدم جدوى اللوم ، فانه لابد أن يتوجه باللوم . فان قومه قد أسلموه في المعركة ، صريحهم ومولاهم ، ولو شاء ، كما قال من بعد ، لنجا بفرسه ، ولكنه يدافع عنهم ويحمي ذمارهم في ساحة الوغى ، وهو يقف حين تشتد المعركة ، ويفر الرجال :

ولو شئتُ نجّتني من الخيل نَهْدَةٌ
ترى خلفها الحوَّ الجياد تواليا

ولكنني أحمي ذمار أبيكم
وكان الرماحُ يختطفْنَ المحاميا

وينتقل الى وصف حاله في أسره ، فأعداؤه كانوا قد شدوا لسانه كي لا يهجوهم ، فهو يطلب منهم أن يطلقوا لسانه . ويتذلل اليهم وهو قائد عزيز ، ولكنها غربة الأسر ، ويطلب منهم أن يقبلوا فداءه فان أخاهم لم يكن يساويه :

أقول وقد شدّوا لساني بنسْعة :
أمعشرَ تَيْمٍ أطلقوا مِنْ لسانيا

أمعشر تَيْم قد مكتمْ فأسجحوا

فانّ أخاكم لم يكن من بوائيا

فان تقتلوني تقتلوا بي سيّداً

وانْ تطلقوني تحربوني بماليا

ثم يعود الى نفسه فيتساءل بلوعة وأسى أحقا أنه سيموت ، أحقا أنه لن يسمع نشيد الرعاة يتردد في جوانب الصحراء ، انه هنا أمام الموت . ينتقل من غربة الى أخرى ، بعد عن الأهل والوطن ، وأسر في أيدي الأعداء . ثم موت هو غربة أبدية لا يشاركه فيها أحد .

أحقاً عباد الله أنْ لستُ سامعاً

نشيدَ الرعاة المعزبين المتاليا

ويصور غربته بمرارة وأسى بالغين . فهذه العجوز العبشمية تضحك منه ، كيف لهذا القائد الكبير أن يقع أسيراً في يد ابنها الأهوج ؟

وتضحك مني شيخة عبشمية

كأن لم ترَيْ قبلي أسيرا يمانيا

ويعود الى الماضي فيذكر بطولاته وكرمه وطربه .... ويحار من حاله الآن وكأنه ليس ذاك الذي كان يركب جواده ويخترق صفوف الأعداء منفسا كربة رجاله ، وكأنه ليس ذاك الذي يسقي الخمر أصدقاءه ويذبح النوق ..... انها مأساة حقيقية ، أن يكون الانسان في هذه العظمة ثم يسقط فاذا به تافه يسخرون منه ، ويشدون لسانه ، ثم

يقتلونه ، فيموت ميتة الجزور الذي يذبح . واذا كنا لا نريد أن نسترسل في القول ، فهل هناك غربة أقسى من هذه ؟ :

وقد علمتْ عِرْسي مُليكة أنني
أنا الليث معدياً عليه وعاديا

وقد كنتُ نحّار الجزورِ ومعمل المطي
وأمضي حيث لا حيَّ ماضيا

وأنحر للشّرب الكرام مطيّتي
وأصدع بين القينتين ردائيا

وكنت اذا ما الخيلُ شمَّصها القنا
لبيقاً بتصريف القناة بنانيا

. . . .

كأني لم أركب جواداً ولم أقل
لخيليَ كري نفّسي عن رجاليا

ولم أسبأ الزّقّ الرويّ ولم أقل
لأيسارِ صدق أعْظموا ضوءَ ناريا

في المخصص[٢١١] : « سجنته أسجنه سجنا : حبسته في السجن . والسجن : الاسم . والسجان : صاحب السجن . ورجل سجين :

---

٢١١ ـ ١٢ : ٩٣ .

مسجون ، وكذلك الأنثى بغير هـاء • الأصمعي : يقال للسجن الذي يحبس فيه الناس : المخيّس ، ولا يفتح لأنـه هـو الفاعـل ، يخيس المحبوسين : أي يذللهم » •

والفرق بين السجن والأسـر في العصر الجاهلي أن الأسـر ، كما رأينا ، يكون مؤقتاً نهايته فـداء أو موت ، أولا ، وهـو نتيجة للغزو الذي كان سائدا آنذاك ، ثانيا . وليس ثمة مكان محـدد يأسرون فيه أسيرهم ، ثالثا ، وهذا بالطبع واضح وهو عدم وجود البناء أصلا ، أما السجن فان الغاية منه مختلفة كما سنرى ، وله مكان معد لهذه الغاية ، ثم انه لم يكن نتيجة للغزو ، وهو بالتالي مرتبط بالمدينة لا بالصحراء ، ولعل الأسباب واضحة •

والشعر الذي وقعنا عليه أكثره لعدي بن زيـد في سجن الحيرة ، وهناك شعر في سجن كسرى ، في بلاد فارس ، وأبيات في سجن المدينة• وهذا يدل على أن السجن تقيمه حكومة لها شكل الدولة خارج اطار النظام القبلي•واذا كان للأسر سبب محدد ، فان للسجن أسبابا متعددة• فهذا قيس بن مسعود ، قد حبسه كسرى لأنه تعهد له أن يكفيه قومـه فأقطعه (الأبلة) ولكن غزوات بكر لم تقف على بلاد كسرى[212] :

ألا مَنْ مبلـغٌ قومي ومَنْ ذا	يبلّغ عنْ أسير في الإوان[213]
تطـاولَ ليلـه وأصـاب حزنـا	ولا يرجـو الفـكاك مع المنان

والمنخل اليشكري كان يحب زوجة النعمان هندا بنت عمرو بن هند ويتغزل بها ، فبلغ عمرا خبر المنخل ، فأخذه فقتله ، « وقال المنخل قبل أن

٢١٢ ـ الأغاني ٢٤ : ٥٧ •
٢١٣ ـ الايوان •

يقتله وهو محبوس في يده ، يحض قومه على طلب الثأر به[٢١٤] :

طلّ وسْط العراقِ قتلي بلا جُرْ
مٍ وقومي يُنتَجون السِّخالا

وضابىء بن الحارث البرجمي ، كما يروي ابن سلام[٢١٥] ، كان قد أصبح في خلافة عثمان بن عفان ضعيف البصر ، فوطىء صبيا بدابته فقتله ، فحبس ، فقال :

ومَنْ يكُ أمسى بالمدينة رحلُه
فإني وقيّار[٢١٦] بها لغريبُ

فلا تَجزَعَنْ عَنْ قيّارَ من حبس ليلة
قضيّة ما يُقضى لنا فنؤوب

وما عاجلاتُ الطير تدني من الفتى
نجاحاً ولا عن ريثهن يخيب

وربّ أمور لا تضيرك ضيرة
وللقلب من مخشاتهنّ وجيب

---

٢١٤ ــ الأغاني ١١ : ١٤ ، وشعراء النصرانية ٤٢١ .

٢١٥ ــ طبقات فحول الشعراء ، ص ١٤٤ ، وأنظر الكامل ١ : ٢٧٦ ، والأصمعيات ٢١٢ .

٢١٦ ــ اسم دابته .

« فعرض أهل السجن يوما ، فاذا هو قد أعد حديدة يريد أن يغتال عثمان بها ، فأهانه وركسه[٢١٧] في السجن ، فقال :

فان يعطين بعدي امرؤ ضيم خطة
حـذار لقاء الموت ، والموت قاتله

. . . .

هممت ، ولـم أفعل ، وكدت ، وليتني
تركت علـى عثمان تبكي حلائله

ولم يزل ضابىء في السجن حتى مات » .

* * *

٢١٧ ـ رده اليه .

دراسة غربة عدي بن زيـد

وتجربة السجن تجربة مرة ، وغربة يتصل ليلها بنهارها ، ولا سيما في ذلك العصر اذ كان الحاكم هو الذي يصدر الأوامر والأحكام ، دون حاجة الى قانون ، وأدلة ، لهذا كان السجين يعيش دائما منتظرا لحظة تنفيذ الحكم ، وهـو لا يدري ما هـو ، ولا كيفية تنفيذه ، ولا الوقت الذي سيستغرقه في سجنه ، غربة دائمة اذا ، بعيدا عن الأهل والوطن ، والحرية ، والحرية بالنسبة الى العربي الذي تعود على الشمس والهواء والصحراء ، هي حياته ، وقد رأيناه يترك أهله ووطنه بحثا عن كرامته ، فكيف يحيا هنا وقد سلب حريته وكرامته ! ونحن نجد صدى هـذه التجربة يتردد في الشعر العربي منـذ الجاهلية • واذا كنا هنـا بصدد تجربة السجن في العصر الجاهلي ، والغربة التي يعيشهـا السجين فاننا سنقف عند تجربة متميزة ، هي تجربة (عدي بن زيد)[218] فقد قـال شعرا كثيرا في سجنه ، عبر فيه عن غربته ، وعن ضيعته بسجنه وبحياته بما يمكن أن نعده تجربة متميزة[219] •

٢١٨ ـ أنظر ديوانه ، وأنظر ديوان طرفة ص ١٦٨ وما بعد وتجربته في سجن البحرين ، قبل مقتله •

٢١٩ ـ أنظر سبب سجنه في مطلع الديوان : (يذكر أنه كان سببا في تعيين النعمان من قبل كسرى ، على الحيرة ، ثم حصل بينهما جفاء بسبب دسيسة من قبل أحد أعداء عدي ، فسجنه النعمان وكسرى لا يعلم بهذا ، ثم دس اليه من قتله ، وحين علم كسرى بهذا فتك بالنعمان اذ جعله يموت تحت أرجل الفيلة)•

يحل الليل على الشاعر وهــو في سجنه ، فتتآلف عليه الهـــوم ، ويطول الليل ، ذلك أن ليل الهموم طويل ، وخاصة أن الشاعر يرسف في القيود ، ويعاني من ثقل الحديد مربوطا به جسده[٢٢٠] :

لِمَنْ ليلٌ بذي جُشَم طويلُ
لمن قـد شفّه هـمٌ دخيـل

وما ظلمُ امرىءٍ في الجيد غِلٌ
وفي الساقين ذو حَلَق طويـل

ويبدأ بانتظار الصبح ظاناً أن غربته ستنتهي مع حلـول الصباح ، فالهموم المقيمة مع الشاعر ما يظهر منها وما يبطن ، يظن أن لها نهـاية ، ولكن أنى له هذا والصبح بعيد لا يأتي • والنوم يجفو عينيه ، والجنب قلق ما يستقر وكأنه يضطجع علـى إبر ، والسبب ليس العشق ، كبقية الشعراء ، ولكنه الوشاية التي أتت النعمان فأودت بالشاعر • ان تأكيد الشاعر ، على أن سهره وهمومه ليست عشقاً ، دليل على عمق المأساة في نفسه ، والتي يريد نقلها لنا في شعره ، البعض يسهر عاشقا ، ولكنه يسهر لأن المصيبة التي حلت به فادحة ، وهو يفكر في وسيلة الخلاص منها ، ومن سجنه وغربته[٢٢١] :

طـالَ ذا الليل علينا فاعتكـرْ
وكأني نـاذر الصبح سَمَرَ

---

٢٢٠ ـ الديوان ٣٤ •

٢٢١ ـ الديوان ص ٥٩ •

مِنْ نجيِّ الهم عندي ثاويـاً
بين مـا أعلـنُ منـه وأسِـر

وكـأن الليـل فيـه مثلـه
ولقِـدْماً ظَنَّ بالليل القِصـَر

لم أغمِّضْ طوله حتى انقضى
آتمنّى لو أرى الصبح جشـر[222]

شَئِزٍ[223] جنبي كأني مهـدأ
جعل القين علـى الدفِّ إبـر

غـير مـا عشق ولكن طـارق
خلس النومَ وأجداني السهـر

إذ أتاني نبـأ من مُنعـم
لـم أخنْه والذي أعطى الخبر

قيل حتى جاءني مصدقه
ولقد يُلفى مع الصفوِ الكَدَرْ

ويبـدأ الشاعر يفكر بالخلاص ، فيطرق الأبواب جميعا ، انه يفكر بالموت الذي ربما حكم عليه النعمان به ، ويفكر في الغربة والمآسي التي

٢٢٢ ـ انفلق ٠
٢٢٣ ـ قلـق ٠

يحياهـا ، ولقد طرق الباب الاول ــ باب العتاب ــ فالمعروف أنه كان صديقاً للنعمان ، وأنه كان السبب في تنصيبه ملكاً ــ لهذا فهو يتوجه اليه معاتباً أولا ، كيف يقبل وشاية قوم في صديق وهب حياته لخدمته ، بل كيف يغدق عليهم العطايا ويزور عن قوم الشاعر الذين خدموا أسرته منذ نشأتهـا .

ألا مَنْ مبلـغ النعمـان عني
فبينا المرءُ أغرب(٢٢٤) إذ أراحا(٢٢٥)
أطعتَ بني بُقيلـة في وثاقـي
وكنا في حلوقهـم ذُباحـا
منحتَهم الفرات وجانبيـه
وتسقينا الأواجِنَ والملاحـا(٢٢٦)

وحين لا ينفع الباب الاول ، يطرق الباب الثاني ــ باب الاعتذار ــ فحين لا يقبل النعمان عتابه ، يلجأ الى طلب الصفح عن طريق الاعتذار خوفا ، ويقسم الأيمان المغلظة بأنه لم يرتكب إثماً يستحق عليه هـذا السجن ، ويذكره أنه حين يفعل هذا ، أو حين يتخذ قرار قتله فانه انما يعالج الداء بداء أشد إيلاماً ، ويذكره بأنه لم ينس نعمته عليه ، متملقاً اياه ، انه يريد الخلاص من سجنه وغربته بأي ثمن(٢٢٧) :

---

٢٢٤ ــ اغتنى .
٢٢٥ ــ مـات .
٢٢٦ ــ وأنظر ص ٣٧ .
٢٢٧ ــ الديوان ص ٥٩ .

أبلغِ النّعمانَ عنّي مألُكا

قول من خاف اظّطِنانا فاعتذر

إنني واللهِ فاقبلْ حلفتي

لأبيلْ[٢٢٨] كلما صلّى جأر

لا تكوننْ كآسي عظمه

بأسى حتى اذا العظم جبر

عاد بعد الجبر يبغي وهية

ينحونّ المشي منه فانكسر

واذكر النعمى التي لم أنسها

لك في السعي اذا العبد كَفَر

وهو بالطبع ، سيذكر الواشين ، ويعرض بهم ، فهم الذين سعوا بين يدي النعمان للايقاع به . وهم سبب بلائه ومصائبه ، انه يقسم على هذا ، وهو مقتنع ببراءته وأن الله سوف ينجيه[٢٢٩] . وما هذه أول مصيبة تحل به — انه هنا يريد أن يسري عن كربته وغربته — ولكن كان على النعمان أن يتأكد قبل أن يوقع به[٢٣٠] :

سعى الأعداء لا يألون شراً

عليّ وربّ مكة والصليبِ

---

٢٢٨ — راهب .
٢٢٩ — يجدر الانتباه الى أن الشاعر كان مسيحيا .
٢٣٠ — الديوان ص ٣٧ .

أرادوا أن يمهّل عـن كبـير

فيُسجن أو يُدهدى في قليب

وكنت لزاز خصمك لم أعرّد[231]

وقـد سلكوك في يوم عصيب

. . . .

وما دهري بأن كدّرت فضـلا

ولكن مـا لقيت مـن العجيب

ومـا هـذا بأول مـا ألاقـي

من الحدثـان والعرض القريب

. . . .

يجاوبـه يسـار الله عنـي

وصبري في مُلِمّات الخطوب

ثم يطلب الرحمة مذكراً بالنساء الأرامل اللواتي ما ينفككن يبكين فراقه ومصابه، وهن يخفن على الشاعر من الموت، موجهاً حديثه الى النعمان، بأنه ان أخطأ، فليصفح عنه. مسلماً أمره الى الله والملك، فان هو قد ظلم فقد عوقب، وان ظلم فذلك نصيبه، فهل يتدارك النعمان الامر ويصفح ويعود اليه رشده؟ ان الشاعر قـد أوكل أمره الى ربـه صاغرا راضيا بعذابه ومصيبته[232] :

---

٢٣١ ــ أفـر .

٢٣٢ ــ الديوان ص ٤٠ وأنظر أيضا الديوان ص ٥٦ .

ومـا لـي ناصـر الا نسـاء
أرامـل قد هلكْن من النحيب

يحاذرنَ الوشـاة علـى عديّ
ومـا قرفـوا عليه من الذنوب

فان أخطأتُ أو أهممت أمـراً
فقد يهـم المصافي بالحبيب

وإن أَظلـم فقـد عاقبتموني
وان أُظلـم فذلك مـن نصيبي

وانأهلك تجدْ فَقْدي وتُخذل
اذا التقت العوالي في الخطوب

فهل لـك أن تداركَ مـا لدينا
ولا تغلب علـى الرشد المصيب

واني قـد وكلتُ اليوم أمري
الى رب قريـب مستجيب

ولا يسمع الشاعر جوابا لنداءاته واستغاثاته . فيعلن تبرمه وضجره مذكرا النعمان أن حبسه قد طال ، وطال انتظاره . ثم يذكره أنه سبب بلائه ، وأن عنده الدواء . فهو قد غص بالماء ، فكيف يذهب غصته ، لقد سجن افتراء ، وقاسى من سجنه . فهو مكروب النفس متألم ، وهـو

يعلن أنه قد سجن ظلما ، وحرام سجنه دونما ذنب ، انه يعبر عن مأساته من باب آخر ، سيصل به فيما بعد الى اعلان الثورة وطلب الثأر .. فقد انتظر كثيرا ، وتحمل كثيرا ولكن الى متى ؟[233] :

أبلغ النعمانَ عني مألكا[234]

أنه قد طــال حبسي وانتظاري .

لو بغــير المــاء حلقي شَرِق .

كنت كالغصّان بالماء اعتصاري

ليتَ شعري عــن دخيل يفتري

حيثما أدرك ليلي ونهــاري

قاعــدا يكــرب نفسي بثهــا

وحراماً كان سجني واحتصاري

وأخيرا يتوجه ، بعد أن يئس من الاعتذار وطلب الصفح ، الى أخيه يناديه من بعد أن يأتي لنجدة أخيه الذي كبل بالحديد ، وسجن ، وحرم من حريته ، وهو يعاني صنوف العذاب ، لهذا فليأت وليحاول تخليصه من غربته التي لن تنتهي[235] :

أبلــغْ أبيّاً على نأيــه ... وهل ينفع المرء ما قد علِم

بأن أخاك شقيق الفؤا ... د كنتَ به واثقاً مــا سلم

233 ـ نفس المصدر ص ٩٣ .
234 ـ رسالــة .
235 ـ الديوان ص ١٦٤ .

لدى ملك موثق في الحديـــــــد امــا بحقٍ واما ظلم

فأرضك أرضك إن تأتنا نــَم ْ ليلــة ليس فيها حلم

ويصرخ الشاعر دون مجيب ، فتزداد غربته مرارة ، وبعد أن ينادي أخاه ، ينادي قومه جميعا ، مذكرا اياهم بحاله طالبًا منهم مساعدته ولو اضطروا الى الحربِ في الأشهر الحرم وهذا دليل على شدة معاناته(٢٣٦):

يا أبــا مسهــر فأبلــغ رسولا

إخوتي أن ْ أتيت َ صحن َ العراق

أبلغا عامراً وأبلــغ ْ أخــاه

أنني موثق شديد وثاقــي

فاركبوا في الحرام فكّوا أخاكم

إن عيراً قد جـُهـِّزت لانطلاق(٢٣٧)

★ ★ ★

---

٢٣٦ ــ الديوان ص ١٥١ ٠

٢٣٧ ــ وأنظر الديوان ص ٣٤ وفيه أبيات يطالب فيها أن لا ينام قومه عن نجدته ملتفتين الى مسراتهم ، مذكرا اياهم أنه لو كان مكانهم وكانوا مكانه لما تقاعس عن نجدتهم وفك سجنهم ٠

٥ ـ الجـار والحليف

يتم التحالف بتعاقد قوي مع ضعيف على أن يساعده ويعاضده[٢٣٨] وهو يتضمن معنى اليمين والعهد ، وقد يقوم بين قبائل أو أفراد ، وقد تطول مدته أو تقصر ، ولا يكون ملزما لكل أحياء القبائل ، والحلف ، بالنسبة للفرد ، هـو الطريقة الوحيدة التي يلجـأ اليها حين يخلع أو يؤسر ، فلا يجد وسيلة سوى اللجوء الى سيد أو قبيلة محالفا معاهـدا مؤديا واجبات مقابل حمايته ورعاية شؤونه ، والتحالف بين القبائل سببه أنه لم يكن في مقدور القبائل أو العشائر الصغيرة المحافظة على نفسها من غير حليف قوي يشد أزرها اذا هاجمتها قبيلة أخرى ، أو أراد الأخـذ بالثأر منها ، وبالطبع فان الهيمنة في هذه الأحلاف تكون للقبائل الأقوى فالعلاقة غير متكافئة .

وللتحالف طقوس ومراسم لسنا بصدد الحديث عنها ، وهي تنتهي بعكس ما تبتدىء به ، وذلك بالتخالع . وهو انهاء الحلف والعهـد . فالحلف أو المعاهـدة ، يجمع بين القبائل ، ولو تباعدت أنسابها ، انما يلتجئون الى هذا النوع ــ في الغالب ــ حينما يفتقدون القوة والنصرة في ذوي القرابة . فيتعاقدون ويتناصرون مع الأباعد . لتتوفر لهم أسباب

---

٢٣٨ ـ أنظر المفصل ٤ : ٣٦٧ ـ ٣٧٠ ـ ٣٧٧ وما بعد ، وأنظر العصبية القبلية ص ٦٦ وأنظر مدخل الى الأدب الجاهلي ص ٥٤ وما بعد (فيه حديث عن الأحلاف في الجاهلية) .

القوة التي ينال بها الرياسة ، أو يدفعون عن أنفسهم الظلم والعدوان ، وهذه العصبية أضعف من العصبية القبلية ــ بالطبع ــ[٢٣٩] •

وكان العرب ، في العادة ، يحافظون على عهودهم ومحالفاتهم ، فقد كان الرجل ينطق الكلمة ، فاذا هي عهد مبرم يجب أن يفي به ، والا تعرض شرفه للتجريح والثلم • وقد كانوا يوثقون عهودهم الجماعية ، ويؤكدونها ، وكان الغدر بالعهد والميثاق مغزاة تثلم الشرف ، ومعرة يجب اجتنابها • وكانت العرب ترفع لواء في سوق عكاظ تشهيرا بالغادر الناكث للعهد[٢٤٠] •

ولم يكن الحليف في منزلة ابن القبيلة الصريح ، فمن المألوف أن نسمع موالي القبيلة يشكون من سوء معاملة حلفائهم لهم ومن اهتضامهم حقوقهم ــ فمن الأمور التي استقر عليها العرف القبلي أن دية الحليف نصف دية الصريح • كما أنه ليس من حق الحليف أن يجير ، وانما هو من حق الصرحاء فقط[٢٤١] •

وحين تنزل جماعة في جوار قبيلة وتحالفها ، فهذا يعني أن منزلتها دون منزلة الثانية ، ذلك أن التماسها الحلف ناتج عن حاجتها الى من يحميها ، وتعتز به • وقد يكون الحليف أسيرا يقع في يد آسره ، ولا يتمكن من فداء نفسه ، فيطلب من آسره محالفته ، فاذا قبل آسره منه ذلك ، صار في حلفه وفي حلف قبيلته[٢٤٢] •

وتروي كتب الأدب والتاريخ أمثلة عن الأحلاف التي كانت تقام في الجاهلية ، ومن هذا القبيل مثلا ، تحالف يهود يثرب مع الأوس والخزرج

---

٢٣٩ ــ قصة الأدب في الحجاز ص ١٧٢ •
٢٤٠ ــ نفس المصدر ٤٨٦ •
٢٤١ ــ العصبية القبلية ٦٦ •
٢٤٢ ــ المفصل ٤ : ٣٧٧ •

فقد كانوا في ولايتهم ، ولجأ كل بطن منهم الى بطن من الأوس أو الخزرج يتعززون بهم ، وصاروا موالي لهم ، اذا وقع عليهم ضيم لجأوا الى من انتموا اليه بالولاء للدفاع عنه .

وربما كانت ظروف الحياة ، في المجتمع الجاهلي ، تدعو الى مثل هذه الأحلاف ، فمثلا حلف الفضول يروى في سببه أن رجلا من بني زبيد قدم مكة معتمرا في الجاهلية ومعه تجارة له ، فاشتراها منه العاصي بن وائل السلمي ، وكان ذا قدر بمكة وشرف ، فحبس حقه . ثم تغيب فابتغى الزبيدي متاعه فلم يقدر عليه ، فجاء الى بني سهم يستعديهم عليه ، فعرف ألا سبيل الى ماله ، فطوف في قبائل قريش يستعين بهم ، فتخاذلت القبائل عنه . وانتهره الأحلاف .... فلما رأى الزبيدي الشر ، أوفى على أبي قبيس عند طلوع الشمس ، وقد أخذت قريش مجالسها حول الكعبة فصاح بأعلى صوته :

يا آلَ فهر لمظلوم بضاعته

ببطنِ مكة نائي الدار والنفر

ومحرم أشعث لم يقضِ عمرته

يا آل فهر وبين الحجر والحَجَر

أقائم من بني سَهْم بذمتهم

أم ذاهب في ضلال مالُ مُعْتَمِرِ

ان الحرام لمن تمتْ كرامته

ولا حرام لثوبِ الفاجر الغدر(٢٤٣)

٢٤٣ ـ قصة الأدب ٤٨٧ .

بل ان الحروب العديدة التي خاضتها عبس ، ولا سيما حروب داحس والغبراء ، جعلت هذه القبيلة تنساح من ديارها الى ديار أحلافها. ودفعتها الى الانتقال في الجزيرة العربية[٢٤٤]. والذي يرجع الى أيام داحس والغبراء . يرى أن بني عبس قد ارتحلوا الى بني شيبان وجاوروهم ، ثم ساروا الى بني سعد بن زيد مناة ، ثم ارتفعوا نحو الشام ، ثم حالفوا بني كلاب .....

وقد يضطر فرد الى طلب التحالف ، فهذا البراض بن قيس الكناني . وقد كان سكيرا فاسقا ، فتبرأ قومه منه وخلعوه . ثم شرب في بني الديل وكان قد حالفهم ، فخلعوه . فاستجار بحرب بن أمية . ولكنه شرب بمكة أيضا ، ولما شعر بأنه سيخلع مرة أخرى قال لحرب : انك ان خلعتني لم ينظر الي أحد بعدك ، فدعني على حلفك ، وأنا خارج عنك ، وتركه وخرج[٢٤٥].

وكثيرا ما اعتز الانسان بحليفه . أو حلفائه ، فهو يكتسب النصرة والمنعة بهم وقد عبر عاجز الأزدي ، حليف بني مخزوم عن هذا بقوله[٢٤٦] :

قومي سلامان إمّا كنتِ سائلة

وفي قريش كريم الحلف والحسب

إني متى أدْعُ مخزوما ترَيْ عنُقا[٢٤٧]

لا يرعشون لضرب القوم من كثب

---

٢٤٤ ـ أنظر ديوان عنترة ص ٥ .
٢٤٥ ـ أيام العرب ص ٣٢٦ ، وقصة الأدب ٤٨٦ .
٢٤٦ ـ الأغاني ١٣ : ٢٠٩ .
٢٤٧ ـ جماعة كبيرة .

يُدعى المغـيرة في أولى عديدهـم

أولاد مرأسـة ليسوا من الذُّنَبِ

بل ان قريط بن أنيف يهزأ بقبيلته ، معتزا بحلفائه الأقويـاء الذين استطاعوا رد ابله اليه ، وهذا الاعتزاز بالحليف ، مع ما فيه من الضعة يعبر عن حاجة هذا الرجل الماسة الى النصرة والعزة التي لا يجدهـا عند قومه . ولكن ألن يجد ذلا أكبر في كونه مولى لهؤلاء الأقوياء ؟ انه يتمنى لو كان من قوم حلفائه لأنهم أقويـاء ، يستطيعون رد ظلـم الظالـم ، وينصرون أخاهم ظالما أو مظلوما ، أما قومـه فانهم ليسوا في العير ولا في النفير(٢٤٨) :

لو كنتُ مِنْ مازن لم تستبحْ إبلي

بنو اللَّقيطة من ذُهْلِ بنِ شيبانا

إذاً لقـام بنصْري معشـرٌ خُشُن

عند الحفيظة إنْ ذو لوثـة لانـا

قومٌ اذا الشر أبدى ناجـذيه لهم

طـاروا اليه زرافـات وَوِحْدانا

لا يسألونَ أخاهـم حين يندُبُهم

في النائبات علـى ما قـال برهانـا

---

٢٤٨ ـ شرح ديوان الحماسة ١ : ٢٣ وما بعد .

لكنّ قومي وإنْ كانوا ذوي عَدَدٍ

ليسوا من الشرّ في شيء وإنْ هانا

. . . .

فليتَ لي بهمُ قوماً اذا ركبوا

شدّوا الإغارة فُرساناً ورُكْبانا

أما الجوار[٢٤٩] ، فهو كسابقه ، الحلف ، غايته طلب الحماية والأمان ، دون اشتراط ملاصقة البيت ، ولا يجاور الا القادر على حماية جاره ، ويكون بين الجماعة والأفراد والأصل فيه أن يكون لثلاثة أيام ، الا اذا قبل المجير التمديد ، وقد يكون على مسائل معينة ، كأن يجير فلان فلانا من قبيلة كذا ، أو جريمة كذا • ووجب على المجير ، في أعرافهم ، المحافظة على حق الجوار ، والا نزلت به سبة وازدراه الناس • وقد بلغ من عزة بعض المجيرين ، أنه يمكن الاستجارة بقبورهم ، كعامر بن الطفيل مثلا ، وقد يستجيرون بمعبد (مكة مثلا) • والجوار من السنن التي حافظ عليها الجاهليون ، واعتدوها كالقوانين • فاذا استجار شخص بآخر ، أو قبيلة بأخرى ، اكتسب هذا الجوار معنى القانون • وقد يكون له صلة كبيرة بالنسب والعصبية ، فقد يتوثق الجوار ، وتتقوى أواصره فيصير نسبا ، فيدخل عندئذ نسب المستجير بنسب مجيره ، وقد اندمجت بالجوار أنساب كثيرة من القبائل الصغيرة بالقبائل الكبيرة •

وطلب الجوار ناتج عن ظروف الحياة الاجتماعية والاقتصادية أيضا ، فالمخلوع مثلا لا يهدأ له بال الا اذا وجد حليفا أو جارا يتعهد له بحمايته وببذل العصبية له ، وبالدفاع عنه •

---

٢٤٩ ـ المفصل ٤ : ٣٦٠ •

وحق الاجارة وقف على الصرحاء من أبناء القبيلة ، ولا يحق لحليف أن يجير[٢٥٠]. ولقد قدس العرب الجوار وافتخروا به ، كما سنرى ، وربما تعهد مجير لجاره بأن يثأر له حتى من أخيه الصميم ، ولعل لنشأة هذا القانون أسبابها ، ففي مجتمع القبيلة لا بد للرجل من البحث عن ملجأ حين يقع في خطأ ، والا حكم عليه بالتشرد ومن ثم الموت .

واذا كان العرب قد قدسوا الجوار ، وحموا الجار ، فان هـذا لم يكن قانونا فمن الطبيعي أن نسمع جارا يشكو ظلم مجيريه واهتضام حقوقه لديهم ، حتى قالت العرب « لا يكاد أخو جدار يحمد »[٢٥١] . فقد تغلب الطبيعة العدوانية والطمع على نفس الرجل ، فيغدر به ويقتله، أو يسيء معاملته ، ويكفي الجار هوانا أن ديته نصف دية المجير .

ولقد عبر الشعراء عن احساسهم بالغربة في جوار مجيريهم ، فطهمان ابن عمرو الكلابي يذكر أنه ورجل من بني عبس غريبان في أرض مذحج، وعلى الرغم من اختلاف قبيلتهما ، فان احساس الغربة قد جمعهما ، ويوضح أنهما مضطران الى المصانعة والمداراة ، وربما أحجما عن فعل ما يرغبان ، وذلك لأنهما غريبان[٢٥٢] :

وإنّي والعبسيّ ، في أرض مذْحَجٍ ،
غريبان ، شتّى الدار مختلفان

وما كان غضُّ الطَّرْفِ منّا سجيّةً
ولكننا في مذحجٍ غُرُبان

---

٢٥٠ ـ العصبية القبلية ص ٧٤ .
٢٥١ ـ العصبية القبلية ص ٨٨ .
٢٥٢ ـ أنظر لسان العرب مادة (غرب) .

بل ان الجار لا يجد في مجيره ، ولو كان خاله ، الراحة التامة . فانه يحس بأنه في قبيلته وحدها لا يكون غريبا ، أما في غير قبيلته ، فهو غريب ولو كان في أقرب الناس اليه بعد أعمامه(٢٥٣) :

اذا كنتَ في سعد وأمكَ منهمُ
غريباً فلا يغررْكَ خالكَ مِنْ سَعْدْ

فانَّ ابنَ أختِ القوم مصغىً إناؤه
اذا لم يزاحِمْ خالَه بأبٍ جَلْدْ

أما عبيد بن الأبرص فانه ، وبحكمة الشيوخ ، يرى أن على الجار أن يؤدي واجبه تجاه مجيره ، ولا يجوز أن يعتذر لأنه غريب ، ذلك لأن عليه واجبا تجاه مجيره(٢٥٤) :

ساعِدْ بأرضٍ اذا كنتَ بها ولا تقلْ إنني غريبُ

ويحس الجار بذله وغربته ، من خلال الممارسات الكثيرة التي يفرضها عليه جيرانه ، فهذا العنبر بن أم خارجة البجلية ، قد جاء مع والدته التي تزوجها عمرو بن تميم » فخرجوا ذات يوم يستقون ، فقلَّ عليهم الماء ..... فاذا وردت دلو العنبر تركها تضطرب ، فقال العنبر(٢٥٥) :

٢٥٣ ـ شرح الحماسة ٢ : ٥٢١ والشعر لحسان بن علبة ، وبعضهم ينسبه لغيره والكامل ٢ : ٥٢٨ .

٢٥٤ ـ ديوان عبيد ص ٢٦ ، وحماسة البحتري ٢٧٦ .

٢٥٥ ـ الكامل ٢ : ٤٠٦ .

قدْ رابني من دَلْويَ اضطرابها والنأيُ عنْ بهراءَ واغترابها

إلاّ تجيءْ مَلأىْ يَجىءْ قرابها

وقد مر بنا كيف اضطر مهلهل لتزويج ابنته مكرهاً حين جاور في اليمن ، على الرغم من عزته في قومه[٢٥٦] • ومرت أيضا قصة الهذلي مع عروة ، وكيف أنه كان يكذب في كل ما يقول ، وحين سأله عروة عن السبب ذكر له أن هؤلاء ليسوا قومه وانما قوم امرأته • ونعرف أيضا من سبب حرب داحس والغبراء أن المجير قد هضم حق جاره ، ورد بن مالك العبسي ، ولو كان السباق قد جرى في أرض عبس لما جرؤ الفزاري على فعلته التي فعل •

ويصرح عمرو بن هبيرة بكل هذا ، فهو يرى أن المرء ما دامت داره في غير قومه ، فانه سيلاقي كل الهوان ، فقد يغضبونه ، ولا يسعون في رضائه ، وترتفع أصواتهم فوق صوته ، ولا يؤدون واجبه ، وينكرون عليه رأيه وخطته ، ولا يستطيع نكران ما اختطوا ، بل انهم يزاحمونه حتى على الماء[٢٥٧] :

ومَنْ تكُ في غير العشيرة دارُهُ

يُغضَّبْ فتبرد غير مرضى مغاضبُه

يرى كلّ صوت منهم فوق صوته

ولا يوجهوا منهُ الذي هو واجبُه

---

٢٥٦ ـ الأغاني ٥ : ٥٠ •

٢٥٧ ـ حماسة البحتري •

ويُنكَرْ عليــه إنْ أراب بخُطّةٍ
ولا يستطع تنكـير ما هو رائبـه

وليس وان آووا عليــه بمويـئ
ويوردْ عليــه غـيرهُ ويشاربـه

بل ان الجار ليشعر بأنه مـا دام بعيدا عن قومـه ، فان كل الناس سأتلفون عليه ويتناحرون ولن يسألوه ان كان ظالما أو مظلوما :

وجدتُ الفتى ما كان في غير قومه تَنوصِر مظلوما عليه وظالما[٢٥٨]

ولعل عمرو بن هبيرة يعبر عن المذلة التي يعيشها الجار بين مجيريه ، لأن من يترك قومه لا بد أن يذوق مرارة الغربة والذل[٢٥٩] :

أبى اللهُ للجـيران الا مذلّة ومن يغتربْ عن قومه يتذللِ

وقد كان الجيران يشيرون الى تقصير مجيريهم عن واجباتهم تجاههم. فأعراف العرب تقضي أن يكرم المجير جاره ، وأن يقدم له العون ، ويغدو الأمر في غاية المذلة للجار اذا كان بينه وبين مجيره صلة قربى . وقد كان بين امرئ القيس وبين سبيع بن عوف ، أحد بني طهية ، وشيجة قربى ، فنزل عليه سبيع وسأله فلم يعطه شيئا فذمه بقوله[٢٦٠] :

---

٢٥٨ ـ وقد رأينا شعر النساء اللواتي تزوجن في غير أقوامهن ، وكيف كن يتقن الى العودة الى أوطانهن ، لأنهن كن يشعرن بالمذلة وبأنه لا يمكن لهن أن يكن موفورات الكرامة الا بين أهلهن .

٢٥٩ ـ حماسة البحتري ١٥٥ .

٢٦٠ ـ ديوان امرئ القيس ص ١٧٥ .

اذا ما نزلْنا دار آل مغرِّز   بليل فلا يخلفْ عليها الغمام
مغرّز أبكار اللقاح اذا شتا   وضيفك جار البيت لأياً ينام

ونزل امرؤ القيس في بني عدوان فلم يحمدهم ، فلعن الزمان الذي بدله أهله الملوك ، قوما ليسوا أهلاً للنزول بهم والعيش معهم . ويذمهم قائلا(٢٦١) :

بدّلتُ من وائل وكندة عـد   وان وفهما ، صمّي ابنة الجبل
قومٌ يحاجون بالبهائم ونسـ   وان قصار كهيئة الحجل

وجاور رجل من ثمالة عبد الله بن الصمة(٢٦٢) ، فهلك عبد الله وأقام الرجل في جوار دريد . وأغار أنس بن مدركة الخثعمي على بني جشم ، فأصاب مال الثمالي وأصاب ناساً من ثمالة كانوا جيرانا لدريد ، فكف دريد عن طلب القوم وشغل بحرب من يليه ، وقال لجاره ذلك : أمهلني عامي هذا . فقال الثمالي : قد أمهلتك عامين . وخرج دريد ليلة لحاجته وقد أبطأ في أمر الثمالي ، فسمعه يقول :

كساكَ دريد الدهر ثوب خزاية
وجدّعك الحامي حقيقته أنسْ
دعِ الخيل والسمر الطوال لخثْعَم
فما أنت والرمح الطويل وما الفرس

---

٢٦١ ـ نفس المصدر ١٦١ .

٢٦٢ ـ الأغاني ١٠ : ٣٥ وما بعد .

فلو كان عبد الله حيا لردها
وما أصبحت ابلي بنجران تحتبس

ولا أصبحت عرسي بأشقى معيشة
وشيخ كبير من ثمالة في تعس

ولقد جاور البرج بن مسهر كلبا أيام حرب الفساد ، فلم يحمدهم(٢٦٣)، وهو يسخر منهم في شعر له ، فقد لقي بقربهم الهوان . وأقام الغدر فيهم حيث حلوا ، ثم يتحسر على الأيام التي عاشها بين قومه قبل اختلافهم ، ويشير في النهاية الى أن ذل الجار وغربته يدفعان المرء أن يصالح قومه ، ويبقى فيهم حتى مماته ، مهما كان الثمن ، ومهما علت التضحيات ، ان الشاعر حين وجد نفسه مضحيا بكرامته بين أهله وعند جيرانه ، فضل أن تهدر كرامته بين أهله ، ولا يتعرض لظلم الأباعد :

فنعم الحيّ كلب غير أنّا
رأينا في جوارهم هنات

فان الغدر قد أمسى وأضحى
مقيماً بين خبتٍ الى المسات(٢٦٤)

تركنا قومنا من حرب عام
ألا يا قوم للأمر الشتات

٢٦٣ ـ شرح الحماسة ١ : ٣٥٩ .

٢٦٤ ـ خبت والمسات : موضعان .

وأخرجْنَ الأيامى من حصون

بهـا دار الاقامـة والثبـات

فان نرجع الى الجبلين[٢٦٥] يوماً

نصالحْ قومنا حتى الممات[٢٦٦]

ويوضح زهير بن أبي سلمى حق الجار[٢٦٧] على مجيره ، وواجبات المجير نحو جاره ، فقد أتاه من شكا اليه قومـا نزل بهم ، فلعب معهـم الميسر ، فخسر ، فلم يردوا عليه ماله . وفي هذه القصيدة يوبخ زهـير مجيري الرجل ، ويطلب منهم معاملة جارهم باحسان ويضرب مثلا لهـم عن طريقة معاملة الجار ، بأن رجلا استجار بهم خوفا ورجاء ، فأكرموه حتى انقضى الشتاء وذهب الرجل الى سبيله :

جوارٌ شاهد عَدْلٌ عليكـم

وسيّان الكفالـة والتـّلاء

بأيّ الجـيرتين أجرتمـوه

فلـم يصلحْ لكـم إلاّ الأداء

فانكمْ وقومـا أخفروكـم

لكالديباج مـال به العبـاء

٢٦٥ ـ أجا وسلمى : في ديار قومه .

٢٦٦ ـ أنظر أبياتا للحطيئة في هـذا المعنى ، في ابن الشجري ٢ : ١٠ ، وليزيـد بن مفرغ يهجو والمنذر بن الجارود العبدي ، ديوان امرىء القيس ، الحاشية ص ٦٧ وأبيات الهوازني (التي مرت بنا) الأغاني ١٢ : ١٧ .

٢٦٧ ـ ديوانه ٧٦ .

٢ ـ وجـارٍ سـار معتمداً الينـا
أجـاءته المخافـة والرجـاء

فجـاور مُكرما حتى اذا مـا
دعـاه الصيف وانصرف الشتاء

وكثيرا ما يغدر المجير بجاره . ولا يرعى ذمة له ولا عهدا ، وتضيق الدنيا بالجار فيبحث عن جوار آخر ، وقد يغدر به الآخر ، وهذا غالبا ما كان يحصل للصعاليك فلم يكن العرب يرغبون في جوار هؤلاء ، لأنه سيجر لهم متاعب ومشكلات لا حصر لها ، فالصعلوك مطلوب لأكثر من جهة ، وقد عانى أبو الطمحان القيني من تنقله بين الجيران وغدرهـم . وهو يطلب جارا لا يغدر ، فلا يجده[٢٦٨] :

أجدَّ بني الشرقيِّ أولـع أنني
متى أستجر جاراً وان عزَّ يغدر

اذا قلتُ أوفى أدركته دروكـة
فيا موزع الجيران بالغيِّ أقصِر

وتصل الأمور بالمجير الى قتل جاره ، فيموت الجار غريبا مظلوما ، ويبكي أبو خراش غلاما من بني تميم ، نزل في بني حريث بن سعيد بن هذيل على رجل يقال له : غاسل بن قميئة ، فقتله ، فقال أبو خراش[٢٦٩] :

---

٢٦٨ ـ مدخل ١٩٩ .

٢٦٩ ـ ديوان الهذليين ٢ : ١٦٤ .

كأنَّ الغــلام الحنظلي أجــاره

عمانيّةٌ قد عمَّ مفرقَها القمْلُ

أبات على مقراك[٢٧٠] ثم قتلتَه

على غير ذنبٍ ذاك جدَّ بك الثُّكل

فهل هــو الا ثوبــه وسلاحــه

وما بكم عُريٌ اليه ولا عُزل

دعــا قومه لما استُحِلَّ حرامه

ومن دونهم عرض الأعقة[٢٧١] فالرمل

ولو سمعوا منهم[٢٧٢] دعاء يروعهم

اذاً لأتتْه الخيــل أعينُها قُبْل

ولنلاحظ هنا ، كيف يصور أبو خراش مأساة هذا الجار وغربته ، فقد نزل بجار لا يحسد ، غدر بضيفه بعد أن أكل من طعامه وقتله دون ذنب ، فلم يكن الرجل يملك الا ثوبه وسلاحه . وليس المجير بحاجة الى هذه الأشياء البسيطة ، ولو أنه كان محتاجا اليها حقا ، فلا يحق له قتل الجار وسلبه . وينهي الشاعر تساؤلاته المغلفة بالأسى على ضياع الشاب القتيل ، وعلى غدر المجير به ، ويبين له أخيرا أن هذا الرجل لا بد أنه

---

٢٧٠ ـ قصعتك .

٢٧١ ـ الأودية : ج عقيق .

٢٧٢ ـ منــه .

استنجد بقومه ، ولكن هيهات ، مسافات شاسعة ذهبت بصوته أدراج الرياح،ولكن لو سمعه قومه لجاؤوا بخيولهم وفرسانهم ولأخذوا بثأره.

ويبكي الجار ذله وغربته وضعفه ، حين تحل به مصيبة من مجيره . يبكي لأنه لا يمتلك غير البكاء والشكوى ، فمجتمع القبيلة لا يعطي لأية سلطة حق رعاية شؤون الناس ، وانما الأمر بيد القوي . ولقد بكت سارة القرظية (يهودية) قتلى قومها حين دبر ملك غسان ، أبو بجيلة ، مكيدة لهم قضت على أكثر زعمائهم . وذلك بعد أن شكت له الأوس والخزرج خوفها من خطر اليهود(٢٧٣) :

بنفسي أمة لم تغن شيئا
بذي حُرُض تعفّيها الرياح

كهول من قريظة أتلفتها
سيوف الخزرجيّة والرماح

رُزئنا والرزيّة ذات ثقل
يمر لأهلها الماء القراح(٢٧٤)

وقالت البسوس تحرض جساسا على قتل كليب ، بعد قتل ناقة جاره(٢٧٥) :

---

٢٧٣ ـ الأغاني ٢٢ : ١١١ .

٢٧٤ ـ وأنظر خلاف والد زهير مع خاله أسعد بن الغدير حول توزيع غنائم كسبها قومهم ، وكيف قرر الاول ترك جيرة أخواله . (ديوان زهير بن أبي سلمى ، ص ١) .

٢٧٥ ـ أخبار المراقسة وأشعارهم ، ص ٢٥ ، وأيام العرب ١٤٥ . وأنظر قصة حرب البسوس في شعراء النصرانية أيضا ١٥٤ .

أيا سعد لا تغرُرْ بنفسك وارتحلْ

فانكَ في قوم عن الجـار أمـوات

ودونـك أذوادي اليـك فانني

محـاذرة أن يغـدروا ببناتي

لعمـري لو أصبحت في دار منقـذ

لمـا ضِيم سعدٌ وهو جار لأبياتي

ولكنني أصبحت في دار غربـة

متى يَعْد فيها الذئب يَعْد على شاتي

فهذه المرأة تحرض أخاها على رعاية حق جاره وجارهـا ، وتعيره باهماله هذا الحق ، فلو كان هذا الجار في ديار قوم زوجها ، لما حصل له ما حصل هنا ، ولكانت دافعت عن حقه . ولكنها في ديـار بكر غريبة ، ولهذا فقد كشر الوحش عن أنيابه وافترسها (افترس جارها) .

ولكن أخاها جساسا يرد عليها موضحا أنه أول من يرعى الجار ، فهو كأحد عياله وله حق مثلهم ، بل انه يعامله كما يعاملهم . وناقته احـدى جماله ، وأن عليه أن يرفع عنه الضيم . فعليها ألا تكثر اللوم وأن تنتظر أداء حق جارها وجاره ، والا فالموت أشرف من حياة الضعة[٢٧٦] .

وقد بلغ من وفاء بعضهم لجاره ورعايته له أن جعل نفسه فداء جاره ــ كما قال جساس ــ وكما قال أبو جندب[٢٧٧] فقد[٢٧٨]«كان له جار

٢٧٦ ــ المصدر السابق ص ٢٦ وأنظر الابيات هناك .
٢٧٧ ــ هو أبو جندب بن مرة القردي .
٢٧٨ ــ ديوان الهذليين ٣ : ٨٥ ، شعر الهذليين ١١١ ، الأغاني ٢ : ٢٠ .

من خزاعة يقال له حاطم فوقعت به بنو لحيان فقتلوه •••••• وأخذوا ماله وقتلوا امرأته ، (وكان أبو جندب مريضا) فلما برأ ، خرج حتى قدم مكة ، فاستلم الركن وقد شق عن استه ، فطاف فعرف الناس أنه يريد شرا ، فقال :

إنّي امرؤ أبكي على جاريه أبكي على الكعبيّ والكعبيّه
ولو هلكت بكيا عليّه كانا مكان الثوب من حِقْويه

وفي حديث ابن ضبا[٢٧٩] أنه كان لعتبة بن مالك بن جعفر ، فقتلته بنو بكر في رجل قتلته أسد . فغضب بنو جعفر ، وطالبوا بديته وكانه أحدهم[٢٨٠] •

وقد امتدح الجيران صنع مجيريهم حين يقومون بواجبهم نحوهم ولا يغدرون بهم ، فالضعيف لا يطلب الأمان وأسباب الحياة ، وهو لهذا يلهج بالشكر والمديح اذا قام القوي بحمايته ، سواء بالدفاع عنه ، أو بعدم الاعتداء عليه •

فأبو الطمحان بعد أن تنقل في جيران كثر وجد من يلجا اليه فيحميه ولا يغدر به فقال[٢٨١] :

وقد عرفتْ كلابكم ثيابي كأنّي منكم ونسيتُ أهلي

ونزل قيس بن الحدادية عند بطن من خزاعة يقال لهم بنو عدي بن

---

٢٧٩ ـ هو سعد بن ضبا الأسدي ٠

٢٨٠ ـ أنظر أيام العرب ص ٣٠٠ ، وأنظر رثاء ساعدة بن جوية لبعض هذيل وكانوا جيرانا لسليم فغدرت بهم (شعر الهذليين ٢٠٢ ، ديوانهم ١:٤٤)٠

٢٨١ ـ مدخل ٩٩ ٠

عمرو بن خالد . بعد أن خلعه قومه . فآووه وأحسنوا اليه . فمدحهم في أبيات مرت بنا[٢٨٢] ويمدح امرؤ القيس بني ثعل وقد نزل بهم في ديار طيء هاربا من وجه النعمان فأكرموه وآووه وحموه ، فقال[٢٨٣] :

ألا حبذا قوم يحلّون بالجبـل   وأين مني بني ثُعَل واثُعلاً
فياكُرُم ماجار وياحسن ما فعل   نزلتُ علي عمرو بن درماء بلطة

★ ★ ★

٢٨٢ ـ أنظر الأغاني ١٤ : ١٥٢ ٠

٢٨٣ ـ ديوانه ص ١٦٠ ، وأنظر مديحه سعد بن الضباب ص ٩١ ، وبني عوف ص ٩٠ وأنظر الكامل ١ : ٧١ ، والاغاني ٢٢ : ٢٧٠ و ١٤ : ١٥١ و ٢١ : ١٢ وفي كل هذا شعر يمدح فيه الجيران مجيريهم بصفات متشابهة تؤكد على أداء المجير حقوق جاره ٠

غربة الحارث بن ظالـم

ونسوق فيما يلي قصة تشرد الحارث بن ظالـم وجواره لعدد من القبائل والرجال ، وذلك لأنها تصلح قصـة نموذجية للجار في حاليه مكرما وذليلا ، محفوظ العهد ومغدورا به . ولعل في تشرده الكثير من الدلائل علـى طبيعة النظام في العصر الجاهلي في شتى جوانبه[٢٨٤] :

(وكان الحارث بن ظالم المري قد قتل خالد بن جعفر الكلابي غدرا عند النعمان ـ في قصة رواها أبو الفرج ـ فلحق بتميم فأجاروه . فمكث عند حاجب بن زرارة . وجاءت بنو عامر تطلبه ..... فدعاه حاجب . وأخبره بخبر القوم . وقال : ياابن ظالم . هؤلاء بنو عامر قد أتوك فما أنت صانع ؟ قال الحارث : ذاك اليك ، فان شئت أقمت فقاتلت القوم وان شئت تنحيت ، قال حاجب : تنح عني غير ملوم فغضب الحارث من ذلك فقال :

لعمري لقد جاورتُ في حيٍّ عامـر
ومن وائـل جاورتُ في حـي تغلب

فأصبحت في حـيٍّ الأراقـم لم يقل
لي القوم ياحـارث بن ظالـم اذهب

---

٢٨٤ ـ أنظر القصة في الاغاني ١١ : ٩٨ وما بعد ، وأيام العرب ٣٤٤ وما بعد ، وقد نقلناها بتصرف .

فان تكُ في عليا هوازن شوكة

تخاف ففيكم حدّ ناب ومخلب

وانْ يمنع المرء الزراريّ جاره

فاعجبْ بها من حاجب ثم أعجب

فتنحى الحارث عن بني زرارة ، فلحق بعروض اليمامة .... ثم قتل ابناً للنعمان ، كان في حجر سلمى بنت ظالم ، وهجاه بشعر ، فلحق به النعمان .

وتقول رواية أخرى : انه لما قتل الحارث خالد بن جعفر خرج هاربا حتى أتى صديقا له من كندة .... فلما ألح الأسود بن المنذر في طلبه ، قال له الكندي : ما أرى لك نجاة الا أن ألحقك بحضرموت ببلاد اليمن . فلا يوصل اليك ..... فلما غرّبه نحاه وأبعده ، قال : انني أنقطع ببلاد اليمن فاغترب بها ، وقد برئت منك خفارتي . فرجع حتى أتى أرض بكر بن وائل ، فلجأ الى بني عجل بن لجيم ، فنزل زبّان فأجاره ، .... فجاءت زبان بند ذهل بن ثعلبة وبنو عمرو ابن شيبان فقالوا : اخرج هذا المشؤوم من بين أظهرنا لا يعرنا بشر ، فانا لا طاقة لنا بالملحاء (كتيبة الأسود) فأبت عجل أن تخفره(٢٨٥) فقال الحارث في الكندي وفي بني عجل :

يكلّفني الكنديّ سير تنوفة

أكابد فيها كل ذي صُبَّة(٢٨٦) مثري

٢٨٥ ــ تغدر به وتنقض عهده .
٢٨٦ ــ قطعة من الغنم .

وأقبل دوني جمع ذهل كأنني
خلاة لذهل والزعانف من عمرو

لعمري لا أخشى ظلمة ظالم
وسعد بن عجل مجمعون على نصري

ثم قال لبني عجل إنني قد اشتهر أمري فيكم ومكاني . وأنا راحل عنكم • فارتحل فلحق بطيء . فقال في ذلك :

لعمري لقد حلّت بي اليوم ناقتي
الى ناصر من طيء ، غير خاذل

فأصبحت جاراً للمجرّة منهم
على باذخ يعلو على المتطاول

قال أبو عبيدة : فلما قتل الحارث شرحبيل لحق ببني دارم . فلجأ الى بني ضمرة • قال : وبنو عبد الله بن دارم يقولون : بل جاور معبد بن زرارة فأجاره ، فجرّ جواره يوم رحرحان ، وجر يوم رحرحان يوم جبلة • وطلبه الأسود بن المنذر بخفرته ، فلما بلغه نزوله ببني دارم . أرسل منه اليهم أن يسلموه ، فأبوا فغزاهم ••••••

ثم أسر بنو هزان الحارث ، فخرج من عندهم فجعل يطوف في البلاد حتى سقط في ناحية من بلاد ربيعة ، ووضع سلاحه وهو في فلاة ليس فيها أثر ونام ، فمرّ به نفر من بني قيس بن ثعلبة ، ومعهم قوم من بني هزّان ، فأخذوا فرسه وسلاحه ثم أوثقوه . فانتبه وقد شدوه فلا

يملك من نفسه شيئا ، فسألوه من أنت ؟ فلم يخبرهم •••• فاشتراه القيسيون من الهزانيين بزق خمر وشاة •••• ثم انطلقوا به الى بلادهم. وحاولوا معرفته دون جدوى ، فتركوه في قيده حتى انفلت ليلا . فتوجه نحو اليمامة ••••• فلقي غلمة يلعبون ، فسأل أحدهم أن ينتسب له فقال : أنا بجير بن أبجر العجلي •••• فقال : أنا لك جار . فأخبر الغلام أباه ، فأجاره .

ثم انتقل الحارث الى مكة ، وانتمى الى قريش وقال :

وما قومي بثعلبة بن سعد

ولا بفزارة الشُّعر الرِّقابا

وقومي إنْ سألتَ بنو لؤيٍّ

بمكة علّموا مُضَر الضّرابا

رفعت السيف اذ قالوا قريش

وبينت الشمائلَ والقبابا

ثم لحق الحارث بالشام بملك من ملوك غسان •••• فأجاره .

تلك كانت مقتطفات من فصول الملحمة التي عاشها هذا الشاعر بما فيها من تشرد وغربة ، فهو ما يكاد يجد مجيرا حتى يطرده ، ويفتش عن آخر ، ويتعرض لأهوال ومتاعب كثيرة . ان حياته تعتبر ، بحق ، غربة متصلة ، ولعل فصولها لم تنته الى الآن ، لأنه ما زال غريبا في مثواه الأخير .

★ ★ ★

الفصل الثالث

الغربة عن الذات

١ ـ الغروج على العصبية القبلية

آ ـ الانصراف عن واجبات العصبية

ب ـ الاستهتار

(دراسة غربة طرفة بن العبد)

٢ ـ الحنين الى الماضي

آ ـ الطلل : (دراسة أطلال عبيد وامرىء القيس)

ب ـ الشيخوخة (دراسة شيخوخة عبيد والجميح)

ج ـ تغير الدهر

٣ ـ الغربة بعد الموت

٤ ـ الغربة الدينية

رأينا في الفصلين السابقين أن أسباب الغربة كانت اجتماعية . ليس للانسان يـد في صنعها أو افتعالهـا . وسنرى في هذا الفصل أن سبب الغربة ذاتي ، وقد لا تكون الذاتية مفتعلة ، وقد يكون للمجتمع أثر غير مباشر فيها ، ولكن العامـل الذاتي يتدخل بقوة ، فقد رأينا في الفصل السابق بعض الغربان يتمردون على واقعهم طلبا للحرية . ويسلك غيرهم طريقا أخرى ، بينما يقبع آخرون راضين بذلهـم وعبوديتهم . وسنرى هنا أيضا المستهتر الذي لا يلتزم بأخـلاق القبيلة وأعرافها ، ولكن اذا بحثنا فاننا سنجد أثرا غير مباشر للمجتمع . وهذا طبعا سيوصلنا الى أثر المجتمع الأساسي في صياغة الفرد . الا أننا سنجد غربة ذاتية نجمت عن موقف متفرد . للشاعر الجاهلي من المجتمع والكـون[1] . ومهما يكن الأمر ، فاننا سنجد هنا غربة متميزة . ونحن ان كنا آثرنا تسميتها غربة عن الذات ، فانهـا ليست كذلك دائما ، الا اذا اعتبرنا الخروج علـى العصبية ، خروجا على الـذات الاجتماعية . وبهذا فنحن ملزمون فقط بهـذا المفهوم فيما يتعلق بالخروج علـى العصبية القبلية . انصرافا عن واجباتها ، أو استهتارا بقيمهـا ، لأن الشاعر في كـلا الحالين يعبر عن سخط فردي تجاه مسألة اجتماعية . والدافع اجتماعي أيضا . وسنرى أن المجتمع ، لظروف ما . كان يدفع الانسان لاتخاذ موقف منه[2] .

★ ★ ★

---

١ ـ أنظر الغربة الدينية في هذا الفصل ، مثلا .

٢ ـ رأينا هذا في الفصلين السابقين أيضا .

١ ـ الخروج على العصبية القبلية

آ ـ الانصراف عن واجبات العصبية

يأخذ الخروج علـى القبيلة معناه من التزام فرد . أوفر احساسا ، بضيق الحياة وعبثيتها ، فينعكس ذلك في سلوكه وشعره على شكل من الاستبطان والمشاقة اللذين يعبران عن حدة التشوف ، مـع استشعار العجز عن تبديل الواقع أو تحويره أو تطويره ، فلا يجد المـرء حينئذ أمامـه سوى ظاهرة عـدم الانتماء التي يعارض من خلالها ، بالموقف السلبي أو اللامبالي ، قيماً وتقاليد راسخة[٣] .

وقد تجلى موقف الفرد في الخروج على القبيلة في مظاهر متعددة ، عبر من خلالها عن ضيقه بتقاليدها وتململه ، وان ظهر هذا بشكل فردي أحيانا . فقد شعر بأن مجتمعه لا يحمل القيم التي يستطيع الاستمرار من خلالها ، وأحس بالخطأ في تركيبه الطبقي والاجتماعي والثقافي ، الديني بشكل خاص ، ولهذا فقد دعا الى التمرد من خلال ذاته ، وربما أخذت الدعوة صورا اجتماعية . وتجلى هـذا مثلا في دعوة زهير الى السلم . وموقف امرىء القيس من بني أسد ، كاد يقبل دية أبيه لمعرفته بموقف أبيه الظالم ، لولا العرف الاجتماعي ، والشعور بحاجة الى من يسوس الناس بمنطق جديد ، لكن هـذا لا يتحقق بالدعوة فقط ، ولهذا عبر

---

٣ ـ أنظر مدخل الى الادب الجاهلي ص ١٨١ .

الشاعر الجاهلي عن احتجاجه فانصرف عن واجبات العصبية واستهتر بقيم المجتمع . وربما تمرد على مفاهيمه الدينية .

ونبدأ من القبيلة ، وقد مر بنا في دراستنا للنظام القبلي في المجتمع الجاهلي ، أن الفرد في القبيلة مطالب بواجبات يؤديها لعصبيته . ولكنه أيضا يطالب قبيلته بحقوقه عليها . ان منطق العصبية يفترض أن يأخذ الفرد حقه ضمن اطـار قبيلته ، فاذا حصل أن هضم المجتمع حقا مـن حقوقه ، فانه يحتج على هذا المنطق . وهذا الظلم . ويخلص الى التصدي لمنطق القبيلة والخروج عليه . وهنا يقع المـرء بين أمرين : قبول منطق القبيلة والتمسك بالعصبية ، أو الانتصار للمنطق الفردي والخروج على العصبية . وسنجد نماذج متعددة لهذا الصراع . ويطالعنا أولا حريث بن عامر[4] فقد عمد بنو قطن . قومه الى أكل ماله . ويقف الشاعر في مجابهتهـم . ويعلن أنه سيرد الصاع صاعين . وهناك اشارة لطيفة في البيت الثالث . فهو ينسب نفسه الى أمه دلالة علـى غضبه من بني أبيه وتبرمه بهم :

أرى قومي بني قَطَن أرادوا
بألاّ يتركـوا بيـديَّ مـالا

فإنْ لـم أجْزهم غيظـاً بغيظ
وأوردهم على عجل شلالا[5]

فليتَ التغلبيـة لـم تلـدْني
ولا أغنتْ بما ولدت قبـالا[6]

---

٤ ــ الأغاني ١٩ : ٢٧ .
٥ ــ متفرقين .
٦ ــ بما يقبل ، وأنظر طرفة (شعراء النصرانية ٢٩٨) .

ويعلن الشاعر غضبته أحيانا على قومه لأنهم خرجوا على منطق العصبية ، ولكن بطريقة أخرى . والذي يبدو من سياق البيتين التاليين أن قوم الشاعر قد قبلوا صلحا وديات ، ولم يثأروا لقتلاهم . فيسخر الشاعر منهم ويحملهم عار ما يفعلون بل انه يعلن خروجه على ما قرروا . وعدم انتمائه لهم[٧] .

فان أنتمُ لم تفعلوا واتديتم
فمشوا بأعراف النعام المصلّم

ولا تشربوا الا فضولَ نسائكم
اذا ارتملت أعقابهنّ من الدمِ

ويهدد المتلمس قومه معيراً اياهم . مذكرا بالهوان الذي يلاقونه من حكم عمرو بن هند ، وهم يقومون على الهوان الذي لا يرضى به الا الحمار والوتد . والأبيات مشهورة حتى صارت مضرب الأمثال[٨] :

إنّ الهوان حمارُ القوم يعرفه
والحرّ ينكره والرّسلة الأجد

كونوا كبكر كما قد كان أولكم
ولا تكونوا كعبدِ القيس إذ قعدوا

ولن يقيمَ على خسفٍ يسام به
الا الأذلانِ عيرِ الحي والوتد

٧ ـ الحماسة ، البحتري ، ص ٩ والشعر للقتال الكلابي .
٨ ـ المصدر السابق ص ١٩ ، وشعراء النصرانية ٣٤٣ .

هذا على الخسف مربوط برمته

وذا يُشج فما يرثي لـه أحـد

ويقتل قوم رجلا من قومه . وقد مر بنا أن القبيلة تطارد وتخلع من يفعل هـذا . فما بالك اذا كان المقتول من أسـرة معروفة ؟ . فقد قتل الشيظم بن الحارث الغساني رجلا من قومه ، وكان المقتول ذا أسرة ، فخافهم فلحق بالعراق (أو بالحيرة) متنكرا . وكان من أهل بيت الملك . فكان يتكفف بالناس نهاره ويأوي الى خربة من خراب الحيرة . فبينما هو ذات يوم في تطوافه ، اذ سمع قائلا يقول[٩] :

لحى الله صعلوكاً اذا نال مذقـة

توسد إحـدى ساعـديه فهو مـا

مقيما بدار الهـون غـير مناكـر

اذا ضيم أغضى جفنه ثـم برشمـا

فذاك الذي إن عاش . عاش بذلـة

وانْ مات لم يشهد له الناس مأتما

بأرضك فاعركْ جالـد جنبك انني

رأيت غريب القوم لحمـاً موضّمـا

ان حياة الذل التي عاشها هذا الشاعر ، صنعها بنفسه ، فهو الذي أقدم مختارا على قتل رجل من قومه متحديا قانون العصبية ، خارجا عليه ولهذا فقد نال جزاءه غربة قاسية .

---

٩ ــ كتاب ذيل الامالي والنوادر ، القالي ص ١٧٩ .

ويشعر الجاهلي بغربة قاسية حين تفضل القبيلة رجلا غريبا عليه . وعلى الرغم من انتمائه اليها والتزامه بواجبات العصبية . فقد فضل قومه رجلا غريبا ، مع حاجته الماسة الى مساعدتهم . فقد روى الضبي [١٠] أن أفنون التغلبي قد سأل قومه أباعر فخيبوا أمله فيها ، ولم يتحملوا عنه ديات من قتلهم . وكان رجل يدعى ابن سوار طلب منهم أباعر فأعد وحاله ولم يضنوا بها . فقال هذه القصيدة يعاتب قومه ، ويذكر أنه لو كان من قبيلة أخرى ما فرطت في جنبه هذا التفريط .... :

أبلغ حبيباً [١١] وخلل في سراتهم
أن الفؤاد انطوى منهم على حزن

قالوا [١٢] علي ولم أملك فيالتهم
حتى انتحيت على الأرساغ والثنن [١٣]

سألت قومي وقد سدت أباعرهم
ما بين رحبة ذات العيص والعدن

اذ قربوا لابن سوار أباعرهم
لله در عطاءٍ كان ذا غبن

أنى جزوا عامراً سوءًا بفعلهم
أم كيف يجزونني السوأى من الحسن

---

١٠ ـ المفضليات ٦١ .
١١ ـ قومه .
١٢ ـ أخطأوا .
١٣ ـ الشعر في مآخير الحوافز . والمعنى أنه لما أخطأ قومه في أمره ، لجأ الى أراذل الناس .

ولنتأمل الآن موقف جليلة بنت مـرة ، أخت جساس ، فقد كانت زوجة كليب وائل ، كما نعلم ، وقد قتل أخوها زوجها[١٤]. وحين بلغها الخبر وقعت في حيرة ، فقد طردتها أخت كليب لأنها أخت القاتل ، ولو سئلت رأيها بما حصل لما رضيت به ، فقد قوّض أخوها أركان بيتها العامر[١٥]. لقد جرت قبيلتها عليها هذه المصيبة.فهي تعبر عن استنكارها لفعل أخيها في أبيات مؤثرة تظهر غربتها ، ورفضها لمنطق العصبية الذي وضعها في هذا المأزق[١٦] :

يا ابنةَ الأقوام إنْ شئتِ فــلا تعجلي باللوم حتّى تسألي

جــلّ عندي فِعلُ جساس فيا حسرتي عمــا انجلتْ أو تنجلي

فعلُ جساس على وجــدي به قاطعٌ ظهــري ومُدْنٍ أجلي

يا قتيــلا قوّض الدهــرُ بــه سقفَ بيتيَ جميعا مِن عَل

هــدم البيت الذي استحدثته وانثنى في هــدمِ بيتي الأولِ

. . . .

---

١٤ ـ أنظر القصة مفصلة في الاغاني ٥ : ٦٣ .
١٥ ـ تجدر الاشارة الى العز الذي كانت تحياه في ظل كليب .
١٦ ـ الأبيات في الرد على أخت زوجها .

ويعلن قعنب بن أم صاحب غضبه على قومه وخروجه عليهم وعلى منطقهم وأساليبهم التي يتبعون ، فهؤلاء القوم صديق ولكن لا عهد لهم ولا ذمة . يسعون الى الفضيحة دون الستر ، ويكتمون الخير مظهرين الشر ، ولهذا حلت البغضاء بينهم وبين الشاعر محل الود . فهو يهجوهم بقلة العقل والتفكير ، وبالجهل على قومهم والجبن أمام أعدائهم . ويشتمهم لأنهم أهل للشتيمة ، بل ان يعلن خروجه عليهم . فما فائدة انتمائه اليهم وهم على هذه الحال ؟ ان الانسان يعيش بينهم غريبا ، وكأنه في قوم غير قومه[١٧] :

ما بالُ قوم صديقاً ثم ليس لهم
عهدٌ وليس لهم دين إذا ائتمنوا
صمٌّ اذا سمعوا خيراً ذُكرتُ به
وان ذُكرتُ بسوء عندهم أذنوا[١٨]
ولن يراجع قلبي ودّهم أبدا
زكنتُ[١٩] منْ بغضهم مثل الذي زكنوا

ويدعو الأفوه الأودي الى مجتمع جديد ، لا تحكمه العصبية ، وانما حكومة مركزية تسوس الناس جميعا وذلك من خلال انتقاده للمجتمع القائم ، اذ ان منطق العصبية يساوي الجاهل بالعالم والغاوي الضال بالرشيد المصلح . فلا خلاص اذا الا بالخروج على منطق العصبية الظالم والبحث عن مجتمع آخر[٢٠] :

---

١٧ ـ ابن الشجري ١ : ٧ .
١٨ ـ سمعوا .
١٩ ـ علمت .
٢٠ ـ مدخل ١٣١ .

فينا معاشرُ لم يبنوا لقومهم
وانْ بنى قومهمْ ما أفسدوا عادوا

لا يرشدون ولنْ يرعوا لرشدهم
فالغيّ منهم معا والجهل ميعادُ

لا يصلح الناسُ فوضى لا سراة لهم
ولا سراة اذا جهّالُهم سادوا

. . . .

حان الرحيلُ الى قوم وان بعدوا
فيهم صلاح لمرتادٍ ومعتاد

فسوف أجعل بعْدَ الأرض دونكم
وانْ دنتْ رحم منكم وميلاد

انه حين لم يجد المجتمع الذي ينشد ، قرر أن يترك قومه خارجا عليهم ، ويعيش غريبا في بلاد غريبة(٢١) . ولعلها كانت حلماً يطمح الشاعر أن يتحققه يوما ما .

---

٢١ ــ أنظر ديوان عبيد بن الأبرص ٦٦ ، والهجاء والهجاؤون د.م. محمد حسين ، وفيه توجيه من الشاعر للانسان القبلي يوضح له فيه كيف يكون انسانا قبليا ممتازا ، ولعله من باب آخر ينتقد الوضع القائم ضمن اطار العصبية .

ب ـ الاستهتار

ويحس الشاعر احساسا عميقا بوطأة القبيلة ورتابة حياتها وبؤس تقاليدها . فيستهتر بهـا . فتتحاماه القبيلة . ويفرد أفراد البعير المبعـد ـ كما قال طرفة بن العبـد ـ • ويأتي الاستهتار في المرحلـة التالية للانصراف عن العصبية ، فحين ينصرف المرء عن قبيلته ، تنصرف هي أيضا عنه ، فيستهتر بها وبتقاليدها عامدا ، ويصبح عندها غريبا متمردا . وان كان ما يزال يحيا ضمن القبيلة ، وغربته هذه ، وان كان منشؤها ذاتيا ، تؤثر فيها مؤثرات اجتماعية غير مباشرة •

والمستهتر بالقبيلة والعصبية سيقوم ، دون شك ، بأفعال ، ويتخذ مواقف تخالف منطق القبيلة والعصبية • فقد يكون أميرا ، ويتصرف تصرف الصعاليك •

ولنأخذ امرأ القيس مثلا ، فقصة حياة هذا الشاعر الكندي الأمير • ترينا أنه ، منذ نعومة أظفاره ، قد عاش بطريقته الخاصة مخالفا رغبات أبيه وقبيلته وقيل انه بلغ من استهتاره أن دفعه أبوه الى من يقتله ويأتيه بعينيه ، وانه قبلها قد حبسه وضربه عدة مرات . ذلك لأنه كان يتصعلك ويشرب الخمر ويخرج للصيد مع شبان من أمثاله من صعاليك العرب ، ويطوفون بالأحياء عابثين سكارى ، همهم اقتناص فتاة أو شـاة . ثـم يتحلقون حول المائدة التي تحوي الأشربة فيلهون غير عابئين بما يجري حولهم ، منصرفين عن القبائل التي ينتمون اليها وعن شؤونها المختلفة ، وقد حدثنا[٢٢] أبو الفرج نقـلا عن ابن الكلبي أن امرأ القيس « كان يسير في أحياء العرب ومعه أخلاط من شذاذهم من طيء وكلب وبكر بن وائل ، فاذا صادف غديرا •••• فتصيد ثم عـاد فأكل وأكلـوا معه ، وشرب الخمر وسقاهم وغنته قيانه •••• » •

---

٢٢ ـ الاغاني ٩ : ٨٧ •

« ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء ذلك الغدير .... فأتاه خبر أبيه ومقتله وهو بدمون من أرض اليمن ... » .

ومما يدل على استهتاره وعبثه ، أنه كان سلبيا ازاء قضايا المجتمع . وقد دلل على عدم قدرته تجاوز المشكلة الى العمل النافع . وكان كل شيء ينتهي عنده بالعدم واليأس لقد كان ، في الحقيقة ، منهزما أمام التآلف مع القبيلة . وقد عبر عن هذا في حديثه للذئب ، اذ أعلن أن كل طرائقه في الحياة تنتهي بالضياع وعدم التوائم[٢٣] :

واد كجوف العير قفر قطعته
به الذئب يعوي كالخليع المعيل[٢٤]

فقلت له لما عوى إن شأننا
قليل الغنى إن كنت لما تمول

كلانا اذا ما نال شيئا أفاته
ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل

وفي شعر امرىء القيس الكثير الذي يدل على استهتاره ، بل أن حياته التي عبر عنها شعره ، كلها حياة استهتار ، الى أن جاءه نبأ موت والده ، فعاش غربة أخرى أشد مرارة ، تناولنا جزءا منها وسنتناول الجزء الآخر لاحقا .

---

٢٣ ـ أنظر : معلقة زهير والبنية الاجتماعية في العصر الجاهلي . وديوان امرىء القيس ص ١٣٢ ، وشرح القصائد العشر ٥٨ .

٢٤ ـ ذو عيال .

ونسمع في الشعر الجاهلي عن قصص عشق ، يرويها أبو الفرج في أغانيه ، وهذه القصص تكاد تقرب من قصص الغزل العذري ، التي لم تكن معروفة في العصر الجاهلي ، لا بل ان التقاليد الجاهلية لم تكن تسمح بهذا النوع من العشق ، الذي يضحي فيه الانسان بكرامته ونفسه . ولا يستطيع العاشق صبرا فيبوح بعشقه مستهترا بالعرف القبلي ، معلنا غربته عن هذه الأعراف وانتماءه لعشقه .

وأول عاشق يطالعنا هو عبد الله بن العجلان فقد كان متزوجا ، ثم طلق زوجته لأنها لم تنجب له ، ولكنه شعر بأنه ما يزال يحبها ولا يستطيع فراقها ، فندم وأسف لفراق زوجته هند أسفا كبيرا لأنه فارقها طائعا ، وهو يبكي هذه الزوجة الحبيبة الجميلة(٢٥) :

فارقتُ هنداً طائعاً ... فندمتُ عند فراقها

فالعينُ تذري دمعةً ... كالدُّرِّ مِنْ آماقها

ويروي أبو الفرج بقية القصة . فيذكر أنه مات وهند في ديار زوجها الثاني في بني عامر . بل لعل في قصة حب المرقش الأكبر لأسماء ، دليلا على هذا(٢٦) .

ونأتي الى الخمرة وتعاطيها . فهي تمثل بابا آخر من أبواب الاستهتار ـ والانصراف من تقاليد القبيلة ، ولونا آخر من ألوان الغربة ، ينفصل فيه الانسان عن الواقع بكل ما فيه ، وينفصل عن ذاته المثقلة بالمجتمع . ولعل شيوعها في العصر الجاهلي ، على النحو الذي نجده في الحياة

---

٢٥ ـ الاغاني ٢٢ : ٢٣٨ .

٢٦ ـ في الاغاني قصة حب المرقش الاكبر ابنة عمه أسماء ٦ : ١٢٩ وما بعد وشعر له فيها وشعراء النصرانية ٢٨٣ ، وقصة عشق مسافر بن أبي عمرو بن أمية هند بنت عتبة ، ومرضه ثم موته بعد زواجها من أبي سفيان .

والشعر ، يدل على ما كان يختلج في ضمير المجتمع من رغبة في الاستقلال ومن تعبير عن الفردية المتململة[٢٧] . ولعل الأعشى يكون في رأس هذا الباب فقد رأى أن يتحامى مأساوية الحياة على طريقته الخاصة ، وأشهر في وجـه المجتمع الذي يلومه سلاح التحدي والاستهزاء وحتى الشتم بحيث أن الخمرة قـد أصبحت موضوعا مستقلا في شعره ، يفرد لهـا القصائد الكاملة . انه يوجه في شعره الخمري حديثه الى الناس (المجتمع) ويشعرهم بأنه متميز عنهم ، ومفارق لما ألفوه وتواضعوا عليه[٢٨] :

وكأسٍ شربتُ علـى لذَّةٍ   وأخرى تداويتُ منها بهـا

لكي يعلمَ الناسُ أني امرؤ   أتيتُ المعيشةَ مِنْ بابهـا

ولا يكتفي الأعشى بهذا ، بل يتخيل مجتمعا آخر من خلال مجالس الخمرة ، وهذه المجالس صورة مختلفة عن مجالس القبيلة ، لا تنتبه الى صوت التقليـد الذي تواضع الناس عليه ، بل تعتبره نباحـا آدميا . والشاعر في مجلسه الجديد لا يلتفت الى تلك المجالس بل يعتبرها مجالس قديمـة لأناس مضوا ، أما هـذا العصر فهـذه هي مجالسه (مجالس الخمرة)[٢٩] :

في شبابٍ كمصابيح الدّجـى   ظاهرُ النعمة فيهم والفرَحْ

رجـح الأحـلام في مجلسهم   كلما كلبٌ من الناس نبَحْ

ذاك دهرٌ لأُناسٍ قد مضوا   ولهذا الناس دهرٌ قد سنَحْ

---

٢٧ ـ أنظر مدخل الى الادب الجاهلي ٢٤٢ وما بعد .

٢٨ ـ ديوان الأعشى ، ص ٢٤ .

٢٩ ـ المصدر نفسه ص ٤١ .

ويحدثنا احسان سركيس عن استهتار الأعشى فيقول : « ويذهب بعض الباحثين الى التنويه باستهتار الأعشى ، ولدى الأعشى منه الشيء الكثير ، ولكن هذا الاستهتار ينطوي على حقيقتين انسانيتين : أولاهما أن الاستهتار ، كالسخرية والضحك ، رحمة تخلصنا ، في أحيان كثيرة ، من عناء الحياة وتفاهتها وقباحتها ، وثانيتهما أن الاستغراق في الحسي والملموس ، كشكل من أشكال الاستهتار المعن في تحديه ، انما يوقظ حس الانسان بمعاناته الوجودية . فالشاعر وصحبه لا يجرون على سنة التقليد ولا يرعون له حرمة لأن لهم وعياً آخر لمعنى الحياة وقيمها ، وما خمرتهم الا رمز اللذة الحسية التي تتلبس وجودية حسية يترجم عنها موقف فردي ليس له في حينه معبر الى الجماعة التي يتصورها . فهو في عزلة النخبة عن سواد الناس »[٣٠] .

ولعلنا ، في الصفحات التالية ، نوضح بصورة جلية صورة الاستهتار والخروج على القبيلة كما بدت في شعر المتمرد والمستهتر المتفرد في الشعر الجاهلي ، طرفة بن العبد .

★ ★ ★

---

٣٠ ـ مدخل الى الأدب الجاهلي ٢٤٣ .

غربة طرفة بن العبد

لعل في حياة طرفة الشخصية وفي الوسط الذي عاش فيه والظروف التي تقلب فيها ، ومشكلات حياته مع أمه واخوته ، وسوء معاملةأعمامه لهم • بعد وفاة أبيه ، لعل في كل هذا ما كون شخصية الشاعر الحساسة القلقة ، والذكية في الوقت ذاته • واذا أضفنا الى هذا أنه كان ذا نسب معروف ، عرفنا سبب موقفه من الحياة والمجتمع •

فلقد أدرك طبيعة الحياة القبلية في جوهرها ، ورفض ما كان الناس يؤمنون به ايمان الراضي الواثق ــ ينظر هنا الى تأثير جو الحيرة على تكوينه من بعد ــ ولئن كنا قد رأيناه متمثلا بعض قيم القبيلة فان هذا من باب ايمانــه بمجتمع لا تنتفي فيه القيم ، ولكن ينتفي فيه الظلــم وسيطرة القوي اقتصاديا وعشائريا[٣١] ولكنه على كل حــال يعبر عن التمرد بطريقة واضحة لا مواربة فيها ، انه اذ يلتزم بواجبات القبيلة فانه يعتبرها ميزات الفارس الذي يريد ، لكنه في تمرده يطلق العنان لنفسه فيأخذ من ملذات الحياة الشيء الكثير على نحو صارخ •

وقبل أن ندرس قصيدته (المعلقة) فلنتأمل في طفولته • فقد ترعرع الى جنب والدته يعانيان من ظلم أعمامه وقسوتهم ، وقد أورى به ذلك شعورا بالنقمة واحساسا بالتخاذل والبؤس • مات أبوه وطرفة ما يزال

---

٣١ ــ ينظر هنا لموقف ابن عمه منه •

صغيرا فأبى أعمامه أن يقسموا ماله وظلموا حقا لأمه ، وكان اسمها وردة فقال[٣٢] :

ما تنظرون بحقِّ وردةَ فيكمُ
صِغرُ البنون ورهط وردة غُيَّبُ

قد يبعثُ الأمرَ العظيم صغيرهُ
حتى تظلَّ له الدماء تصبَّبُ

والظلمُ فرَّقَ بينَ حيَّيْ وائلٍ
بكرٌ تُساقيها المنايا تغلِبُ

ويعبر احسان سركيس عن هذا بقوله : « وهكذا كان طرفة يعاني في المحيط الذي نشأ فيه ، حياة مضطربة يتجاذبها القلق واستشفاف سبل يمكن أن تفضي الى صوغ الحياة صياغة جديدة من خلال تيارات متضاربة تدعو للانقطاع عن الماضي أو الاستمساك به . والقلق المصيري لدى طرفة هو قلق جميع الناس الذين تفردهم حساسيتهم في مثل تلك الفترة ، للترجح بين الانتماء وعدم الانتماء ، وهو في كل ذلك يصدر عن وجدان عميق بأن الحياة ، لم تعد جديرة بأن تعاش . وشعوره هذا بعدم الجدوى كان يوقعه فريسة هذه اللذات وما يرافقها من الاستهانة بالكثير من القيم السائدة ، ومن ثم ، ما يتخايل من قرب النهاية . »[٣٣]

يستنهض طرفة اذا فرديته كي تؤكد وجودها وتأثيرها في المجتمع ، ولتحمل المجتمع على الاعتراف بها . وحين يصعب الأمر ، وهذا ما حصل

---

٣٢ ــ ديوان طرفة بن العبد ، ص ٢٣ .
٣٣ ــ مدخل الى الأدب الجاهلي ص ٢٤٥ .

فعلا ، يحصل الارتكاس ، اذ لا يمكن لفرد أن يعارض نظاما اجتماعيا معينا ، ويعبر الارتكاس عن ذاته من خلال المجاهرة بالتمرد وانتهاب اللذة . فلذة طرفة اذا شعور بالتحدي مقترن بالسخرية من التقاليد والأعراف والمعتقدات ــ سخريته بالهامة مثلا ــ وبذلك نفسر موقفه من الحياة والموت .

ونأتي الى القصيدة ، ونمر بأطلال خولة وناقة الشاعر كي نصل اليه. فاذا بنا نجده يحضر أندية القوم ، ويشرب في الحوانيت ، وهو يقدم لك كأسا ، ويجلسك الى نداماه وقينته ، ويصف لك القينة ، ثم يشرع في الحديث عن شربه الخمرة وافراطه في شربها والتبذير لماله . الى أن تتحاماه العشيرة ، وتفرده كما تفرد البعير الأجرب[٣٤] :

وانْ تبغني في حلْقةِ القوم تَلْقَني
وانْ تقْتَنصني في الحوانيت تصْطدِ

متى تأتِني أصبحْكَ كأساً رويَّةً
وانْ كنتَ عنها ذا غنى فاغْنَ وازدَدِ

نداماي بيضٌ كالنجوم وقينةٌ
تروحُ علينا بينَ بُرْدٍ ومجسَدِ

. . . .

وما زال تَشْرابي الخمور ولذّتي
وبيْعي وإنْفاقي طريفي ومُتْلدي

---

٣٤ ــ أنظر الأبيات من قصيدته المعلقة في ديوانه ص ٢٧ وما بعد ، وشعراء النصرانية ٣٠٢ وما بعد ، وشرح القصائد العشر ١٢٠ وما بعد .

الى آنْ تحامتْني العشـيرةُ كلـُّهـا

وأفردتُ إِفـرادَ البعـير المعبَّد

لا يغيب طرفة اذا عن حلقة القوم ، كما أنه لا يغيب عن الحوانيت . ومعنى هذا أن الشاعر يريد أن يدخلنا الى عالمه المتناقض دفعة واحدة . وفي بيت واحد ، انه من سادة القوم ، وهو فارس مقدام يكر اذا نودي للحـرب :

وكَرِّي اذا نـادى المضـافُ مُحنَّبا

كسيد الغَضـا ، نبَّهْتَهُ ، المتوردِ

ولكنه في الوقت ذاته ليس راضيا عن منطق المجتمع ، ومن تم منطق الحياة . فالمعاناة التي عاشها الشاعر في قومه وفي حياته ، أوقعته في هذا التناقض ، فلا هو راض عن حياته ضمن مجتمعه،ولا هو واجد الخلاص في مجتمع آخر . انه يهرب اذا الى حياة لاهية عابثة مكرها . وربمـا متحديا ، مجتمعا لـم يستطع تغييره . الخمر والمرأة يضعها الى جانب الفروسية ، بل انه يجعلهما من ميزات الفارس . ويضيف اليهما الكرم الذي هو تنيجة للشرب ، فمن يشرب لا بد أن يبذر .

ويتحد موقف طرفة من القبيلة بموقفه من الحيـاة . فهو ــ أن لم يستطع أن يحقق ذاته في مجتمعه ــ يعلم أيضا أن الانسان (غير مخلد) ولهذا فهو ينتقم من المجتمع والحياة معا ، فيسعى لتحقيق ذاته وفرض وجوده بالفروسية واللذة ، وبهما وحدهما ينتصر ويتجاوز منطق المجتمع والحياة معاً :

ألا أيـُّهـذا الزّاجـري أحضر الوغـى

وأنْ أشهدَ اللذاتِ هلْ أنتَ مُخْلدي ؟

فانْ كنتَ لا تستطيع دَفْع منيّتي

فدعْني أبادرْها بما ملكَتْ يدي

انه لا يجد للحياة معنى . بعد هذا . الا بالخمرة والمرأة والفروسية. فبالخمرة يهرب من واقعه وينفصل عنه وعن ذاته المتأثرة به ، وبالمرأة ينتصر على الموت من خلال اللذة . وبالفروسية ينتصر على القبيلة اذ يعلن أنه ليس بأقل من أي فارس شجاع فيها :

فلولا ثلاثٌ هنّ من عيشة الفتى

وجدّك . لم أحفل متى قام عوّدي

فمنهن سبقي العاذلات بشربة

كميتٍ متى ما تعلَ بالماء تزبد

وكري اذا نادى . . . .

وتقصيرُ يوم الدجْنِ والدجنُ معجب

ببهكنةٍ تحت الطّراف المعمّد

وهنا يختلف الأمر . فالقبيلة تسمي ما يفعله طرفة استهتاراً ، ويسميه طرفة حياة ، بل فهما جديدا للحياة مغايرا للفهم السائد .

لقد آمن بقرب الموت . وأن الجميع يتساوون تحت التراب ، وأن الانسان اذا مات فقد كل شيء وكل صلة بالعالم ، ولهذا فهو يسخر من أعراف ومعتقدات الناس أنه سيروي هامته في حياته . وهذا تجد سافر

لمعتقدات مجتمعه . فالانسان له حياته التي يعيش ولا شيء بعدها[٣٥] ويمعن طرفة بالسخرية من الناس والحياة . ويمعن في الاستهتار حين يواجه الناس بالحقيقة التي لخصها وأكدها في قوله بأن الانسان يصير تحت التراب فلا ينفع مال جمعه بخيل ، ولا تؤثر غواية جناها مفسد ، بل ان الموت يأتي الى الكرام فيأخذهم . ويأخذ مال الفاحش المتشدد في فحشه ، والموت ، سيف مصلت على رقاب الناس ، والكل مربوطون بحبل اليه ومتى أراد انساناً جذبه :

فذرْني أروّي هامتي في حياتها
مخافةَ شُرب في الحياة مصرَّد

كريمٌ يروّي نفسه في حياته
ستعلم . إنْ متنا غدا ، أينا الصدي

أرى قبر نحّام بخيلٍ بماله
كقبر غويٍّ في البطالة مُفسد

. . . .

أرى الموتَ يعْتام الكرام ويصطفي
عقيلة مال الفاحش المتشدِّد

. . . .

٣٥ ـ تجدر الاشارة الى أن الجاهليين كانوا يعتقدون أن الانسان ، اذا قتل ، فان روحه تتحول الى طائر يسمى الهامة ، وأنها تظل تصرخ فوق قبره : اسقوني حتى يثأر له .

لعمركَ إنّ الموتَ ما أخطأ الفتى

لكالطِّوَلِ المُرْخى وثِنْياه باليد

ويلخص موقفه من قبيلته بالذي كان بينه وبين ابن عمه مالك ، فابن العم هذا ، أو القبيلة ، قد حرم الشاعر من كل حق ثم لم يكتف بهذا بل انه ما ينفك يلومه ، لأنه لم يقدم شيئا ، فلم يطالب بكل شيء ، حتى حق الاشراف على شؤونه الخاصة ؟ انه يخاطب القبيلة من خلاله فهو قد التزم بكل واجبات العصبية ، ولما لم يلق الا الانصراف عنه والا الازورار ، قرر أن يستهتر من جانبه وأن يرفض كل منطق تتمسك به القبيلة ، فهي ان لم تمنعه الخير فلتكف شرها عنه ، انه لا يطلب منها شيئا ، ولكنه لا يقبل أبدا أن تطلب منه الالتزام بمنطقها ، اذ للشاعر أيضا منطقه ، بل انه يستطيع أن يحاج القبيلة ، فالكل يعلم أن الظلم لوجاء من الغريب لكان أمرا طبيعيا ، ولكن أن يأتي من القريب فهذا ما لا يمكن تصوره أو قبوله .

فمالي أراني وابن عمّي مالكاً

متى أدنُ منه ينأ عنّي ويَبْعُدِ

يلومُ وما أدري علامَ يلومُني

كما لامني في الحيَّ قرطُ بن أعبد

وأيأسني مِنْ كلِّ خير طلبتُه

كأنّا وضعناه على رمس ملحَد

. . . .

وظلم ذوي القُربى أشدّ مضاضة
على المرء مِن وقع الحُسام المهنّد

فذرْني وعِرضي إنني لــك شاكرٌ
ولو حــلّ بيتي نائياً عند صَرغَد

ويكمل الشاعر فصول غربته حين يتحدث عــن غربته بعد موته ، وهذا ما سنتعرض له فيما بعد •

* * *

٢ ـ الحنين الى الماضي

الحنين الى الماضي محاولة للانعتاق من وطأة الحاضر ، وهو غربة عن الواقع (الحاضر) . فحين يشعر المرء أن حياته قد قست عليه فانه يجد متنفسا بالهروب منها الى الماضي ، وعلى كل حال فلهذه المقولة أمثلتها الكثيرة في واقع الفرد والمجتمع ، اذ يحس المرء بثقل الحياة ومآسيها فيهرب الى الذكريات الجميلة أو الحزينة . فالذكريات الجميلة تشعره بنوع من الاطمئنان الى أنه ان كانت حياته الحاضرة قاسية ، فانه قد مرت به أوقات عاش فيها حياة هانئة سعيدة ، فترضى نفسه ويقر عينا . وربما تذكر الانسان لحظات حزينة ليعمق حزنه باللحظة التي يحيا ، وهو يسترجع اللحظات الاليمة التي مرت به ، فيزيد حزنه حزنا ، ولكنه على كل حال يهرب من واقعه . فقد يصالح نفسه التي تشعر بوطأة الحياة عليها حين يذكرها بواقع مرّ بها أسوأ من هذا الواقع .

ويضيق المجتمع ، بواقعه السيء فيذكر أمجاده السالفة يستجمع منها شجاعته لمجابهة الحياة وقسوتها ، وربما يصالح نفسه أيضا ، اذا استجمع ذكريات حزينة . وفي كلا الحالين فانه يحتاج لهذه العودة للانعتاق من الحاضر فيسرّي في هذه اللحظات عن نفسه .

فالانسان الجاهلي يقف على الطلل ، الذي يمثل له الحياة السالفة التي عاشها بكل ما فيها ، ويستعيد الشيخ ذكريات صباه فيبعث في نفسه الحياة متجددة فتية ، وتستعيد الامة (المجتمع) ذكريات حياتها السالفة

فتندب واقعها وتشحذ من عزيمتهـا حين تذكر عزها السالف . ونحن سنفصل الحديث في الطلل والشيخوخة وتغير الدهر . وربما وجـدنا نماذج أخرى من الحنين الى الماضي ، سنذكرها في حينها . ولكننا نشير، في البداية ، الى أن هذه الغربة عن الذات . هنا ، دافعها ذاتي ، والتعبير عنها ذاتي أيضا ، اذ ينفصل الانسان عن ذاته وواقعه الذي يحيا ليعيش في عالم يرسمه له خياله . هذا العالم تلغى فيه صنوف القهر التي يحياها، وتلغى وطأة الواقع عليه . ان الانسان ، حتى وهو يذكر لحظات أليمة مرت في حياته ، يشعر براحة عميقة ، نجمت عن غربته عن ذاته وواقعه ولم يستطع الحاضر تأمينها له ، فلجأ الى الماضي يستجديه وينشد لديه العزاء .

الغربة ، هنا ، لا يستطيع الانسان تحاشيها أو البعد عنها ، وليس في مقدور القبيلة أن تقدم له العزاء ، قد يصح أن نقول هنا ان الزمن بدورته القاسية الى الأمام ، هو الذي صنع هذه الغربة . ونحن هنـا لا نقصد الزمن بمفهومه المجرد . وانما مجمل المتغيرات التي تحدث ، سواء كانت ذات منشأ اجتماعي ، أم ذات منشأ زمني . وقـد يصح هنا القول بأن الوقوف بالطلل مثلا نشأ عن حياة الرعي التي تتطلب التنقل المستمر ، ولكن الصحيح أيضا أن الشاعر يبكي الطلل ولو لم تكن هناك حبيبة أو أهل افتقدهم ، وسنعرض لذلك فيما بعد . ونعود فنؤكد أن الشاعر الجاهلي حين وقف بالطلل وبكاه ، وحين بكى شبابه ، وشكا من آلام الشيخوخة وبؤسها ، وحين شكا تغير الدهـر . فان الدافع الأساسي وراء هذا هو دافع ذاتي . اذ ينفصل الانسان عن لحظته وحياته الحاضرة ويتصل بالماضي بحثا عن ملجأ له فيه . وهو بذلك يخلق توازنا في ذاته يحرره من قلق اللحظة وبؤس الواقع . ولعل هـذا الجانب من الغربة يشترك فيه جميع البشر منذ بدء الخليقة . ولا ينفرد الشاعر الجاهلي بهذا الاحساس ولا بهذه الغربة ، ولهـذا فاننا نعتبرها تجربة انسانية ،

وحين نقرأ شعر الأطلال أو الشيخوخة فان كلا منا يشعر أن الشاعر لا يتحدث عن احساسه هو وعن مشاعره هو ، بل مشاعر كل البشر ، أفرادا أو مجتمعين .

ونحن هنا ، طبعا ، لن نتجاهل خصوصية التجربة الجاهلية ، ولكن الاطار العام يبقى اطارا انسانيا ، بل ان الخصوصية ذاتها هي التي تجعل التجربة الجاهلية تجربة انسانية متميزة .

وربما جاز تسمية الغربة عن الذات اغترابا ، لأن هذه الغربة مقصودة لم يكن المجتمع عاملا مباشرا في تكوينها . فقد وجدنا في الغربة عن الأهل والوطن والمجتمع أن ظروف الحياة الاقتصادية والاجتماعية — فضلا عن نظام المجتمع القبلي الطبقي — أثرت في تكوين غربة الشاعر تلك ، أما هنا فنحن أمام الشاعر يغترب عن ذاته وواقعه بحثا عن لحظة سعادة ، وربما بؤس سعيد ، قاصدا وواعيا . ونعود لنؤكد أنه لا يمكن على أية حال ، أن نغفل أثر المجتمع ، انه الاطار الكبير الذي يضم السبب الذاتي وهو الذي يسهم على نحو غير مباشر ، في تكوينه .

أ — الطلل

يقف الشاعر الجاهلي بالطلل ، ويصف حالته الراهنة ، والتغير الذي حل به . وغايته من هذا تذكر الماضي ، ومقارنته بالحاضر ، ويبدو الماضي أغنى ، أو هكذا يتخيل المرء . فالأطلال توقظ في الشاعر ذكريات ماضية تحتوي على السعادة ، ولهذا يقارن الشاعر الجاهلي الماضي السعيد بالحاضر القاسي المحزن .

« والوقوف على الأطلال عامة ، وذكر المنازل والديار خاصة ، انما أملته حياة البدوي ، فهو ثمرة البيئة المتنقلة التي يحياها العرب البادون. أو ثمرة التقلب بين الأعطاف الخصبة في الربيع ، والعودة بعد ذلك الى

منازل القبيلة الأصلية في القرى أو أشباه القرى . والتي لم تكن قصورا منيفة ، أو منازل واسعة غنّاء ، بل كان معظمها خياما بأوتادها ودعاماتها وأثافيهـا •

من هـذه الظاهرة الاجتماعية في التجاور والائتلاف أيـام الربيع والصيف ، والابتعاد والافتراق أيـام الفصول الأخرى ، كانت هـذه الظاهرة في الوقوف على الأطلال ، والبكاء عليها والحنين اليها واستثارة الذكريات والتهويم في مجالات التعبير الشعوري ، وهي ظاهرة اتخذت حيزا من الشعر الجاهلي وبصورة خاصة من شعر الغزل »[٣٦] •

وقد كثر الحديث عن الأطلال وآثارها ورسومها وبقاياهـا ، بما يغني عن الحديث في كل هذا . وسنكتفي هنا بالحديث عن جانب الحنين فيها . والغربة التي يخلفها الحديث عن الطلل على أنه انفصال عن الواقع الحاضر ، واتحاد بالماضي البعيد • وأول ما يتحدث عنه الشاعر رسوم الديار ، والحديث عن الرسوم له دلالة عميقة . فهذا التفصيل والتدقيق والحديث المطول انما يعني أن الشاعر يحاول أن يتحد بكل دقيقة من دقائق الماضي . وأن يتصل بكل شيء فيه • ان كل دقيقة تذكره بقضية، وكل شيء يثير في نفسه شعورا جديدا يؤكد رغبته في الانفصال عـن الواقع والاتحاد بالماضي ونحن لا نستطيع ذكر كل الشعر الذي قيل في الرسوم والآثار •

فقد كادت كثرة الشعر في هذا المجال أن تجعل الناس يعتقدون أن الحديث عن الطلل أصبح مجرد تقليد فني ، وهـو وان كان كذلك . يحمل في أعماقه حرارة التجربة التي عاشها الجاهلي ، وتجربة الغربة عن الذات جزء منها ، وقد يوفق شاعر في التدقيق أو التعبير الفني أكثر من آخر . ولكن المهم بالنسبة الينا هو حرارة التجربة •

---

٣٦ ــ الوطن في الشعر العربي •

ونشير هنا الى أن تجربة الطلل لم تكن مستقلة عن القصيدة ، لقد كان هناك خيط خفي يشد أجزاء القصيدة بعضها الى بعضها ، وهذا الخيط قد يختلف من قصيدة لأخرى ولكنه موجود دائما ، ويكفي أن نعلم بأن الشاعر حين يكون في موقف الفرح فيتذكر ساعات الفرح . والعكس قد يحدث أيضا ، ان موضوع القصيدة الأساسي هو الذي يلون الطلل بلونه ويصح أن نصوغ هذا الكلام بطريقة أخرى فنقول : ان الهرب من الواقع والذات الى الماضي من خلال الطلل يتلون تبعا الحالة التي يحياها الشاعر والتي يريد من خلالها ان يصبغ قصيدته بلونها .

وهذه أبيات لربيعة بن مقروم يقول فيها[٣٧] :

أمِنْ آلِ هنْدٍ عرفتَ الرسوما
بجمران قفراً أبتْ أن تريما
تخال معارفَها بعدما
أتتْ سنتان عليها الوشوما
وقفتُ أسائلها ناقتي
وما أنا أم ما سؤالي الرسوما
وذكّرني العهدُ أيامها
فهاج التذكّر قلباً سقيما
ففاضت دموعي فنهنهتُها
على لحيتي وردائي سجوما

٣٧ ـ المفضليات ١ : ١٧٩ .

ومكان ديار هند معلوم (جران) وهي مصرة على البقاء ، وهكذا يريدها الشاعر . خالدة ، وقد أرادها الشعراء الجاهليون خالدة أيضا . مرت سنتان عليها فبقيت آثارها كالوشوم ، ووقف الشاعر بناقته عليها يسائلها ولكن ما فائدة سؤال الرسوم ؟ ثم يتذكر أيامها الماضية فيهيج التذكر قلبه السقيم (بؤس الحاضر) فيبكي بكاء مرا ومتواصلا بدمع غزير .

لقد لجأ الشاعر الى الطلل مداويا قلبه السقيم ، وقد فرج عن كربته من خلال بكائه الماضي ، وهرب من الحاضر ومن ذاته .

ومثله فعل زيد الخيل .[38] وجابر بن جني التغلبي .[39] وسلامة ابن جندل.[40] الا أنه يفصل في التشبيه . فالطلل كتاب كتب بخط منمق والطلل لأسماء التي تحب الشاعر ، والديار لا تجيب سائلا . والشاعر يتحول بالذكرى الى نشوان ولكن بغير خمر ، ولكنه في النهاية يرفض البكا على رسوم قديمة لا تتضح معالمها .

وربما يقف الشاعر على الطلل فلا تتضح له معالمه . فهو لا يعدو أن يكون كالوشم على اليد أو كالخط مكتوبا على حجارة . ولكن الشاعر يقف به ليرى تقلب الدهر عليه ، وما حل به . ولعله بعد هذا يرى الحكمة من الحياة التي يحيا[41] :

هل أنتم واقفون على السطور
فننظر ما لقين من الدهور ؟

---

٣٨ ـ ديوانه ٨٣ .
٣٩ ـ المفضليات ٢ : ٩ .
٤٠ ـ ديوانه ١٥٥ ، و ١٣٤ .
٤١ ـ جران العود ، ديوانه ٢٤ .

تركْنَ برجلـة « الروحاء » حتى

تنكّرتِ الديـار علـى البصـير

كوحْيٍ بالحجـارة أو وشـوم

بأيـدي « الـروم » باقية النؤور

وقد يصرح الشاعر بأوجاعـه وآلامه مباشرة ، فهو حين ينظر الى الديار يداهمـه الهم والحزن اذ يتذكر تلك الفتاة الجميلة التي لفيهـا فتركت في نفسه جرحا لا يندمل وتيمت فؤاده .

والأطلال هنا تصبح معبرا الى الحب ، لا يحفل بها الشاعر لكونها أحجارا وبقايا ديار وانما لأن فيها ذكرى من هام الفؤاد بها . وذكر هذه الفتاة ، قـد يثير أشجان الشاعر ، ولكنه في الوقت ذاته ، يسري عـن نفسه[٤٢] :

يا دارَ عمرةَ من محتلّهـا الجرعـا

هاجت لي الهـم والأحزان والوجعـا

تامتْ فؤادي بذات الجـزع خَرْعبة

مرّتْ تريـد بذات العذبـة البيعـا

وربما يدخل الشاعر في تفصيلات أعمق ، فالنابغة يحدد اسم الحبيبة التي سكنت الديار ، ومكان الديار ، وطول العهد بها ، ومتى وقف فيها

---

٤٢ ــ ديوان لقيط بن يعمر الايـادي ٣٠ ، وأنظر ديوان أمية بن أبي الصلت ٦٦ ، وديوان عبيد بن الأبرص ٦٥ ، وديوان طرفة بن العبد ، وشرح القصائـد العشر ٨٥ ، وشعراء النصرانية ٢٩٩ ، وديوان الشـماخ ابن ضرار ٢١١ .

واستنطاقه لها دون جواب ، والأشياء التي بقيت منهـا ، بل انه يذكـر الآثار حين كانت عامرة ، ثم يذكر خلاءها من كل شيء وأن الذي أفناها هو الذي أفني لبدا[٤٣] :

يا دار ميّةَ بالعليـاء فالسّند
أقوتْ وطـال عليها سالفُ الأبد

وقفتُ فيهـا أصيلانـا أسائلهـا
عيّتْ جوابا ، وما بالربع من أحـد

أمست خلاء ، وأمسى أهلُها احتملوا
أخنى عليهـا الذي أخنى علـى لُبَد

وقد يعرف الشاعر الدار ويقف ويستنطقها ، ويطول وقوفه دون جواب ، فيذكر أنها مقفرة بعد الأحبة ، ويستعين بناقته على استنطاق آثارهـا ثم يذرف الدموع حزنا عليهـا وعلى من سكنهـا[٤٤] وربما لا يخرج جميع الشعراء عن هذا الاطار[٤٥]. الا ما ندر فنحن نقف أمام أطلال زهير ، في معلقته ، لنجد جوانب مختلفة وفهما مختلفا[٤٦]. فهو

٤٣ ــ ديوان النابغة ٣٠ ، وشرح القصائد العشر ٤٥٣ . ولبد : نسر . قيل انه عاش عمر سبعة نسور .

٤٤ ــ الشماخ بن ضرار ، ديوانه ٢٦٢ .

٤٥ ــ أنظر ديوان النابغة ٤٣ ، ٧٨ وطرفة ٧٤ ، وعبيد ١٠٠ ، ١٠٤ ، ١١٢ ، ١٢٩ ، ١٤٥ ، وديوان المراقسة : مهلهل ٦١ ، وامرؤ القيس بن عابس الكندي ٩٣ ، وسلامـة بن جندل ديوانـه ص ٢٢٣ . وديوان عمرو بن بكـر الزبيدي ٥١ ، وزيد الخيل ٧٩ .

٤٦ ــ ديوان زهير ٤ ، وشرح القصائد العشر ١٥٤ .

يذكر صاحبة الديار وأن الديار لا تتكلم ، مجددا مكانها ، ثم يشبهها بالوشوم ، ويبعث الحياة فيها ، ولكنها الحياة التي خلفت الموت (حياة الحيوان خلفت موت الانسان ، أو هجرانه الديار) ويذكر طول عهده بها وأنه تعرفها بعد لأي . ثم يصف بقاياها ويحييها .

وأم أوفي هي زوج الشاعر ، ووقوفه بديارها كان متأخرا ، والغريب أنه أشاع البهجة فيها من خلال الهدوء الذي ينعم به الحيوان . لكنه من طرف آخر يشير الى فقدان الانسان . ان زهيرا في وقوفه وتحيته الدار لا يبكي . هذا صحيح ، ولكنه من جانب آخر يحاول أن يزرع الحياة في الحاضر ، من خلال بث الحياة في الطلل . انه يريد أن يشيع الفرحة في عالمه الحاضر ، ولا يريد أن يجعل ذكرياته حزينة ، انه مصر على الفرح في حاضره كما كان الفرح في ماضيه :

أمنْ أمِّ أوفى دمنةٌ لم تكلّم
بحومانة الدراج فالمتثلّم

ديارٌ لها بالرقمتين كأنها
مراجعُ وشمٍ في نواشر معصَم

بها العينُ والآرام يمشين خِلْفة
وأطلاؤها ينهضْنَ من كلِّ مجثم

وقفتُ بها من بعد عشرين حجة
فلأيا عرفت الدارَ بعد توهّم

فلما عرفتُ الدار قلتُ لربعها
ألا انعم صباحا أيها الربعُ واسلم

ولا يذكر الشاعر الطلل لمجرد ذكر الديار ، ولكن الغاية الأهم ، كما نعلم ، هي ذكر الأهل والحبيبة ، فان في الديار ما يثير ذكراهم والحنين اليهم ، والنابغة يذكر نعما محبوبته ، وهــو يرفض أن تكون التحيــة للأحجار وانما التحية لها ، فقد أقفرت الديار بعدها ، وأثرت في الخراب الذي حل بها ، وقف الشاعر بهذه البقية الباقية منها يسألها عن الحبيبة فلم تجب لأنها لا تتكلم ، ولو تكلمت لقالت الشيء الكثير وروت كل ما حصل في الماضي ، وما يريد الشاعر أن يهرب اليه • وحين لم تتحدث الديار لاذ الشاعر ببقاياها يستذكر من خلالها أيام لهوه مع نعم وحلاوة العيش الذي عاشا . والحب الذي ظل عالقا في قلبه الى اليوم هو الذي يدفعه للوقوف على الديار ، ان حرارة هــذا الحب ما زالت في قلــب الشاعر ، وهو يبث الديار شكواه ، ويلجأ اليها راجيا عندها السلوان والابتعاد عن مرارة الحاضر . ذلــك أن العيش في الماضي (لم يهمــم بامرار)[٤٧] :

عوجوا ، فحيّوا لنعم دمنةَ الــدار ،

مــاذا تحيّـون نأيي وأحجــار ؟

أقــوى ، وأقفر مــن نُعم ، وغيّره

هوج الريــاح بهابي الترب ، مــوار

وقفتُ فيهــا ، ســراة اليوم ، أسألها

عن آل نعــم ، أمونــاً ، عبــر أسفار

٤٧ ـ ديوان النابغة ص ٤٨ •

فاستعجمتْ دار نعـم ، ما تكلـّمنا ،

والـدار ، لو كلمتنا ، ذاتُ أخبـار

فما وجـدتُ بهـا شيئا ألـوذ به ،

الا الثـّمام والا موقـدُ النـار

وقـد أراني ونعمـاً لا هيـَيْن بهـا ،

والدهـر والعيشُ لـم يهممْ بامْرار

أيـام تـُخبـرني نعـمٌ وأخبرهـا ،

ما أكتم الناسَ من حاجـي وأسراري

لولا حبائـلُ من نعمٍ علقتُ بهـا ،

لأقصر القلب عنهـا أيّ إقصـار[٤٨]

أما طلل عبيد بن الأبرص فانه يختلف عن أطلال الشعراء ، في بعض قصائده ، فهو لا يقف بالطلل وقوف العاشق الباكي الذي يتذكر حبيبة افتقدها ، ولكنه يقف على ديار قومه ، التي كانوا بها ، فهلك قسم منهم، وهاجر الباقي ، وتحولت الديار الى خراب كامل ويندب قومـه ، ونجد هذا يتكرر في قصائد أخرى من الديوان[٤٩]. وفي الابيات التالية يعلن

---

٤٨ ـ أنظر : عمرو الزبيدي ٣٤ ، وقيس بن الخطيم : ديوانه ، ص ٣٣ وأوس ابن حجر ٩٤ ، وجران العود ديوانه ص ٣١ والمراقسة ٨٢ وعبيد ٧٦، ١٢٠ وطرفة ٨١ وعنترة ١٨٢ ، وشرح القصائد العشر ٢٥٩ وعدي بن زيد ٧٣ و ١٠٢ والشماخ بن ضرار ١١١ ، ١٢٩ ، ١٦١ والنابغة ٩٢ ، ٩٦ .

٤٩ ـ أنظر ديوان عبيد ، القصيدة الاولى ، و ص ٤١ .

عبيد أنه لا يبكي الطلل العافي ، وانما يبكي ديار قومه التي كانت تضمهم جميعا فاذا بها قفر لا تحوي الا الوحوش ، ولا يسمع فيها صوت الا أصوات الحيوانات ، وقد خلت منهم جميعا وتبدلت أحوالها ، وهنا يستعيد الماضي فيمر أمام عينيه شريط يحتوي على صور خصبة وحلوة ويرى قومه وقد لفتهم الغبطة وطيب العيش ، ولكن الايام لا تدوم على حال ، وانه بعد بني عمه واخوته لم يعد يطيق طعم العيش ، ولا يرجى السعادة ، ولن ينسى الشاعر قومه ما عاش ، وسيظل يقف بالديار التي كانت تغص بهم ، وكانوا يعمرونها ، ثم خلت منهم ، وتركوا الشاعر غريبا يتحسر على ساعة لقاء بهم يستعيد من خلالها فرحة الماضي وبهجته(٥٠) :

أمن منزلٍ عافٍ ، ومن رَسْم أطلال
بكيتُ وهل يبكي من الشوق أمثالي

ديارهُمُ اذ هُمْ جميعٌ فأصبحت
بسابسَ الا الوحش في البلد الخالي

بما قد أرى الحيَّ الجميع بغبطةٍ
بها والليالي لا تدومُ على حالِ

أبعد بني عمرو ورهطي واخوتي
أرجّي ليان العيش والعيش ضلال(٥١)

---

٥٠ ـ ديوان عبيد ١٧ ٠

٥١ ـ في البيت اقواء ٠

ويقف ضابىء بن الحارث[٥٢] برسم ديار ليلى المقيم باللوى والتبر لا يتحول عنه ، يقف لا ليقضي حاجة له ولا ليسأل الدار شيئا : بل ليتمنى أن يكون أهلها بها . ولكن الأماني ضلالة وجهل ، ويبكي الشاعر ولكن ليس من رسم دمنة ، وانما من حيّه المجتمعين بها (الذين كانوا مجتمعين) . والذين عهدهم فرسانا كراما يفكون الأسير ويقضون حاجة المحتاج . الديار بالنسبة الى ضابىء ، اذاً ، ليست غاية وليس الوقوف على أطلالها حاجته ؛ وانما تذكر من كان يعمرها من أهله ، وكيف أضحوا متفرقين قد راب بهم الزمان :

غشيت ليلى رسمَ دار ومنزلا
أبى باللّوى فالتّبر أن يتحوّلا
وقفتُ بها لا قاضيا لي حاجة
ولا أن تبين الدارُ شيئا فأسألا
عهدت بها فتيانَ حرب وشَتْوة
كراما يفكّون الأسير المكبَّلا

ويقف مثله أيضا تميم بن أبي بن مقبل[٥٣] بمنازل قومه التي كانت تضمهم مجتمعين وقد مضى العهد بها وبهم . انها أيضا ديار الحبيبة التي ذهبت بقلبه وماله من رجوع .

ويقف الشاعر بالأطلال ، ولكنه يزجر نفسه . فربما علاه الشيب أوكان هم مقيم يشغله عن هذا الوقوف . ان النفس تتوق الى الماضي

---

٥٢ ـ الاصمعيات ٢٠٦ .

٥٣ ـ أنظر ديوانه ص ١٥٩ .

وذكرياته متحـــررة من بؤس الحاضر ، ولـكن وعـــي الشاعر الاجتماعي يزجرها عن غايتها ويفضل أن يبقى مأسورا للحظة الحاضـــر ولا يترك مجالا للمجتمع أن يسخر منه أو ينكر عليه ما فعل . وهكذا وقف عبيد بن الأبرص بالطلل ثم زجر نفسه عن هذا الوقوف وعن البكـــاء الذي يخلفه ، والشاعر وان كان يزجر نفسه ، شكلا ، يقف ويذكر الأحبة ، ان الرغبة في الهرب من الحاضر تتسلل خفية وتغترب عن واقعهـــا[٥٤] :

بل ما بكاءُ الشيخ في دِمْنَـــةٍ
وقد عـــلاهُ الوضَح الشامـــل
أقوتْ من اللائي هُمُ أهلهـــا
فما بهـــا إذْ ظعنوا آمـــل
وربمـــا حلَّت سُليمى بهـــا
كأنهـــا عُظبولةٌ خـــاذل[٥٥]

ويزجر مهلهل نفسه عن الطلول والبكاء عليها ، اذ كيف يقف بالطلل ويتذكر الماضي السعيد من كان في همه وحزنه ، ان موت كليب ، أخيه، قد ترك في صدره قروحا لا تندمل ، وهو بعد موته مكفّل بطعان الأنام جيلا بعد جيل[٥٦] :

باتَ ليلـــي بالأنعمين طويـــلا
أرقبُ النجـــم ساهراً لن يزولا

---

٥٤ ــ ديوان عبيد ١٢٣ .
٥٥ ــ ظبية تخلفت عن صواحبها . وأنظر عبيدا ص ١٠٨ والنابغة ٨٧ .
٥٦ ــ ديوا نالمراقسة ص ٦٥ .

أزجر العين أن تبكّي الطلـولا

إنّ في الصدر من كُليْب فليلا[٥٧]

كيف يبكي الطلول من هو رهْنٌ

بطعان الأنـام جيـلا فجيـلا

وقد يدعو الشاعر للديـار بالسقيا ، وهو بهذا يدعو للأيـام التي مضت . والتي لقي فيها سعادته وهناءه . ان شغفه بالماضي جعله يدعو للديار بالخير العميم معلنا انتماءه للماضي وغربته عن الحاضر[٥٨] :

ألا حيّيا الـدار المحيل رسومهـا

تهيـج علينا مـا يهيـج قديمهـا

سقى تلك مِنْ دار ومَن حل ربعها

ذهـاب الغوادي وَبْلها ومُديمها

أطلال عبيد وامرىء القيس

ونقف الآن أمام نموذجين من شعر الأطلال . يمثل النموذج الأول عبيد بن الأبرص في مطلع معلقته :

أقفر من أهله ملحوب[٥٩] .

---

٥٧ ـ قروح وندوب .

٥٨ ـ المثقب العبدي ، ديوانه ٢٣٤ .

٥٩ ـ ديوان عبيد ٢٣ وما بعد . وشرح القصائد العشر للتبريزي .

ويمثل النموذج الثاني امرؤ القيس في مطلع معلقته

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل(٦٠) .

ـ معلقة عبيد :

أقفر من أهله ملحوب — فالقطبيات فالذنوب

فراكس فثعيلبات — فذات فرقين فالقليب

فعردة فقفا حبر . — ليس بها منهم عريب

إن بدلت أهلها وحوشا ، — وغيرت حالها الخطوب

أرض توارثها شعوب — فكل من حلها محروب

إما قتيلا وإما هالكا — والشيب شين لمن يشيب

عيناك دمعها سروب — كأن شأنيهما شعيب

. . . .

إن تك حالت وحول أهلها — فلا بديء ولا عجيب

أويك أقفر منها جوها — وعادها المحل والجدوب

فكل ذي نعمة مخلوسها — وكل ذي أمل مكذوب

. . . .

يذكر راوي الديوان أن الشاعر قد قالها بعد إحدى غارات الحارث الأعرج الغساني على ديار بني أسد . فقد مر الشاعر بديار قومه بعد

---

٦٠ ـ ديوان امرىء القيس ١٢٤ . وشرح القصائد ٨ . ولقد أثبتنا النصين من الديوانين ، مستأنسين بشرح القصائد العشر .

هـذه الغارة (ربما كان الشاعر في احدى زياراته للحيرة) فصعق بما رأى : الخراب يحل في كل مكان ، والموت يسيطر على كل الموجودات ، أنى نقل نظره وجد الموت ، وبدأ الشاعر بتعداد الأماكن ، الحقيقة التي رآها ماثلة أمام عينيه (ليس بها منهم عريب[٦١]) وقد حل الوحش محل الناس ، وحل الموت هـذه الأرض فلا يبرحها . لقد توارث المـوت (شعوب) هذه الأرض وكل من سكنها هالك لا محالة . وليس أمام الشاعر اذا الا البكاء ، انه سيبكي طويلا وربما لازمه البكاء فيما تبقى من حياته ، بل انه لازمه فعلا[٦٢] . ويعود الشاعر الى رشده فلا يعجب مما حصل فلقد علمته الحياة أن الأمور لا تبقى على حال واحدة ، وأن في الحياة متغيرات كثيرة يكون فيها المرء على أسعد حال فاذا به يصبح في أسوأ الأحوال . الشاعر يعزي نفسه ، وماذا يمتلك غير العزاء .

ويعود في قصائده الأخرى[٦٣] ليذكر أهلـه الصالحين بملحـوب وحزنه عليهم : أهل الخير والباع والندى والفرسان المغاوير ، والانسان مكذوب عليه في هذه الحياة ، يظن أن الأمور ستستتب له فاذا بالزمن يكذبه ويخيب أمله ، وأن الانسان يعيش وهو متمسك بأهداب الحياة ولكنه ، لو علم حقيقة عذابها ، لما تمسك بها . وهذه النظرة ، بالطبع ، وليدة الظروف التي مرت بالشاعر ، وخاصة محنته في قومه .

وفي قصيدة أخرى يعود الى ديار قومه الذين (أذاع بهم دهر على الناس شديد) فأذهبتهم الحروب والمنايـا ، وقد كانوا قومـا صالحين ولكن الموت لا يبقى على شيء[٦٤] :

---

٦١ ـ أحـد .
٦٢ ـ أنظر ديوانه ص ٣٧ ، ٤٠ .
٦٣ ـ المصدر السابق .
٦٤ ـ المصدر السابق ص ٤٠ .

لمنْ طلــل لــم يعف منــه المذانب

فجنبا حِبِرٍ قــد تعفّى فواهــبُ

ديــارُ بني سعدِ بن ثعلبةَ الأُلى

أذاعَ بهم دهرٌ علــى الناس رائب

فأذهبَهم ما أذهب الناسَ قبلهــم

ضراسُ الحروب والمنايــا العواقب

ألا ربَّ حيٍّ قــد رأينا هنا لكُمْ

لهــم ســلف تزورُّ المناقِب

- **معلقة امرىء القيس(٦٥) :**

قفــا نبكِ مِنْ ذكرى حبيبٍ ومنزل

بسِقْطِ اللّوى بين الدخول فحَومل

فتوضحَ فالمِقْراة لم يعفُ رسمُهــا

لمــا نسجَتْها مِنْ جنــوب وشَمْأل

رخــاء تســحّ الريــح في جنباتهــا

كساهــا الصبا سحق المــلاء المذيَّل

٦٥ ــ ديوانه ص ١٢٤ ــ ١٢٥ وشرح القصائد العشر ص ٨ ــ ١٧ .

ترى بعر الصّيران في عرصاتها
وقيعانها كأنه حبّ فلفل

كأني غداةَ البَين يوم تحمّلوا
لدى سَمرات الحيّ ناقفُ حنْظل

وقوفاً بها صحْبي عليّ مطيّهم
يقولون لا تهلك أسىً وتجمّل

فدعْ عنك شيئاً قد مضى لسبيله
ولكن على ما غالكَ اليوم أقبِل

وقفتُ بها حتى اذا ما تردّدت
عماية محزونٍ بشوق موكّل

وانّ شفائي عبرةٌ مُهراقة
فهل عند رسْمٍ دارس من معوّل

. . . .

ففاضتْ دموع العينِ مني صبابةً
على النحْر حتى بلّ دمعي محْمَلي

تمثل هذه القصيدة تفرد الذات وانفصالها عن القبيلة وشعورها بالوحدة الا من صحب همهم كهم قائلها ، وتمثل تجربة الأطلال فيها محنة الشاعر امرىء القيس . ولقد أخفق الشاعر في تخطي هذه المحنة .

انه حين يهرب من واقعه لعدم قدرته على التآلف مع القبيلة ، فانه يأتي الى الطلل ، الى محنته • ذلك أن تجربة الطلل متصلة بتجربة حبه لفاطمة• فلقد أخفق الشاعر في حبها ، بل في استعادته ، على الرغم من أنه ضرب لها أمثلة كثيرة عن انتصاره في الحب مع غيرها ، ولكنه ظل عاجزا أمامها• وتمثل فاطمة ، في حياة الشاعر ، القبيلة ، ومثلما انهزم الشاعر أمام منطق القبيلة فانه ينهزم هنا أمام الحب (فاطمة) • وقد رأينا كيف أن طرائقه في الحياة كانت تنتهي الى الضياع وعدم التلاؤم :

ومن يحترث حرثي وحرثك يهــزل

ويلجأ الشاعر الى البكاء ، انه يبكي بكاء مرا وهو يحاول استعادة الأيــام الماضية ببهجتهــا ، لكنه كان كمن يهرب من حياته البائسة الى الخمرة ، لقد كان في حالة عــدم تلاؤم مع المجتمع ، فهرب الى الماضي (الطلل) فلم يحصل على شيء • لا بل ان فاجعته كبرت وزاد بكاؤه في لقائه وفراقه اياه كما بكى لفراق الحبيبة وللقائها ، ثم ان بكاء الحبيبة هو السلاح الوحيد الذي يؤثر فيه ويصيب منه مقتلا •

وتجربة الأطلال عند هذا الشاعر اذن ، تجربة متفردة ومرة ، فالشاعر يريد أن يجد ذاته ، يبحث عنها في المجتمع فلا يجدها ، ويبحث عنها في الماضي من خلال الطلل ـــ الحب فلا يجدها ، وتتصل غربته الأولى بغربة جديدة ، كان يريد أن يهرب من واقعه ، فوقع في غربة أشد ، وكان يريد أن يتخلص من بكائه على واقعه ، فأتى الأطــلال فبكى الماضي وبكى هزيمته أمام الحبيبة ، ان المأساة التي عاشها هذا الشاعر والغربة المتصلة التي غلفت حياته تستحق أن ينظر اليها بعناية ، فلقد شب متشردا صعلوكا لا يلتزم بمواضعات المجتمع والقبيلة ، وهزم أمام المجتمع وأمام ذاته ، ثم جاءته الغربة الثانية التي استمرت حتى موته حين قتل أبوه ، وراح يسعى فيما تبقى من عمره ليثأر له وليحقق ذاته الاجتماعية دون جدوى•

فتميز تجربة الطلل عند امرىء القيس أتت من تميز حياته الخاصة ، والظروف التي أحاطت به • وهو في كل شعر الأطلال الذي قاله يصدر عن هذا الاحساس وهذا الموقف[٦٦] •

الشيخوخة

ويدور الزمن دورته ، وتمضي الحياة في سيرها قدما ، ويمضي معها الانسان في رحلة العمر ، فاذا بذلك الشاب الفارس الذي كان يملأ الأرض حيوية وأفعالا يتحول الى شيخ هرم ينوء بحمل جسده فضلا عن حمل أعباء الحياة ، ويمله الناس : ترفضه المرأة ، التي تبحث عن الشباب الدائم ، ويعقه البنون ، لأنهم لم يعودوا بحاجة اليه ، ويثقل حتى على نفسه فيتمنى الموت حينا ، هربا من آلام الشيخوخة ، ويتحسر على الشباب حينا آخر ، منفصلا عن ذاته وواقعه ــ كما رأينا في الأطلال مثلا[٦٧]، وربما أعلن تبرمه بمن حوله وبأعز الناس اليه : زوجته وأولاده• وهكذا يبدأ الانسان ملحمة اغتراب جديد ؛ ولا تنتهي فصول هذه الملحمة بالموت الا لتتصل بفصل أخير دائم تلخصه الغربة بعد الموت ، ولكننا نريد أن نقول انه حين يبلغ الانسان من العمر عتيا فان فصول غربته الأخيرة تكون قد نضجت تماما ، فان كان ، وهو شاب ، قد استطاع مغالبة بعض ظروف غربته الاولى ومشاقها ، فانه في شيخوخته عاجز مستسلم ضعيف ، لا يجد الا الشكوى والبكاء والحسرات •

حدث أبو الفرج في أغانيه أنه[٦٨] : « لما أسن دريد (بن الصمة) جعل له قومه بيتا مفردا عن البيوت ، ووكلوا به أمة تخدمه ، فكانت

٦٦ ــ أنظر ديوان امرىء القيس : ١٩١ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٧٥ ، ١٦٥ ، ١٥١ ، ١٣٨ ، ٥٧ ، ١١٤ •
٦٧ ــ وكما سنرى هنا •
٦٨ ــ ١٠ : ٢٥ •

اذا أرادت أن تبعد في حاجة قيدته بقيد الفرس • فدخل اليه رجل من قومه فقال له : كيف أنت يادريد ؟ فأنشأ يقول :

أصبحتُ أقذف أهداف المنون كما
يرمي الدرية أدنى فوقه[69] الوتر

. . . .

في منزلٍ نازح مم الحيّ منتبذ
كمربط العَيْر لا أدعى الى خَبَر

كأنّني خَرَبٌ[70] قصّتْ قوادمُه
أو جثّة من بغاث في تدٍ خصِر

يمضون أمرهمُ دوني وما فقدوا
منّي عزيمة أمرٍ ، ما خلا كِبَري

ونومة لستُ أقضيها وانْ متعت
وما مضى قبل من شأوي ومن عسري

وأنني رابني قَيْدٌ حُبست به
وقد أكون وما يمشي على أثري

---

٦٩ ـ رأس السهم •

٧٠ ـ ذكر الحبارى •

انّ السنين اذا قرّبنَ مِنْ مائة

لوينَ مِرّة[٧١] أحوال على مِرَرِ »

هذا دريد بن الصمة الفارس الذي شهدته ساحات الجزيرة العربية، والسيد الذي شهدته نوادي قومه يتقدم به السن ، فاذا بهم يقيدونه بقيد الفرس كي لا يهيم على وجهه ، ولكن العجيب أن يعامله قومه هذه المعاملة وكأنه قد خرف ، مع أنه يذكر كل هذا بالتفصيل ، دلالة على وعيه ، ويذكر أنه ما تغير به شيء سوى أنه قد كبر . وهل الكبر ذنب يعاقب عليه الانسان . نحن هنا أمام رجل متميز ، كان من سادات الجاهلية وفرسانها ، فاذا بنا نراه قد نبذ من الحي الى مكان منطرف ، كالمكان الذي يربطون اليه الحمار ، لا يدعى الى أمر من أمور القبيلة وهو الذي كان يتفق معها ويفعل كل ما ترغب ، حتى ولو خالفت رأيه :

وما أنا إلاّ من غزيّةَ ، ان غوتْ

غويتُ ، وان ترشدْ غزيّةُ أرشد

دريد هذا تمضي القبيلة أمورها دونه ، ولم يلحظ في دريد تغيراً (خرفا) سوى كبره ، وهو يعبر عن ضيقه بالقيد الذي يربط به ، كالحمار ، وذلك لأنه يعلم ، تمام العلم ، أن وعيه كامل ، ولا يضيره كبر سنه . ويشكو في النهاية ، تقدم العمر والسنين الطوال التي تمر بالانسان فتتغير حاله .

ويشكو الحطيئة لابنته تقدم سنه ، ولا عزاء للانسان بعد هذه الحال : فالعين تدمع دون بكاء ، والشباب يذهب دون لقاء ، ويقاد الى

---

٧١ ــ طاقة الحبل .

بعير ، وينوء على يديه حين ينهض ، وتصبح في مشيته غربلة ، وصبي من الحي يقوده الى منزله ، ويخلط في حديثه اذ يرى من الأمور ما ليس موجودا ، ويطلب فلا ينفذ طلبه ، وترفضه المرأة ، وخلاصة حاله أنه في سوء كبير[٧٢] ٠

وتضم دواوين الشعر الجاهلي شعرا كثيرا يصف المسنين فيه أحوالهم وتبرمهم بالحياة وضيقهم بأنفسهم ، مما يضيق المجال عن ذكره امرؤ القيس بن حمام ، وعمرو ابن قميئة وربيع بن ضبيع الفزاري ٠ والحارث بن كعب المذحجي ، ومالك بن حريم الهمداني ، والمزرد ابن ضرار الذبياني ، وساعدة بن جؤية ، وزهير بن أبي سلمى ، وعدي ابن زيد ، والسموأل ، والنمر بن تولب)[٧٣] ٠

ويحدثنا أبو الفرج عن زهير بن جناب الكلبي[٧٤] أنه قد عمر طويلا حتى ذهب عقله ، وكان يخرج تائها لا يدري أين يذهب ، فتلحقه المرأة من أهله والصبي ٠ فترده وتقول له : اني أخاف عليك الذئب أن يأكلك فأين تذهب ؟ فذهب يوما من أيامه ، ولحقته ابنة له فردته ، فرجع معها وهو يهدج كأنه رأل ، وراحت عليهم سماء ، وله شعر أيضا[٧٥] يصف كيف آل أمره الى النساء يقعد اليهن ويرعين شؤونه ، ويتمنى الموت خلاصا من حياة كهذه ٠

---

٧٢ ـ أنظر ابن الشجري ٣ : ٩ ٠

٧٣ ـ أنظر الأصمعيات (الأصمعية ١٥) ، والمفضليات (المفضلية ١٧) وشعر الهذليين ٢٨٦ ، وديوانهم ١ : ١٩١ ، وحماسة البحتري ٢٠٧ ، ١٥٣ ، ٢٨٦ ، وديوان زهير بن أبي سلمى ٢٩ ، وعدي بن زيد ١١٣ ، والسموأل (ديوانا عروة والسموأل) ٧٦ ، وجمهرة أشعار العرب للقرشي أبو زيد محمد بن أبي الخطاب ، ص ١٩٧ ٠

٧٤ ـ الأغاني ١٩ : ٢٠ وما بعد ٠

٧٥ ـ المصدر نفسه ١٩ : ٢٣ ٠

وهذه الورثة بنت ثعلبة[٧٦] زوجة ذهل بن شيبان ، كانت كلما تزوج امرأة شارتها وضربتها وأجلتها ، فلما تزوج رقاش بنت عمرو ، تحرشت بها الورثة ، ثم وثبت عليها لتضربها ، فأمسكتها رقاش وغلبتها ، فقالت الورثـة :

يا ويح نفسي اليومَ أدركني الكِبَرْ
أأبكي على نفسي العشيّةَ أو أَذَرْ ؟
فوالله لـو أدركـتِ فيّ بقيّةً
للاقيتِ مـا لاقى صواحبكِ الأُخَرْ

ويذكر ابن قتيبة[٧٧] أن تميم بن أبي بن مقبل « كان خرج في بعض أسفاره . فمر بمنزل عصر العقيلي ، وقد جهده العطش ، فاستسقى . فخرج اليه ابنتاه بعسّ فيه لبن . فرأتاه أعـور كبيرا ، فأبدتا له بعض الجفوة ، وذكرتا هرمه وعوره . فغضب ، وجـاز ولم يشرب . وبلـغ أباهما الخبر ، فتبعه ليرده ، فلم يرجـع فقال له : ارجع ولك أعجبهمـا اليك . فرجع وقال قصيدته هذه ، وهي أجود شعره :

ياحُرُّ أمسيْتُ شيخاً قـد وهى بصري
والتاث ما دون يوم الوعْد مِنْ عُمُري
يا حر أمستْ تَلِيّات[٧٨] الصبا ذهبتْ
فلستُ منهـا علـى عيـن ولا أثـر

٧٦ ــ أنظر المرأة في الشعر الجاهلي ٢٣٩ .
٧٧ ــ الشعر والشعراء ص ٤٢٥ ،وديوان تميم بن أبي بن مقبل ص ٧٢ .
٧٨ ــ بقيـات .

راميتُ شيبي ، كلانـا قائـم حِجَـجاً
ستيّـن ، ثـم ارتمينـا أقـرب الفـقَـر

قالت° سليمى ببطن القـاع من سـرح :
لا خـير في العيشِ بعد الشّـيب والكبـر

واستهزأت° تربهـا مني ، فقلـت لهـا :
مـاذا تعيبـان منّـي ياابنتي عصُر ؟

فالشاعر هنا يعترف بكبره وعجزه وبذهاب الشباب الى غير رجعة . ثم يستذكر عهد الشباب ويقارنه بعهـد الشيخوخة . وأنه قـد صارع الشيب فصرعه بعد ستين عاما وبدت آثاره في رأسه وجسده . وهـذه سليمى (المرأة) تذكره بشيخوخته وأن لا خير في الحياة مع المشيب . بل ان غيرها من النساء قد سخرت به ، وهـو وان اعترف بشيخوخته وعجزه وعزا هذا الى الزمن ، لم يقبل السخرية بعوره ، ورد على ابنتي عصر بأن في كل انسان عيبا وانه يمكنه أن يذكر عيبهما ، ثم يطالبهمـا بالكف عما قالتاه ، فانه لولا الدهر وتغير الزمن لما حل به ما رأتا . ولما وصل الى وضعه هذا .

ويتحسر الشيوخ على أيام الشباب في محاولة للتعويض عن الآلام التي يلاقونها في شيخوختهم ، ويذكرون تلك الأيام والفرحة تملأ عيونهم ولكن الحسرة تظل تغلفهم ، انهم أمام عجز الشيخوخة لا يجدون ملجأ لهم الا في الأيام الخالية ، أيام الشباب ، ينفصلون عن واقعهم ، يغتربون عنه ، بحثاً عن عالم يخلق التوازن النفسي في داخلهم ، والنفس الانسانية بطبيعتها ، تبحث عن التوازن ، تبحث عما يعوضها عن عجزها ، ماذا في الشباب ؟ ان فيه تحقيق الذات الانسانية ، التي يعجز الشيخ عن تحقيقها ،

فيه الفروسية والحب والرياسة والأحلام التي تكون في أوج حرارتها . وتأتي الشيخوخة فتصطدم هذه الأحلام بعجز الانسان ، في حياته القصيرة عن تحقيق كل ما تصبو اليه نفسه ، فينطوي على ألم مرير ، خلفه عجزه ، ويلجأ الى الماضي ، مغتربا عن حاضره ، الى حرارة الشباب كي ينسى برودة الشيخوخة .

ولا يكاد شعر جاهلي ، قيل في الشيخوخة ، أن يخلو من ذكر أيام الصبا والشباب ولكن هذا لا يمنع من وجود نماذج من الشعر تناول فيها شعراؤها مرحلة الشباب أكثر من غيرهم ، وهذا يتبع حرارة الحياة في نفس انسان ما ، وتمسكه بها أكثر من غيره ، وربما اصراره على التمسك بها وعلى رفض الاستسلام للعجز ، الا أن هذا يؤدي الى نتيجة واحدة . ونحن الآن أمام أبيات لسلامة بن جندل(٧٩)، وقد أسنّ . يذكر الشباب في المطلع وكيف أودى الى غير رجعة ، بل انه يراه قد ولّى سريعا بلذاته التي لا يمكن أن يحققها المرء في شيبه ، ويذكر من اللذات حضور أندية القوم ، والسير الى الأعداء وركوب الخيل :

أودى الشبابُ حميداً ، ذو التعاجيب
أودى ، وذلك شأْوٌ غيرُ مطلوب

أودى الشباب الذي مجْدٌ عواقبُه
فيه نلذّ ، ولا لذّات للشيب

يومان : يومُ مقامات وأندية
ويومُ سيرٍ الى الأعداء ، تأويب

٧٩ ــ ديوان سلامة بن جندل ، ص ٩٠ وما بعد .

وكرنا خيلَنا أدراجها رجَعاً

كسنَّ السنابك ، منْ بدءٍ وتعقيب[80]

وعبيد بن الأبرص لا يكتفي بمدح الشباب والترحم عليه ، بل يذم الشيب ووفوده على المرء ضيفا غير مرغوب فيه ، فأقل ما فيه أن النساء يودعن المرء الى غير رجعة[81] . والحارث بن خالد المخزومي يتمنى ألا يبرحه الشباب وما فيه من لذات فقدها الآن في شيخوخته[82] . ويرى المرزباني أن عمرو بن قميئة قد ابتكر مقدمة للقصيدة يتفجع فيها على الشباب ويذم الشيخوخة[83] :

لا تغبط المرء أنْ يُقالَ له

أمسى فلان لعِمْره حَكَما

قد كنتُ في ميعة أسُرُّ بها

أمنع ضيمي وأهبط العُصُما

يالهف نفسي على الشباب ولم

أفقدْ به اذ فقدتُه أمما

---

٨٠ ـ وأنظر الأغاني ١٠ : ٢٩ و ٣ : ٩٦ ، وديوان تميم بن مقبل ١٣٣ ، وديوان الشماخ بن ضرار ١٣٠ . والشهاب ٣٨ ، وديوان امرىء القيس ١١٢ ، ١٣٩ ، وشرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري ص ٦٢ .

٨١ ـ ديوان عبيد ١٠٨ .

٨٢ ـ الأغاني ٣ : ٣١٢ ، والمزرد بن ضرار يقف ذات الموقف (المفضليات ١ : ٩١) .

٨٣ ـ حماسة أبي تمام ٣ : ١٣٦ ، والبحتري ٢٨٧ ، وشعراء النصرانية ٢٩٦ .

ولا يرى زهير بن أبي سلمى ضيراً في تذكر الشباب والحسرة عليه ولا في البكاء عليه وجدا . بل ان على الانسان أن يتذكر العهد الماضي — بما فيه — وخاصة الأهل والأحبة الذين كان يرفل معهم بأثواب السعادة(٨٤) .

وينفرد معاوية بن مالك (معود الحكماء) بذكر شيب الحبيبة أيضا، وواضح منطق الحكيم في هذا ، فهو يذكر شيبه وشيبها ، وصباه وصباها ، انه لا يتحسر على الحب والنساء ، ولكنه يذكر بمرارة حياته السعيدة مع الحبيبة التي وصلت حالها الى ما وصلت اليه حاله(٨٥) :

أجدّ القلبُ من سلمى اجتنابا
وأقصر بعدما شابتْ وشابا
فان تكُ نبلُها طاشتْ ونبلي
فقد نرمي بها حقباً صيابا
فتصطاد الرجال اذا رمتْهم
وأصطاد المخبَّأة الكعابا

وتزداد آلام الشيخوخة والشعور بوطأتها وغربة الانسان عن العالم الذي عاشه ، وهو يقترب من وداعه ، حين يأتي من يهيج أشجان الشيوخ ويذكر عجزهم أمامهم ، بل سخريته منهم ، ويصبح الأمر أشد

---

٨٤ — ديوان زهير ٢٧٩ ، وأنظر أيضا في البكاء على الشباب وتذكر أيامه : ديوان جران العود النميري ص ١٣ ، ٣٣ . وديوان أوس بن حجر ص ٥ ، والمفضليات ٢ : ٩ .

٨٥ — الأصمعيات ٢٤٨ .

حين تكون الساخرة امرأة ، هذه الانسانية التي يركض الرجل خلفها يبغي اصطيادها منذ الشباب ، وهذا السعي ، وان كان من أجل استمرار الحياة عن طريق التناسل ، فهو يمثل أيضا رغبة الرجل في انتصار الذكورة لديه . انه ان كان يهرب أحيانا الى الماضي ، وأحيانا يراوغ في محاولة تعويض النقص ، الا أنه هنا يقف حائرا لا يدري ما يصنع وكيف يجابه هذا الموقف . ان بعض الشعراء يعود الى الماضي يعلل نفسه به ، وبعضهم يحاول أن يغطي عجزه أمام المرأة باستعراض قوته في مجالات أخرى ، وآخرون يستسلمون للواقع كما يستسلم الانسان للموت .

هذا عبد من عبيد بجيلة يعجب أن ازورت عنه الكواعب[٨٦]، بعد أن كان في شبابه مغامرا ، انه يعترف بأنه قد ضعف بحيث صار يرى الشخصين أربعة ، وكان يمشي على اثنتين فأضاف لهما ثالثة من الشجر[٨٧] يستعين بها في مشيه[٨٨] :

ما للكواعب ياعيساء قد جعلت
تزورُّ عني وتُطوى دوني الحُجرُ

قد كنتُ فتاح أبواب مغلّقة
ذبَّ الرِّياد اذا ما خولس النظر

فقد جعلتُ أرى الشخصين أربعةً
والواحد اثنين مما بورك البصر

٨٦ ـ الشابات من النساء .
٨٧ ـ عكاز .
٨٨ ـ الأمالي ٢ : ١٦٣ .

وكنت أمشي علـى رجلين معتدلا

فصرت أمشي على أخرى مِنَ الشجر

ويلجأ المثقب العبدي الى الماضي أيضا ، بعد أن هزئت به زوجه واستنكرت شيبه مزورة عنه ، ويعلل الشاعر نفسه ، دون اقتناع طبعا ، بأنه لا عار على المرء في الشيب ، ذلك أن ثوب الشباب معار ولا بد أن يخلعه المرء آخر الأمر • ثم يعود بها الى الماضي فيذكر فروسيته وشربه الخمر ، ولكنه يعود الى نفسه فيقر بواقعه ، ويعترف بعجزه وشيخوخته(٨٩) :

تهزأت عِرسي واستنكرت

شيبي ، ففيها جَنفٌ(٩٠) وازورار

لا تكثري هزءاً ، ولا تعجبي ،

فليس الشباب على المرء عار

ولا أرى مالا اذا لم يكن

زعفٌ ، وخطّار ، ونهدٌ مفار(٩١)

• • • • • • • • • •

---

٨٩ ـ ديوان المثقب ٢٧٤ ، وتروى الأبيات لثعلبة بن يزيد (يقول الراوي : وهو الأكثر) •

٩٠ ـ ميل وجور •

٩١ ـ درع ورمح وفرس محكم •

فذاك عصر قد خلا والفتى

تلوى لياليه به والنهار[92]

ويرد بعضهم على هزء المرأة شيخوخته بأنه بها قد ازداد وقارا ومقدرة وكرما ... انه ينتصر لكرامته حقا ، ولكن هذا لا يعني أن المرارة قد فارقته ، أو أن الاحساس بالفجيعة ، التي أوجدها الشيب ، قد زايله ، بل ان الرد على المرأة والانتصار للكرامة يعمقان الاحساس بالفجيعة . هذا المرار بن منقذ يعجب من خولة اذ أنكرت شيبه والآثار التي تركتها الشيخوخة في جسده ، فيرد عليها بأنه انسان ماجد معروف ذو بلاء ، وهو غير آسف و لانادم على شبابه الذي انقضى لأنه لم يتوقف في شيخوخته ، أو شبابه عن الأفعال التي ترفع من قدره بين الناس[93] :

عجبٌ خولة اذ تنكرني

أم رأتْ خولة شيخاً قد كبر

إن تريْ شيبا فانّي ماجد

ذو بلاء حسن غير غُمُر

ما أنا اليوم على شيء مضى

ياابنة القوم تولّى بِحَسِر

92 ـ وانظر في هذا المجال : ديوان تميم بن مقبل ١٨٤ ، وديوان سلامة بن جندل ٢٢٥ وديوان المراقسة ، (مهلهل) ٤٥ .

93 ـ المفضليات ١ : ٨ .

وهذا عوف بن عطية يعيب على كبيشة جهلها حين أنكرت شيبه ، ويوضح لها أن الشيب قد زاده كرما وحفظا للعهد ، عهد الجار الذي يصبح ممتنعا حيث صار[٩٤] :

وقالت كبيشة من جهلها : أشيبا قديما وحِلماً معارا

فما زادني الشيب إلا ندى اذا استروح المرضعات القُتارا[٩٥]

وأمنع جاري من المجحفا ت ، والجار ممتنع حيث صارا[٩٦]

ويروي الشريف المرتضى شعرا ينسبه لبعض العرب[٩٧]، يقول حين صدت عنه أمامة وراعها الشيب في رأسه ، فيذعن الشاعر للأمر الواقع دون مداورة ، ويعلمها حكمة من الحياة : أن ورق الأشجار يصفر بعد الخضرة ، وهكذا الانسان :

صدّت أمامة لما جئت زائرها عني بمطروفة إنسانها غرق

---

٩٤ ــ المفضليات ١٣ ·

٩٥ ــ تشممن ريح الشواء ·

٩٦ ــ وأنظر في هذا المجال الأصمعيات ١٢٠ ، والأغاني ١٣ : ٣٠ ، الأمالي ٢ : ١٦٢ ·

٩٧ ــ الشهاب في الشيب والشباب ، الشريف المرتضى ص ٣٨ ·

وراعها الشيب في رأسي فقلت لهـا

كذاك يصفرّ بعد الخضرةِ الورق

ولعل علقمة الفحل يكون هنا شاهدا كبيرا على حكمة بعض الشيوخ وقناعتهم واستسلامهم لحكم الحياة ، ان خبرته الطويلة علمته أن المرأة، لا يمكن أن تثبت على حال انها تبحث عن الشباب والمال حيث وجدا في الانسان . والا فهي تعلن ازورارها عنه اذا شاب أو افتقر[98] :

فإنْ تسألوني بالنســاء فانني

بصــير بأدواء النســاء طبيبُ

إذا شاب رأسُ المرء أو قلّ ماله

فليس له في ودّهــنّ نصيب

يردْنَ ثراء المال حيث علمْنه

وشرخُ الشباب عندهنّ عجيب

ويرى الأعشى ، مثل ما رأى علقمة ، أن النساء لا يرغبن بالشيوخ ، وينصرف جل اهتمامهن الى الشباب[99] :

وأرى الغواني لا يوصلْن امـرءاً

فقد الشباب وقــد يصلْنَ الأمردا

---

٩٨ ـ ديوان علقمة الفحل ص ٣٣ وما بعد ، وحماسة البحتري ٢٨٩ ·

٩٩ ـ الشهاب ص ١٠ ، وأنظر الشهاب أيضا ٦٩ ، ديوان علقمة ٥٠ ، لأصمعيات ١٩٥ ، ١٧٧ ·

وتشتد وطأة الشيخوخة ، ويزداد الاحساس بها ، بل وتضاف الى غربتها غربة أخرى حين يعصى أمر الشيخ من قومه ، أو حين يعقه أولاده فلم يكتف هؤلاء بما فعل الزمن به وانما يضيفون بتصرفاتهم الرعناء لآلامه آلاما ولاحساسه بالضعف والهوان احساسا جديدا • روى أبو الفرج عن ابن الكلبي(١٠٠) أن زهير بن جناب ــ وهو سيد معروف ــ كان اذا قال : « ألا ان الحي ظاعن ، ظعنت قضاعة ، واذا قال : ألا ان الحي مقيم ، نزلوا وأقاموا • فلما أسن نصب ابن أخيه عبد الله بن عليم للرياسة في كلب ، وطمع أن يكون كعمه وتجتمع قضاعة كلها عليه ، فقال زهير يوما : ألا ان الحي ظاعن ، فقال عبد الله : ألا ان الحي مقيم ، فقال زهير : ألا ان الحي مقيم ، فقال عبد الله : ألا ان الحي ظاعن ، فقال زهير : من هذا المخالف علي منذ اليوم ؟ فقالوا : ابن أخيك عبد الله بن عليم ، فقال : أعدى الناس للمرء ابن أخيه ، ألا انه لا يدع قاتل عمه أو يقتله • ثم أنشأ يقول :

وكيف بمَن لا أستطيع فراقه
ومن هو لم تجمع الدار آلف

أمير شِقاق إنْ أقم لا يقم معي
ويرحلْ ، وان أرحل يقم ويخالف

ثم شرب الخمر صرفا حتى مات » •

ويعق الابن أباه ، ويشكو الأب الشيخ من هذا العقوق ، فهو قد قام بتربيته مذ كان طفلاً في المهد وتعهده حتى شب ، فلما كبر أبوه عقه

---

١٠٠ ــ الأغاني ١٩ : ٢٣ •

ولم يؤد حقوق الأبوة ، لا بل تجاوز الحد اذ عمد الى ضربه ، ويفصل الشاعر ـ أبو منازل (فرعان بن الأعرف) كيف يتجرأ الولد على أبيه ، ويفصل أيضا في كيفية تربيته . وتعبه المتواصل حتى صنع منه شابا قويا، فاذا به يضيف الى غربة شيخوخته غربة عقوقه(١٠١) :

جـزت رحـم بيني وبين منـازل
جزاء كمـا يستنزل الدين طالبه
تربيّته حتى اذا آض شيظمـا
يكاد يساوي غارب(١٠٢) الفحل غاربه
تغمّد حقـي ظالمـا ولوى يـدي
لوى يـده الله الذي هـو غالبـه
وكان له عندي اذا جـاع أو بكى
من الـزاد أحلى زادنـا وأطايبـه
أأن أرعشت كفّا أبيك وأصبحت
يـداك يدي ليث فانك ضاربـه

---

١٠١ ـ شرح الحماسة ٣ : ١٤٤٥ ، و ٢ : ٧٥٣ ، وأنظر ديوان أمية بن أبي الصلت ص ٤٥ والابيات التالية التي أوردها أبو علي في أماليه ٢ : ١٩٧ لأعرابي :

إنّ بنيّ كلهم كالكلب
أبرّهم أولاهم بسبّي
لم يغن عنهم أدبي وضربي
ولا اتساعي لهم ورحبي
فليتني متّ بغير عقب
أو ليتني كنت عقيم الصلب

١٠٢ ـ مقدم السنام .

وتشعر الأم بالذل والهوان حين يعقها ابنها • فالمرأة ضعيفة بطبعها أمام المصائب ولا توجد مصيبة أكبر على الأم من شعورها بأن حقوق الأمومة قد هضمت على يد فلذة كبدها ، فهي قد ربته مذ كان (فرخا) حتى اذا كبر صار يمزق أثوابها ويضربها وقد كان عليه أن يخفف من وطأة الشيخوخة عليها برعايته لها وعنايته بها ، فاذا هو يضيف الى آلام الشيخوخة آلام العقوق • انها تنظر اليه ، وقد شب ، معجبة بشبابه ، فاذا به وزوجته يصطلحان على تعذيبها واذلالها[١٠٣] :

ربيته وهو مثل الفرخ أعظمه
أم الطعام ترى في ريشه زَغَبا

• • • • • • • • • • •

أنشا يمزق أثوابي ويضربني
أبعد ستين عندي يبتغي الأدبا ؟

قالت له عِرْسه يوما لتسمعني
رفْقاً فانّ لنا في أمّنا أرَبا

ولو رأتْني في نار مُسعَّرة
من الجحيم لزادتْ فوقها حطبا

١٠٣ ــ شرح الحماسة ٢ : ٧٥٦ ، والكامل ١ : ٢٠٥ والشعر لأم ثواب الهزانية •

شيخوخة عبيد والجميح

ـ النص الأول :

قال عبيد بن الأبرص[١٠٤] :

تلك عِرْسي تروم قدماً زيالي
ألبَيْن تريد أم لدلال

إنْ يكن طبّك الدلال فلو في
سالف الدهر والليالي الخوالي

أنت بيضاء كالمهاة ، واذ آتيـ
ـك نشوان مرخياً أذيالي

فاتركي مطّ حاجبيك وعيشي
معنا بالرجاء والتأمال

أو يكن طبّك الزيال[١٠٥] فان البيـ
ـن أنْ تعطفي صدور الجمال

زعمتْ أنني كبرت وأنّي
قل مالي وضنّ عني الموالي

١٠٤ ـ ديوانه ص ١١٣ وما بعد في وأنظر قصيدته ، ص ١٤٦ من الديوان ، أيضا ، فهي في ذات الموضوع .

١٠٥ ـ الفراق .

وصحا باطلي وأصبحت كهلا

لا يؤاتي أمثالها أمثالي

إنْ رأتْني تغيّر اللون منّي ،

وعلا الشيب مفرقي وقذالي

فبما أدخل الخباء على مهضومـ

ـة الكشح طفلة كالغزال

. . . .

فارفضي العاذلين واقنيْ حياء

لا يكونوا عليكِ خطّاً مثالي

دَرَّ دَرُّ الشباب والشعر الأسـ

ـود والراتكات تحت الرحال[١٠٦]

هذه زوج قد قررت مفارقة زوجها ــ الشاعر ــ وهو يعلم سبب هذا الفراق ، لكنه يداري السبب أنه يحاول أن يجعل الزوج تعدل عن قرارها ، وربما لا يريد أن يقر بالحقيقة مباشرة ، انه يريد أن يلطف وقعها على نفسه وعلى سامعه ، الزوج تريد الفراق ، والشاعر يحدثها عن الدلال جاهلا ، أو متجاهلا ، الحقيقة الأساسية التي من أجلها طلبت زوجه الفراق . ان كانت تريد الدلال ، فان هذا قد مضى زمنه . كان يمكنها أن تحظى بهذا حين كانت شابة بيضاء وكان يأتيها نشوان جذلان مرخيا من فرط النشوة أذياله ، أما الآن فكيف ؟

---

١٠٦ ــ أراد الابل .

لقد ــ زعمت ــ أن الشاعر قد كبر وقل ماله ، وبخل عليه أقرباؤه • وأنه قد أصبح كهلا لا يناسبها ، بمجرد أن رأت تغير اللون منه ، وبمجرد أن علا الشيب رأسه •

ويعود الشاعر الى الماضي ــ عصر الشباب ــ منتصرا على شيخوخته وغربتها القاسية ، فيذكر لها مغامراته المتعددة مع النساء ، ويعود مرة آخرى فيحاول اقناعها بضرورة بقائها في بيتها ، وأن ترفض أقوال العاذلين ، وألا يكونوا مثالا تحتذي به ، ثم يتحسر على أيام الشباب التي كان فيها الشعر أسود ، وكان المرء يستطيع القيام بأفعال لا يستطيع القيام بها الآن •

لقد عاشت هذه المرأة معه سني حياته الأولى فذاقت حلاوة العيش وشربت الماء صفوا ، وحين بدأت شمس حياته تميل الى المغيب تنكرت للحياة الماضية • ويحار الشاعر في أمره وأمرها ، ان ما تطلبه هذه المرأة صعب المنال ، فهي تريده شابا من جديد يقوم بكافة واجباته نحوها • جسدية ومادية ، وهو لا يملك من أمر نفسه شيئا ، يغضب حينا ويعللها بالماضي أحيانا أخرى ، ويدعوها للصبر والركون الى الحكمة • انه لو كان شابا لما تجرأت على التهديد بتركه ، كان يمكنه ببساطة أن يسرحها ويستبدلها بغيرها ، ولكنه الان في موقف حرج فلا العشرة تهون عليه ، ولا هو يستطيع أن يحظى بامرأة غيرها ، لأن الأخرى ستنظر اليه بالمنظار ذاته • انه حائر بين الانتصار لكرامته وبين حاجته اليها في أواخر عمره• لقد تآلفت شريكة العمر مع الزمن اذا ، اتفقا على تعذيبه واذلاله • فلو أنها بقيت الى جانبه لصارعت معه الزمن ــ الشيخوخة ــ وخففت من وطأته عليه • لكنها بفعلها هذا ــ فراقه ــ قد زادت الطين بلة،وأضافت الى غربة الشيخوخة غربة الوحدة التي ستحل به بمجرد فراقها • وهو بين هاتين الغربتين يعيش قلق اللحظة التي ستنتهي به الى الوحدة القاتلة •

ـ النص الثاني :

قال الجميح (منقذ بن الطماح)[١٠٧] :

أمست أمامة صمتاً ما تكلمنا
مجنونة أم أحسّت أهل خرّوبِ

مرت براكب ملهوز فقال لها :
ضرّي الجميح ومسّيه بتعذيب

ولو أصابت لقالت ، وهي صادقة ،
إنّ الرياضة لا تنصبْك للشيّب

يأبى الذكاء ويأبى أنّ شيخكم
لن يعطيَ الآن عن ضرب وتأديب

أما اذا حردت حردي فمُجْرية
جرداء تمنع غيلا غير مقروب

وان يكن حادث يُخشى فذو علق
تظل تزبره من خشية الذيب

فان يكن أهلها حلوا على قِضَة
فانّ أهلي الأُلى حلّوا بملحوب

١٠٧ ـ المفضليات ١ : ٣٢ وما بعد ٠

لمـا رأت إبلي قلتْ حلوبتهـا

وكـل عـام عليهـا عـام تجنيـب

أبقى الحوادث منهـا ، وهي تتبعهـا

والحق ، صرمـة راع غـير مغلـوب

كأنّ راعينـا يحدو بهـا حمـراً

بين الأبـارق من مكـران فاللـوب

فان تقرّي بنـا عينـاً وتختفضي

فينـا وتنتظري كـرّي وتغريبي

فاقني لعلك أن تحظي وتحتلبي

في سحبل من مسوك الضأن منجوب

وهذا شيخ آخر يعود في المساء الى بيته فيحيي زوجـه فلا تجيب ، ويسألها عن سبب صمتها فتصر على الصمت ، فيسائلها ويسائل نفسه . هل جنت ؟ لماذا هذا الصمت ؟ ... لابد أن أحدا من أهلها قد مر بهـا في غيابه وطلب منها أن تقوم بهذه الأفعال والحركات المشينة . ولا بد أنه طلب منها أن تعذبه فبدأت تخترع الأساليب الكفيلة بتعذيبه . ولكن ألا تعلم أنه لا يمكنها أن تروض شيخا مثله ، انها تظن أنه بهذا الأسلوب سيرضخ لطلباتها التي أقلها تسريحهـا ، ولكن لا ، لقد أخطأت التقدير وخانها ذكاؤهـا هـذه المرة . فهي تعلم ـ تمـام العلم ـ أن الشيخ لا يمكن ترويضه ، كما لا يمكن تأديبه ، ويذكرهـا الشاعر بضعفهـا وحاجتها اليه وقت الشدة ، فلماذا تبدو كلبوة الآن ، انها حين يحل بها

مكروه تلجأ اليه وتلتصق به كالطفل طالبة الحماية • ثم انها ان كانت من بني فلان ، فان أهله هم بنو فلان — لا يدع لها مجالا للفخر بقومها على قومه — وهو هنا بالطبع يتناسى ويتجاهل السبب الأساسي الذي من أجله اتخذت زوجه هذا الموقف — • ويعود الى الحقيقة التي لا بد من مجابهتها فالزوج كان يسكنها الصبر على شيخوخته ، وهي في الحقيقة قد تزوجته شيخا ولكنها كانت تطمح بماله ، فاذا بالمال يذهب ، وهو يقر بأن الابل قد قل لبنها وهي في تناقض مستمر ، ولكنه مع هذا يمنيها بالأماني العذاب علها ترضى بالواقع الحاضر ، وتنتظر تحسن الأحوال ، فسيعود الخير العميم وتحصل على كل ما تريد ستحصل على المال الذي رضيت زواجها به من أجله •

هذه تجربة أخرى ، ولكنها تختلف عن الأولى ، فالشاعر أيضا في حيرة من أمره من هذه المرأة اللعوب ، لقد قبلت به زوجا حين كان موسرا ، أما الآن ، وحين افتقر ، فانها قد قررت مفارقته لأنها بغنى عنه• لقد وجد الشاعر في ماله ما يعنيه على شيخوخته حين تزوج هذه المرأة ، فاذا بالمال يذهب وتذهب المرأة معه • وفي هذا قسوة عليه ما بعدها قسوة • هكذا حارب الزمن هذا الشيخ ، أفقده شبابه ، فاستعان بماله، فأفقده المال ، فخسر بفقدانه المرأة ، عزاءه الوحيد المتبقي في هذه الحياة•

هكذا ، وببساطة ، يتحدث الشاعر عن دخائل حياته ، كبيرها وصغيرها ، ويقر بعجزه ، ويشرح ظروف واقعه ، ويتألم لغربته ، بشكل علني ومباشر ودون مواربة ، أو استخدام لرمز أو ما يشبهه ، وهذا يوصلنا الى مرارة التجربة التي يعيشها الشاعر مع بساطتها ، انه يتحدث في أمور كبيرة ولكنه يعبر عنها بكل واقعية وبساطة • يبكي بصدق ، ويدعوك لمشاركته حزنه وفرحته ، ويدخلك الى عالمه بكل سهولة ، ذلك أنه يحكي مشاعر الانسان في كل زمان ومكان ، كل منا قد يمر بهذه

التجربة ، ولكننا قد نعجز عن التعبير عنها بهذه البساطة ، وقد يصعب علينا ادخال الناس الى عالمنا من خلال الحديث عن عجزنا وغربتنا .

تغير الدهر

يكون الانسان في أحسن حال ، في شباب وقوة ورغد عيش وسيادة . فاذا به تدول دولته ويغدر به الزمن ، فتتبدل أحواله من حسن الى سيء ومن عز الى ذل ، فيعيش غربة الحاضر ، الغربة عن واقعه الذي كان يحيا ، ويظل يذكر الماضي الزائل ويلعن الحاضر المقيم الذي أتى وأتت معه الرزايا .

ونجد ، في الشعر الجاهلي ، شكوى مرة من الزمن وتقلباته ، وهذا طبيعي في مجتمع رعوي تقوم الحياة فيه على ما تعطيه السماء من أمطار . فاذا انحبس المطر شقت الحياة . وتقوم الحياة أيضا على الغزو ، يكون الانسان ذا مال وفير ، فيصبح لا مال له ، ومنطق الغزو يفترض أن يخسر الانسان كما يربح ، مجتمع قائم على النظام القبلي الذي يتحكم في الانسان بمنطقه الخاص ، يخطىء الانسان فتدول دولته وتصطلح القبيلة على محاربته فتتبدل سعادته شقاء وعزه ذلا .

وقد يذكر الشاعر سبب التغير الحقيقي ، ولكنه غالبا يلجأ الى الدهر فيرميه بالتهم ، انه سبب التبدل والتغير ، وقد مر بنا كيف رمى مهلهل الزمن بتهمة الحط من قدره حين تزوج اليمني ابنته عسدا ، بعد أن جاورهم مفارقا قومه(١٠٨) وهذا الأعشى يتهم الزمن بأنه مصدر الشقاء ، وأن الانسان يظل معرضا لسهام الدهر ما عاش ، انه لولا تقلب الزمن

---

١٠٨ ـ أنظر المراقبة ص ٦٩ ، والكامل ٣ : ٨١٦ ، والنصرانية ١٧٩ .

لظل مع أهله بالعراق ولما خرج بحثاً عن لقمة العيش يجوب الجزيرة العربية من أقصاها الى أقصاها[١٠٩] :

لعمركَ ما طولُ هذا الزمنْ　　على المرء الا عناء مُعنْ

يظل رجيماً لريب المنون　　وللسّقم في أهله والحزَنْ

وما إن أرى الدهر في صرفه　　يغادر منْ شارخٍ أو يفَنْ

ثم يذكر رحلته من أجل المال .

وتحل المصيبة بقوم فيندب شعراؤهم أنفسهم وقومهم ، ويتهمون الزمن أيضا ، وقد يقول شاعر الحقيقة فيوضح الأسباب التي أدت الى حالهم ذاك . وأكثر الأقوام ندبا لأنفسهم في الجاهلية بنو عدوان ، فالذي يبدو أنهم قد حلت بهم مصائب ودالت دولتهم اذ بغى بعضهم على بعض فأصبحوا متفرقين ضائعين بعد أن كانوا سادة في الأرض والناس .

ونحن نقرأ شعرا لذي الاصبع العدواني ولابنته أمامة فيه بكاء على عز قومهما وعلى ما آلت اليه أحوالهم . هذا ذو الاصبع يتساءل عن الأعذار التي سيختلقها قومه كي يسوغوا فعلتهم ، فقد بغى بعضهم على بعض حتى صاروا أحاديث بين الناس ، بعد أن كانوا سادة بينهم وكانوا يقضون امورهم ويحكمون بينهم[١١٠] :

عذير الحيِّ مِن عدوا　　ن كانوا حيّة الأرض[١١١]

---

١٠٩ ـ ديوان الأعشى ، القصيدة الثانية ، وأنظر دراسة للقصيدة المذكورة في (الرحلة في القصيدة الجاهلية) ص ١٨٥ .

١١٠ ـ الأغاني ٣ : ٨٩ ، والأصمعيات ٦٨ .

١١١ ـ انه يبحث عن العذر الذي سيختلقونه لتبرير فعلتهم بعد أن كانوا حية الأرض التي يحذرها الناس .

بغى بعضهم بعضاً	فلم يبقوا على بعض
فقد صاروا أحاديث	برفع القول والخفْض(١١٢)
ومنهم كانت السادا	ت والموفون بالقرض
ومنهم من يجيز النا	س بالسُّنة والفَرْض
ومنهم حكم يقضي(١١٣)	فلا يُنقض ما يقضي

وتعمق أمامة ابنته احساسنا بأليم الفاجعة التي مر بها قومها ، واحساسها بغربتها من بعدهم . فقد قضى شباب كانوا كالزهور ، ولقي القوم القتل والهلاك . كانوا ملوكا في القمة ، فبغى بعضهم على بعض . حتى بادوا واندثروا . اذا مر أحد بديارهم فانه لن يجد الا الخراب والدمار(١١٤) :

كم من فتى كانت له ميعة(١١٥)
أبلج مثل القمر الزاهر

قد مرّت الخيل بحافاته
كمر غيث لجب ماطر

---

١١٢ ــ السرية .

١١٣ ــ يعني عامر بن الظرب العدواني .

١١٤ ــ الأغاني ٣ : ٨ . وأنظر أبياتا لأبيها قالها اذ رأته قد نهض فسقط فبكت ، فذكر جزعها عليه ، وذكرها بما حل في قومه . فالذي حل حريّ به أن يفعل فعله في جسد الشاعر .

١١٥ ــ أول الشباب .

قـد لقيتْ فهـم وعدوانهـا

قتـلاً وهلْكاً آخـر الغابـر

كانوا ملوكـاً سادة في الذّرى

دهـراً لها الفخْر على الفاخِر

حتى تساقوْا كأسهـم بينهـم

بغْياً فيا للشـارب الخاسـر

بادوا فمـن يحلُل بأوطانهـم

يحلـل برسـم مقفر داثِر

وهناك شعر لجابر بن جني التغلبي يبكي قومه الذين تصارعوا فيما بينهم • ولعبيد بن الأبرص الذي بكى وما مل البكاء على قومه الذين قضى عليهم الحارث الأعرج الغساني • وللحرقة بنت النعمان في حديث لها مع سعد بن أبي وقاص ولعدي بن زيد في سجنه . وللأسود بن يعفر النهشلي في رثاء المناذرة واياد . والحارث بن حلزة في قومه[116] •

ونأتي الى التجربة المتميزة ، للشاعر امرىء القيس . فنحن نعلم أنه ينتسب الى الأسرة الكندية المالكة • ولقد حاول استرجاع جانب من ميراثه الضائع ، بعد أن دالت دولـة بني كنده[117] فذهبت محـاولاته

---

١١٦ ـ أنظر المفضليات ٢ : ١٠ وديوان عبيد ، القصيدة الثانيةوالمفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٣ : ٢٨٧ ، وشرح الحماسة ٣ : ١٢٠٣ ، وديوان عدي بن زيد ٦٣ ، وديوان لقيط بن يعمر الأيادي ص ٢٧ ، والأغاني ١١ : ٤٩ وشعراء النصرانية ٤١٧ ٠

١١٧ ـ أنظر تاريخ العرب (مطول) ص ١١٥ ٠

أدراج الرياح . وأشعاره ملأى بالحقد والبغيضة لبني لخم – لوحق من قبلهم فترة طويلة ، وكانوا سببا مباشرا في تحطيم دولة آبائه وأجداده – وقصد قيصر الروم (بوستنيانوس) في القسطنطينية أملا أن يظفر بعطفه وعونه – وهو معروف بعدائه للحيرة – . وأثناء عودته – على ما روته الأخبار – مات مسموما قرب أنقرة . وكان نجم الكنديين قد أفل ، وبدأ ذكرهم يضعف على الرغم من محاولاته اليائسة ، فقد حاول الاعتماد على بعض القبائل العربية أولا – قبل اعتماده على القيصر – فتخلت عنه بكر وتغلب اللتان مكنتاه من الأخذ بثأره . ورفضتا متابعة قتال بني أسد[118] . ولقد كانت فجيعته كبيرة اذ لم يستطع أن يجمع حوله من يساعده على استعادة ملكه الزائل . فقد استعدى بكرا وتغلب وعمرو بن المنذر وأزد شنوءة ومرثد الخير الحميري وقرمل ابن الحميم ... وغيرهم كثيرين . ولكن دون جدوى فقال :[119]

ما ينكر الناس منّا حين نملكهم
كانوا عبيداً وكنّا نحن أربابا

ويطالعنا الأعشى متبرما ضجرا يلعن الزمن وأهله ، فقد اختلطت الأمور عليه ، ولم يعد قادرا على الانتماء الى زمن صار فيه رؤوس الناس أذنابا ، وأذناب الناس رؤوسا[120] :

لمّا رأيت زمانا كالحاً شبماً   قد صار فيه رؤوس الناسِ أذنابا

---

١١٨ – أنظر تاريخ العرب قبل الاسلام ص ١٧٩ .

١١٩ – ديوانه ٥٤ .

١٢٠ – ديوانه القصيدة ٧٩ .

ويتحدث بلسان ابنته ، فهي حين جد رحيل والدها ، تمسكت به وقالت انها واخوتها سيظلون يتامى بعد رحيله ، وتمنت ألا يفارقهم فهم بخير ما دام موجودا معهم ، فانهم يخافون أن يمضي بلا عودة — يموت — وانهم اذا ذهب الوالد يلاقون الجفاء من الناس ولا يصل أحد رحمهم ، ويرد الأعشى عليها بأن الردى لا يأتي في الطواف وبسببه وانما هو يصيب كل انسان(١٢١) :

تقولُ ابنتي حين جدَّ الرحيل

أرانا سواء ومن قد يَتِم

أبانا فلا رِمْتَ من عندنا

فانا بخير إذا لم تَرِم

ويا أبتا لا تزلْ عندنا

فانّا نخاف بأنْ تُخْتَرم

أرانا اذا أضمرتْك البلا

د نجفى وتُقطع منا الرحِم

أفي الطَّوف خفتَ عليَّ الردى

وكم من رَدٍ أهلَه لم يَرِم

وتزوجت امرأة من بني عامر بن صعصعة في طيء ، فذاقت مرارة الغربة عن الأهل والهوان في غير قبيلتها ، لهذا فهي تذم أباها وأخاها اللذين زوجاها الى غير قومها وطرحاها في (الأقاصي الأباعد)(١٢٢) :

١٢١ — ديوانه القصيدة ٤ ·
١٢٢ — الكامل ٢ : ٤١٥ ·

لا تحمدنّ الدهرَ أختٌ أخاً لها

ولا ترثينّ الدهر بنتٌ لوالد

همْ جعلوها حيث ليستْ بحرّة

وهُمْ طرحوها في الأقاصي الأباعدِ

وكان سعية بن غريض(١٢٣) ينادم قوما من الأوس والخزرج ويزورونه ، فلما افتقر انقطعوا عنه وجفوه . وعاد فأخصب فعادوا اليه ، وهو يشكو غربته بين قوم لا يصادقونه الا لماله فهم صديق وقت الفرج ، ويزورون عنه وقت الضيق(١٢٤) :

أرى الخُلاّن لما قلّ مالي

وأجحفتِ النوائبُ ودّعوني

فلمّا أنْ غنيتُ وعاد مالي

أراهم لا أبالَك راجعوني

ويطول الليل على النابغة الذبياني ، وتكبر همومه مع هذا الليل الطويل الذي لن ينقضي ، ويضيق صدره بالهموم التي أتته من كل جانب فضاعفت همه الأساسي ـ غضب النعمان عليه ـ وفي الحقيقة ، حين يعاني الانسان من هم كبير فان الهموم الأخرى سرعان ما تجد سبيلها الى نفسه فتضاعف الهم الأول وتعمقه(١٢٥) :

---

١٢٣ ـ الأغاني ٢٢ : ١٢٤ ·

١٢٤ ـ شقيق السموأل ، يهودي ·

١٢٥ ـ ديوان النابغة الذبياني ص ٩ و ٣٠ وشرح القصائد العشر ٤٦٨ وما بعد ·

كليني لهمٍّ ، يا أميمة ، ناصب

وليل أقاسيه ، بطيء الكواكب

تطاول حتى قلت ليس بمنقض

وليس الذي يرعى النجوم بآئب

وصدر أراح الليل عازب همه

تضاعف فيه الحزن من كل جانب

ويطول ليل مهلهل أيضا بعد مقتل أخيه كليب[126]، وليل امرىء القيس بعد مقتل والده،ومحاولاته اليائسة للثأر له واستعادة ملكه[127].

وكان صخر بن عبد الله بن الشريد السلمي يحب ابنة عمه سلمى ، وخطبها فتأبت عليه ، ثم أسرت فاستنقذها فتزوجها . وغزا بني أسد ، فجرح فمرض حولا حتى مله أهله . وفي أحد الأيام ، سمع امرأة من جاراته تسأل سلمى امرأته : كيف بعلك قالت : لا حي فيرجى ، ولا ميت فينسى ، لقد لقينا منه الأمرّين . ثم سمعها تسأل أمه كيف صخر ؟ فتقول : أرجو له العافية . فقال[128] :

أرى أمَّ صخر لا تملّ عيادتي

وملَّتْ سُليمى مضجعي ومكاني

---

١٢٦ ـ المراقسة ص ٥٠ .

١٢٧ ـ ديوان امرىء القيس ١٣٢ ، وشرح القصائد ٥٤ .

١٢٨ ـ أنظر الأغاني ١٥ : ٧٨ ، والكامل ٣ : ١٢٢٥ ، والأصمعيات ١٦٤ ، وأيام العرب ٣٩٩ .

وما كنتُ أخشى أن أكون جنازة
عليك ، ومَنْ يغترّ بالحدثان ؟

فأيّ امرىء ساوى بأمٍّ حليلة
فلا عاش الا في شقاً وهوان

أهمّ بأمر الحزم لو أستطيعه
وقد حيل بين العير والنَّزَوان

لعمري لقد أيقظتِ مَنْ كان نائماً
وأسمعتِ من كانت له أُذنان

فللموتُ خير من حياةٍ كأنها
معرّسُ يعسوب برأس سِنان

وتبكي فاطمة بنت الأحجم الخزاعية زوجها ونفسها بعد موته ، فقد كان لها جبلا تلوذ بظله ، فتركها في العراء ، وكان لها حاميا ومدافعا تمشي مختالة . وكان جناحها أما اليوم ، وبعد موته ، فقد خضعت للذليل ودفعت ظلم الظالمين براحتها[129] ، وهي تغض من بصرها لأنها تعلم أن زمانها قد ولى اذ لا فارس يحميها ، وهي لهذا تبكي كلما بكى طير على شجر[130] :

---

١٢٩ ــ دليل ضعفها .

١٣٠ ــ شرح الحماسة ٢ : ٩٠٩ .

يا عين بكّي عند كلّ صبـاح
جـودي بأربعة عن الجـراح
قد كنتَ لي جبلا ألوذُ بظلّه
فتركتني أضحى بأجرد ضـاح

فاليوم أخضع للذليل وأتقـي
منـه وأدفـع ظالمـي بالراح
وأغض منْ بَصَري وأعلم أنه
قد بان حدّ فوارسي ورماحي

ويشكو ذو الاصبع العدواني ابن عمـه الذي يبغضـه ، ويبغضه الشاعر لهذا أيضا ، فلقد حط الزمـن بهما جميعا[١٣١] . والذي يحير الشاعر أن ابن عمه يهينه أمام الناس ، والمعروف أنه لا يفضله في نسب ولا يقوم بأمره ، ولا يقوت عياله ولا يكفيه وقت الشدة . ولكن ابن عمه اذا كان يريد عرض الدنيا بأفعاله ، فان الشاعر غير حزين لهـذا وسيكون صبورا ، ذلك أن أواصر القربى هي التي تدفع به الى السكوت والصبر ، والا لكان فعل فيه أكثر مما يفعل .

ثم يعلن غضبته على بني عمه صراحة فاذا كانوا لا يحبونه فما عليه ان لم يحبهم ؟ انهم لو شربوا دمه لما ارتووا وهو مثلهم أيضا . وابن عمه هذا يكن له البغضاء ويتمنى موته بل هو حريص على موته ولو أدى هذا الى موت الناس جميعا . ويهدده الشاعر ان لم يكف عن ذمـه أنه

١٣١ ـ بل بقبيلة عدوان بأجمعها .

سيضربه حتى المـوت ثم يعدد مزاياه الأخلاقية والاجتماعية ويذكـره بالماضي حين كان يقوم بواجبات القربى تجاههم ، ولا يقومون بواجباتهم ولو كان ابن عمه قريبا حقا لوجد الشاعر سمحا سهل الانقياد يجازي الود بود مثله(١٣٢) :

ولي ابنُ عـم علـى ما كان من خلـُق
مختلفـان فأقْليـه ويقلينـي

أزرى بنـا أننـا شالت نعامتـُنـا
فخالني دونـه بل خلـْتـُه دوني

لاهِ ابنُ عمك لا أفضلـْتَ في حسب
شيئاً ولا أنتَ ديـّاني(١٣٣) فتخزوني

. . . .

ماذا عليّ ، وانْ كنتمْ ذوي رحمي ،
ألاّ أحبكـم إنْ لـم تحبـّوني

وهذا عروة بن الورد يعلن غربته بين صعاليكه الذين لا يفهمونه ، ولا يفهمون الرسالة التي قام يناضل بهم من أجلهـا . لقد كان يقوم ، مقام الأم ، بهم ، الأم التي قدمت ماء عينيها لوليدها فاذا به يشب فيبدلها بأخرى ، وهي قد تتمنى لو أنها تفقده الا أنها تتجمل صابرة . وهذا ما حل بعروة فبعد أن خرج بالصعاليك وقاتل بهم وانتصر للفقراء اذا بهم

١٣٢ ـ الأغاني ٣ : ١٠٤ وما بعد ، والأمالي ١ : ٢٥٥ ، وأنظر عروة ص ٥٩ وقوله في بني عمه .
١٣٣ ـ القائم بأمري .

ينقلبون عليه حين اشتد عودهم ، وكان يمكنه الاستغناء عنهم وتركهم ولكنه كالأم يصبر عليهم دائما[١٣٤] :

فانّي وايّاهـم كذي الأم أرهنتْ

له مـاء عينيهـا تُفدّي وتحمـل

فلمـا ترجّت نفعـه وشبابـه

أتت دونها أخرى جديـداً تكحّل

. . . .

تخيّر مـنْ أمرين ليسـا بغبطـة

هـو الثكْلُ الا أنهـا قد تجمَّل

وكان لرجل من بني ضبة ، في الجاهلية ، بنون سبعة ، فخرجـوا بكلب لهم يقتنصون . فأووا الى غار فهوت عليهم صخرة ، فأتت عليهم جميعا ... فقال والدهم ، بعد أن ظل وحيدا[١٣٥] :

أسبعةُ أطـواد أسبعة أبْحُر

أسبعة أسـياد أسبعة أنجـم ؟

---

١٣٤ ــ ديوان عروة ص ٢٧ ، وشعراء النصرانية ٨٩٤ .

١٣٥ ــ كتاب الأمـالي ، أبو علـي القالي ، ط ٢ ــ ١٩٢٦ دار الكتب بمصر ١ : ٦١ ، وأنظر قصيدة أبي ذؤيب المشهورة في ديوان الهذليين ١ : ١ ، وفي جمهرة أشعار العرب ٢٦٤ (ويضيق المجال هنا عن ذكرها أولا ، وهـي مشهورة لدرجة لا تحتاج الذكـر) وأنظر شعرا لخولة بنت ثابت في الأغاني ٩ : ٥٩ .

رزئتهم في ساعة جرّعتهم

كؤوس المنايا تحت صخر مرضم[136]

فمن تكُ أيام الزمان حميدة

لديه فاني قد تعرّقن[137] أعظمي

الغربة بعد الموت

لم تتوقف غربة الانسان الجاهلي عندما ذكرنا ، ولكنها تعدتها الى غربة الوحدة ، والانعزال في القبر بعد الموت « وهذه أبعد صور الاغتراب امعانا في الرهبة والجزع »[138]، فهو ان استطاع أن يستعين على صنوف الغربة التي ذكرنا ، اذ يأنس الى وحش الصحراء ، ويتخلص من العبودية واللون بقوة وذكاء يمتلكهما ، الا أنه في غربة الموت لا أمل له بالخلاص ولا بالعزاء • ولهذا قال بشر بن أبي خازم : كفى بالموت نأيا واغترابا[139]• ان أكثر ما يخشاه الشاعر من الموت وحدته ، اذ بعد فراق الأهل والأصحاب يتركونه وحيدا في العراء • فيتمنى الجاهلي أن يقهر الزمن والموت والتغيير وأن يشارك الأشياء صفاتها وخصائصها • وأبيات تميم بن مقبل التي تدور حول هذا المعنى يتمنى فيها الشاعر لو كان حجرا تمر به الحوادث والمتغيرات ، ويبقى شاهدا عليها جميعا :

---

١٣٦ ــ منضد •

١٣٧ ــ أخذن اللحم •

١٣٨ ــ الحنين والغربة ص ١١ ، وأنظر الوطن في الشعر العربي ٣٣٩ ، ومدخل الى الأدب الجاهلي ٢١٣ •

١٣٩ ــ ديوان بشر ص ٢٤ •

انْ ينقض الدهر مني فالفتى عرضٌ

للدهر من عوده وافٍ ومثلوم

وان يكن ذاك مقداراً أصبتُ به

فسيرة الدهر تعويج وتقويم

ما أطيب العيش لو أنّ الفتى حجر

تنبو الحوادث عنه وهو ملموم

ولقد آمن الشاعر الجاهلي بأن الموت حق ، وأن كل انسان لا بد وارده — وليست العبرة هنا بمعرفة الموت ، وانما بالايمان بأحقيته — فزهير يعلم ، تمام العلم ، أن الناس تفنى نفوسهم وأموالهم ، أما الدهر فيظل باقيا ، وأن الانسان يمر في هذه الحياة ، وقد مر بها أناس قبله ، وأنه في آخر عمره سيهوي في حفرة ، وكأن أحدا يدفعه اليها :

ألا ليتَ شعري هل يرى الناسُ ما أرى

منَ الأمر أو يبدو لهم ما بدا ليا

بدا لي أنّ الناس تفنى نفوسُهم

وأموالهم ولا أرى الدهر فانيا

واني متى أهبطْ من الأرض تلعة

أجد أثراً قبلي جديداً وعافيا

أراني اذا ما متّ بتّ على هوى

فثَمَّ اذا أصبحتُ ، أصبحت غاديا

الى حفـرة أهـوي اليهـا مقيمـة

يحـث اليهـا سائق مِنْ ورائيـا

ونجد شعرا كثيرا يؤكد على أن الموت آت لا محـالة ، ويسلم فيه الشعراء بهذه الحقيقة ، ولكن دون أي تعبير آخر[١٤٠]. وبعضهم الآخر يؤكد على ضرورة أن يعب من ملذات الحياة قبل أن يداهمه المـوت ، ولقد كان طرفة خير من عبر عن هذا الاتجاه فهو يطالب أن يروي نفسه قبل موته ، ساخرا من قيم مجتمعه ، وذلك لاعتقاده الكامل بأنه اذا مات فقد انقطع كل شيء .. انقطعت كل اللذائذ ، ويتساوى بعد الموت ، في التراب ، من ضحّى بماله في سبيل لذائذه ومكارمه ومن شحّ وجمع الأموال وتركها لغيره ، فلا شيء في القبر سوى تراب وصفائح ، ولما كانت الحياة لا تدوم على حال ، والموت يلاحق الانسان حتى يظفر به ، بل انه مربوط اليه ، وهو يجذبه متى شاء ، فلا بد من السخرية بالحياة والموت ، و لابد من انتهاب لذات الحياة قبل الموت[١٤١] :

فذرْني أروّي هامتي في حياتِهـا

مخافـة شُرْب في الحيـاة مصرّد

كريـم يروّي نفسـه في حياتـه

ستعلم إنْ متْنا غـداً أيّنا الصدي

---

١٤٠ ـ أنظر ديوان الأعشى القصيدة الثانية ، ديـوان السموأل ٨٣ ، والنابغة ٢١ ، وعدي بن زيد ٦٤ ، وطرفة ١٥٠ ، والمراقسة ٩٣ ، وامرؤ القيس ٤٨ ، وأمية بن أبي الصلت ٢٢٥ ، ٣١ ، وشعراء النصرانية ٢٢٥ ، وشعر الهذليين ٢٨١ وما بعد ، و ١٩٨ وحماسة البحتري ١٣٩ .

١٤١ ـ ديوان طرفة ٣٥ وما بعد .

أرى قبر نحّام بخيل بماله

كقبر غويٍّ في البطالة مفسد

ترى جثوبين من تراب عليهما

صفائح صمٌّ من صفيح منضّد

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي

عقيلة مال الفاحش المتشدِّد

. . . .

لعمركَ انّ الموت ما أخطأ الفتى

لكالطِّول المرْخى وثِنْيَاه باليد

ويذكر بعضهم الشباب ، والبطولات التي قام بها ، وكأنه من طرف يشير الى محاولة انتصاره على الموت . بأنه ان وقع اليوم في براثن الموت، فانه كثيرا ما انتصر عليه في ساحات القتال ، وأن له في حياته ما يغنيه ان مات اليوم(١٤٢) :

اليوم يُبنى لدُوَيْد بيته

يارُبَّ نهب صالح حويته

ورب قِرن بطل أرديته

ورب غيْل حسن لويته

ومعصم مخضّب ثنيته

لو كان للدهر بِلًى أبليته

أو كان قِرني واحداً كفيته

١٤٢ ــ طبقات فحول الشعراء ٢٧ ــ ٢٨ ، والشعر لدويد بن زيد القضاعي ، وأنظر ديوان امرىء القيس ٩٧ وما بعد . والأغاني ٣ : ١٢٩ .

انه يسلم بانتصار الموت عليه ، لأنه أقوى من الجميع ، إذ لو كان بطلا لصرعه في ساحة الوغى .

ويظل الموت فراقا لالقاء بعده . ولهذا يشعر الانسان بالغربة الأبدية، ويشعر أهله بهذه الغربة أيضا ، ان تجربة الموت اذاً قاسية على الميت وذويه لهذا الفراق الأبدي ، ولأنهم يحسون بأنهم لاحقون به آجلا أم عاجلا[١٤٣] :

فلو نبش المقابر عن كليب فيخبر بالذنائب أيّ زير
بيوم الشعثمين لقرّ عيناً وكيف إياب مَن تحت القبور

ويصرح النابغة الذبياني بخوفه من الموت ، ويرجو الخلود ، دون جدوى[١٤٤] :

ونحن نرجّي الخلد إنْ فاز قدحنا
ونرهب قدح الموت إنْ جاءَ قامرا

ويرى امرؤ القيس ، وهو مريض ، قبراً يحفر له فيقول[١٤٥] :

لمنْ زَحلوفة[١٤٦] زلّ بها العينان تنهلّ
ينادي الآخر الألّ ألا حلّوا ألا حلّوا

---

١٤٣ ـ المراقسة ص ٥١ ، والشعر لمهلهل .
١٤٤ ـ ديوانه ٦٣ و ٧٧ .
١٤٥ ـ ديوانه ١٧٤ .
١٤٦ ـ الزلاقة .

ويتساءل قراد بن غوية[147] ماذا سيفعل ابن أخيه مخارق إذا مات عمه ؟ ودلي في القبر في أرض رملية تسفي ترابها فوقه طويلا ، لأن مقامه فيها طويل ، هل يذكر ما كان من فعاله فيبكي عليه ، كما كان سيبكي اذا مات قبلي ؟ وهل سيشكر ما بذل له من ود ومال ، وسيذكر أنه كان له عما لطيفا ووالدا رؤوفا وأما حنونا ؟ انه لا يكتفي بأن يبكي نفسه ، وانما يطلب من الآخرين أن يبكوه ، فتقر عينه وهو تحت التراب بأن الناس لم ينسوه ، وأنه ليس غريبا وحيدا :

ألا ليت شعري ما يقولَنْ مُخارق
اذا جاوب الهامَ المصيِّح هامتي
ودُلِّيتُ في زوراء يُسْفَى تُرابها
عليَّ طويلاً في ثراها اقامتي
وقالوا ألا لا يبعدَنَّ اختيالُه
وصولتهُ اذا القرون تسامتِ
وما البعد الا أن يكون مُغيّبا
عن الناس مني نجدتي وقسامتي[148]

ويعبر أبو الطمحان القيني عن غربته بعد أن يموت ، غدا ، ويتركه أصحابه في القبر تفيض دموعهم ، وما كان القبر يوما مكانا صالحا ،

١٤٧ ـ شرح الحماسة ٢ : ١٠٠٥ وأنظر ديوان عدي بن زيد : ٨٤ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٣٤ ، ١٥٤ .

١٤٨ ـ أفضالي .

بئس هذا المكان الذي يقيم فيه الانسان طويلا ، وحيدا غريبا ، ان أشد ما يخافه الجاهلي من الموت هو هذه الوحدة والغربة الدائمة التي تنتهي بها حياته ، التي ذاق فيها صنوفا متعددة من الغربة[١٤٩] :

ألا علّلاني قبل نَوْحِ النوائـح
وقبل ارتقاء النفس بين الجوانـح

وبعد غـد لا لهف نفسي على غـد
اذا راح أصحابي ولست برائـح

اذا راح أصحـابي تفيضُ دموعهـم
وغودرتُ في لحـد علـيَّ صفائحي

يقولون هـل أصلحتم لأخيكـم
وما اللحـدُ في الأرض الفضاء بصالح

ويرى الأفوه الأودي أن كل شيء يهون أمام أن يوضع المـرء في القبر ويهال عليه التراب • ويرجـو أبو خراش نفعا من أخيه عروة اذا أصبح في القبر وتركه الناس ، عائدين الى منازلهم ، بين حجارة خشناء قاسية[١٥٠] :

لعلّك نافعـي ياعـروَ يومـاً
اذا جـاورتُ مَنْ تحـت القبـور

١٤٩ ــ الحماسة ١ : ٢٨١ وأنظر حاجز الأزدي في الاغاني ١٣ : ٢٠٨ •
١٥٠ ــ شعر الهذليين ٣٧٥ وديوانهم ٢ : ١٣٦ •

اذا راحوا سواي وأسلموني

لخشناء الحجارة كالبعير

وهذا الشنفرى يرفض أن يقبره قاتلوه . فهو يريد أن يتركوا جثته في العراء تتناوشها الضبع والوحوش . انه قد عاش غريبا عن الانسان وصديقا للوحش فلتأخذ الوحوش جسده ، وهو يعلم أنه بعد مماته لن يجد حياة تسره ، فلماذا يوضع تحت التراب وحيدا غريبا ؟(١٥١) :

لا تقبروني إنّ قبري محرّم

عليكم ولكنْ أبشري أمّ عامر

اذا احتملت رأسي وفي الرأس أكثري

وغودِر عند الملتقى ثمّ سائري

هنالك لا أرجو حياة تسرّني

سمير الليالي مُبْسلا بالجرائر(١٥٢)

ويخشى الشاعر على ذويه بعد موته من أن يغدر بهم الزمان، ويجور عليهم الناس بعد موت من كان يرعاهم ويعولهم . وقد أصاب غلام من بني وائلة ابن صعصعة بشر ابن أبي خازم بسهم ، فاجتمع اليه أصحابه فقالوا له : أوص . فقال(١٥٣) :

---

١٥١ ـ الأغاني ٢١ : ١٨١ ، وشرح الحماسة ٢ : ٤٨٧ .

١٥٢ ـ طول الليالي مرهونا بآثامي . وأنظر المفضليات ١٠٠ ، وطبقات ابن سلام ٢٣٣ ، ١٣٥ ، والكامل ١ : ٣٢٨ ، ٣٢٥ ، والاغاني ٢١ : ٢١٨ ، ١٥ : ٢٧٨ ، ٢٥٠ .

١٥٣ ـ مختارات ابن الشجري ٢ : ٣٢ ، وأنظر شعرا للمتلمس ينصح فيه ابنه في شعراء النصرانية ٣٤٣ وفيه يخاف من غدر الزمان بابنه من بعد موته .

أسائلة عميرةُ عن أبيها
خلال الجيش تعترف الركابا[١٥٤]

ترجّي أنْ أؤوب لها بنهب
ولم تعلم بأنّ السهم صابا

فرجّي الخير وانتظري إيابي
اذا ما القارظ العنزي[١٥٥] آبا

فمن يكُ سائلاً عن بيت بشر
فان له بجنب الرّدْهِ بابا

هوى في مُلْحد لا بد منه
كفى بالنأي موتاً واغترابا

رهين بِلىً وكل فتى سيبلى
فأذري الدمع وانتحبي انتحابا

مضى قصد السبيل وكل حيٍّ
اذا يدعى لميتته أجابا

---

١٥٤ ـ تسألهم عن الخبر .
١٥٥ ـ رجل ذهب ولم يعد .

لقد أصيب الشاعر في معركة وأيقن أنه الى الموت صائر . فبدأ يتخيل حال ابنته بعد عودة الجيش مخلفا وراءه بشرا في مقره الجديد ــ القبر ــ انها لا بد أن تسأل كل القادمين عن أبيها وماذا حل به . لقد كانت ترجي أن يعود سالما غانما ، ولن تدري بأن السهم قد أصاب والدها فأرداه . ويعبر بمرارة ، ساخرا ، عن ذهابه الأبدي بقوله لابنته : انتظري عودتي غانما ، اذا عاد القارظ العنزي . ثم يذكر بيته الجديد فاذا هو قبر بعيد لا بد منه لكل انسان ، وكفى بالموت نأياً واغترابا . ان الانسان مرهون بالفناء ، وهذا ينطبق على كل الناس . فلتبك ابنته العزيزة ، لتبك أباً لبى نداء الموت الحق . وكان قبل هذا يلبي نداء المعركة ولا يتخلف عن ساعة النزال .

وتزداد غربة الموت وطأة حين يموت الرجل في غير بلده وقومه ، انه لا يكاد يتحمل مأساة الموت وغربته ، بل انه كان يأنس ، وقت موته ، الى أهله بقربه ، مع علمه بأنه سيبقى وحيدا وغريبا في قبره ، ولكن كيف يتحمل عذاب الغربة قبل موته وبعده . انه يموت بين قوم أغراب . ولا يستطيع أن يشتم تراب أرضه ولا أن يكحل عينيه برؤية قومه وذويه(١٥٦) :

أجارتنا إنّ المــزار قريبُ

وانّي مقيم ما أقام عسيبُ

أجارتنا إنّا غريبان ههنــا

وكل غريب للغريب نسيب

---

١٥٦ ــ ديوان امرىء القيس ص ٥٦ والشعر لــه ، وشعراء النصرانية ٣٤ وما بعد .

فانْ تصلينا فالقرابة بيننــا

وانْ تصرمينا فالقريب غريب

. . . .

وليس غريبا مَنْ تناءت دياره

ولكنّ من وارى التراب غريب

ويعلن أنه لو مات في أرض قومه لآمن أن الموت حق ولكنه يموت في أرض قيصر حيث لا نسب قريب ولا وجه حبيب ، يموت بعيدا عن ديار قومه بعيدا[157] .

ويموت زيد الخيل الطائي[158] بعيدا عن قومه وأرضهم ، فيذكر حزنه على رحيل أصحابه وتركه في بيت منفردا ــ (قبر) ــ غريبا وبعيدا ، فيحيي مواطن قومه ، فهناك لو أنه مرض لعاده من يخفف عنه آلام مرضه وقسوة موته ، ويتمنى لو أن اللواتي عدنه . هنا في أرض الغربة ، لم يعدنه ، وعاده اللواتي يتمنى أن يراهن :

أمرتحل صحْبي المشارق غُدْوة

وأُتــرك في بيت بفردة منجـد

---

١٥٧ ــ ديوان امرىء القيس ص ٦٢ وشعراء النصرانية ٣٤ .

١٥٨ ــ ديوان زيد الخيل الطائي . ص ٥١ والأغاني ١٧ : ٢٤٩ .

سقى الله مـا بين القفيل فطابـة

فما دون أرمام فما فوق منشد[159]

هنالـك لو أني مرضتُ لعادني

عوائد من لم يُشف منهنّ مَجهد

فليت اللواتي عُدْنني لم يعدنني

وليت اللواتي غِبْن عنّي عُوّدي

الغربة الدينية

لم تنشأ أصول الديانة السامية في البوادي الرملية بل في الواحات، وكانت ، لأول عهدها ، ترتكز على تقديس الحجارة والغدران ، ولم يكن البدوي يقيم كثير وزن للدين[160] وقـد أكد القرآن علـى هـذا : « الأعراب أشد كفراً ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله »[161]. « قالت الأعراب : آمنا ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا : أسلمنا ، ولما يدخل الايمان في قلوبكم »[162] . ولقد امتاز الأعرابي بالفردية فقد دعا

---

١٥٩ ــ مواطن لقومه طيء . وأنظر المفضليات ٢١ ، ٦١ ، وشعراء النصرانية ١٩٢ ، ٢٨٣ ، ٢٩٥ ، والمراقسة ٤٤ ، والمفصل ٣ : ٣٦٩ وما بعد والأغاني ١٨ : ١٣٩ ، ٢١ : ١ ، والمخصص ٥٣ .

وأنظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ٨ .

١٢ ، ٢٥ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٦٣ ، ٦٨ ، والنوادر ١٩٥ وما بعد .

١٦٠ ــ أنظر تاريخ العرب (مطول) ٣٢ .

١٦١ ــ سورة التوبة ، الآية ٩٧ .

١٦٢ ــ الحجرات : ١٤ .

أعرابي ربه مرة بقوله : « اللهم ارحمني ومحمدا ، ولا ترحم معنا أحدا » .

ولم يكن للوثني العربي في جاهليته أساطير كالتي نعرفها عند الشعوب الغربية ، ويمثل الدين عنده أول أشكال المعتقدات السامية وأبسطها وأكثرها سذاجة[١٦٣] . ومع هذا فلم يكن له حظ وافر من أمور الدين ـ ونحن نستدل على هذا من الشعر الجاهلي ومما ذكره القرآن فيما بعد ـ وكان في قيامه ببعض الطقوس الدينية انما ينساق بقوة الاستمرار ، ويجري امتثالا لأحكام العرف والتقليد . وليس في الشعر الجاهلي ما يدل على شعور ديني عميق أو عاطفة روحية شديدة، والذي يقرأ حادثة امرىء القيس مع صنم (تبالة) يدرك هذا مباشرة : فقد مر[١٦٤] « بـ (تبالة) ، وبها صنم للعرب تعظمه يقال له (ذو الخلصة) ، فاستقسم عنده بقداحه ، وهي ثلاثة : الآمر والناهي والمتربص ، فأجالها فخرج الناهي ، ثم أجالها فخرج الناهي . ثم أجالها فخرج الناهي ، فجمعها وكسرها وضرب بها وجه الصنم ، وقال : مصصت بظر أمك ، لو أبوك قتل ما عقتني » .

والديانة البدوية مبنية على الايمان بوجود أرواح في الأشياء المادية، مما يرى الانسان حوله من أشجار ورمال وحجارة أو رياح وأمطار ونجوم ، ثم تكاملت صورة الألوهية الا أن المحسوسات الطبيعية بقيت مقدسة واعتبرت وسائط بين العابد والمعبود .

أما فكرة الآخرة فاننا لا نجد في الأدب الجاهلي اشارة واضحة اليها. والعبارات التي وردت فيها فكرة الآخرة ، بشكل غامض ، فانها ربما جاءت من تعاليم الديانتين التوحيديتين : المسيحية واليهودية .

---

١٦٣ ـ تاريخ العرب (مطول) ١٣٣ وما بعد .
١٦٤ ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٢ : ٣٦٣ .

وتقوم أخلاق العربي على فلسفة اللذة الحالية ، فكان أبدا دائبا في مهام الحيـاة التي تحتاطه ، وربما يلخص البيتان التاليان سـر الفلسفة العربية في الحياة[١٦٥] :

نطوف ما نطوف ثم يأوي ذوو الأموال منا والعديم
الى حفر أسافلهن جـوف وأعلاهن صفـاح مقيـم

ومع أن النصرانية كانت قد علقت أصولها بنجران واليهوديه باليمن والحجاز ، فلم يتم لهما شيء من الهيمنة على العقلية العربية في الشمال. على أن وثنية الجزيرة العربية البالية كانت تضعضعت وتدنت الى حيث أضاعت مكانتها ولم يبق لها فاعلية في أحيـاء نفوس الامـة الخاملـة وايقاظها ، فخرج عليها فئة اعتنقوا نزعة توحيدية غامضة وهم الحنفاء .

والحنيفية هي دين ابراهيم عليه السلام ، وأصلها من حنف أي مال — عن دين الوثنية — وقد كان الأحناف مثقفي العصر[١٦٦] ومع أنهـم آمنوا بالاله الواحد — الله — فاننا لا نستطيع رسم صورة للحنيفية دينا واضح المعالم ، وقد كان أتباعهـا قلائل ، وليس لهم كتاب ديني ، ولا مكان عبادة ، انهم أقرب الى النسّاك وأشبه بالمصلحين في ذاك المجتمع الوثني .

ولا نصل الى أواخر العصر الجاهلي حتى نجد استعدادا لفكرة الاله الواحـد التي أدت الى انحلال الوثنية ومهدت لقدوم الاسلام .

---

١٦٥ — تاريخ العرب (مطول) ١٤٢ ، وأنظر تاريخ العرب قبل الاسلام ٣٤٢ ، وفيه حديث مفصل عن الوثنية والتوحيدية في الجزيرة العربية قبل الاسـلام .

١٦٦ — تاريخ العرب قبل الاسلام ٤٠٤ وما بعد ، وأنظر مدخل الى الأدب الجاهلي ص ٦٦ .

ويعلل (احسان سركيس)[١٦٧] عـدم انتشار التوحيد في العصـر الجاهلي بأن الوثنية أكثر انسجاما مع القبلية لنزعتهـا الجبرية . وأن التوحيد ينسجم مع فكرة الدولة المركزية •

ولهذا وجدنا في نهايـة العصر الجاهلي ابتعادا عن روح الوثنيـة وتمسـكا بشعائرها فقط •

والذي بقي لنا من شعر الأحناف قليل . وجلـه يتعلق بالمعتقدات الدينية والنزعة التوحيدية والعزوف عن عبادة الأصنام . وبعض النظرات الأخلاقية وشيء من القصص الديني •

ونحن لا ندرس التوحيدية هنـا دينا ، وانما غايتنا أن نوضح أن هؤلاء الأحناف حين خرجوا على دين قومهـم ، انما كانوا أغرابـا في مجتمعهم ، وقد تحدوا بفكرهم وايمانهم قيما راسخة في مجتمعهم ، فقد هزئوا بالأصنام ، وحرموا الخمرة ، ودعوا الى الاله الواحد والى كثير من المثل الأخلاقية التي لا تتفق ومنطق العصبية القبلية • والبدوي وان كان رقيق الدين الا أن قيم الوثنية كانت قد أصبحت جزءا لا يتجزأ من عاداته وتقاليده التي يعتبرهـا أقدس المقدسات • وهكذا فان خروج هؤلاء الأحناف على قيم المجتمع الدينية والدعوة الى قيم بديلة جعلهـم أغرابا ضمن مجتمعهم •

وقـد ذكرت كتب التاريخ والسير والأدب أسماء بعض الأحناف وكثيرا من شعرهم[١٦٨] ، ونحن هنا لا نبغي دراسة هـذا الشعر ومـا يحويه من قيم جديدة ، بالقدر الذي سندلل من خلاله علـى غربتهـم وتفردهـم •

---

١٦٧ ـ المصدر السابق ص ٦٧ •

١٦٨ ـ سنستعرض نماذج منه فيما يلي •

لقد كان الجاهلي يشرب الخمرة ويفخر بشربها ويدفع أبهظ الأثمان في سبيل الحصول عليها ، وكان لتعلقه بها يعتبرها من المكارم ويتغنى بها ويصفها ومجالسها ، فجاء الأحناف فحرموا علـى أنفسهم الخمرة ، ودعوا الناس الى تركها ٠ فهـذا عفيف بن معد يكرب يرفض التصابي ودعوة النساء الى الفسق ، ويعلن أنه قد ودع الميسر والخمر الى آخـر حياتـه(١٦٩) :

وقائلـة هلـمَّ الى التصابي
فقلتُ عففْتُ عمـا تعلمينا
وودّعتُ القداح وقد أراني
بها في الدهر مشغوفاً رهينا
وحرّمتُ الخمور عليّ حتى
أكون بقعر ملْحود دفينـا

وكان ممن حرم الخمر علـى نفسه أيضا عامر بن الظرب وقيس بن عاصم وأمية الكناني والوليد بن المغيرة وأمية بن أبي الصلت والنابغة الجعدى ٠٠٠ وغيرهم كثيرون وكلهم له شعر في هذا المجال ، بل قل أن يخلو شعرهـم من الحديث عن تحريم الخمر(١٧٠) وهجـروا الأوثـان والأزلام وذكروا الله وحده ، ودين ابراهيم ٠ وكان منهم النابغة الجعدي اذ يقول(١٧١) :

الحمد لله لا شريكَ لـه ... منْ لم يقلْها فنفسَه ظلما

---

١٦٩ ـ الأمـالي ١ : ٢٠٥ ٠
أنظر الأغاني ١ : ٢٠٤ والمفصل ٤ : ٦٧٠ والأغاني ٤ : ١٢٢ و ٥ : ٩ ٠
١٧١ ـ الأغاني ٥ : ٩ ٠

واعتزل زيد بن عمرو بن نفيل الأوثان وامتنع عن أكل قرابينها . وطالب بأن تذبح لله ، وقد أخرج من مكة ومنع من دخولها حين فارق الوثنية ، وقيل انه كان بالشام فبلغه خبر النبي ، فأقبل يريده فقتله أهل ميفعة[172] .

ويعتبر أمية بن أبي الصلت[173] رأس الحنيفيين وله شعر كثير في الحنيفية ، ويحكى أنه نظر في الكتب وقرأها ، ولبس المسوح وتعبد . وحرم الخمر وشك في الأوثان ، وكان يعلم أن نبياً يبعث وتمنى أن يكونه وكان يقول :

كلُّ دين يومَ القيامة عندَ الله الا دين الحنيفة زورُ

وهو الذي يقول في الله :

اذا قيل مَنْ ربُّ هذي السما ... فليس سواه له يضطرب

ولو قيل رب سوى ربّنا ... لقال العباد جميعا كَذِبْ

ولقد ظل البدوي رقيق الدين ، كعادته ، حتى بعد أن أتى الدين الجديد ، الذي يعتبر متكاملا من النواحي الروحية والاجتماعية ، فقد ظل ايمانه به ضعيفا راجعا الى العادة ، وقد رأينا كيف وصف القرآن ايمانه هذا ، لقد دخل الاسلام ولكنه (أسلم ولم يؤمن) . ولهذا فقد عاش غريبا على هذا الدين الجديد ، وكان قلما ينفذ تعاليمه ، وكان . كلما سنحت له الفرصة ، يعود الى جاهليته بكل ما فيها . ولقد رأينا هذا أيضا ، فيما بعد ، في عصر الدولة الأموية ، حين عادت العصبية

---

١٧٢ ــ الأغاني ٣ : ١٢٧ ، وميفعة : قرية بالشام .

١٧٣ ــ ديوان أمية بن أبي الصلت ص ١٨ والأغاني ٤ : ١٢٢ وما بعد .

القبلية الى ما كانت عليه قبل الاسلام ، وساهمت الدولة الأموية في اذكاء الصراع القبلي مستفيدة منه في تدعيم سلطة خلافتها .

وسنتحدث هنا عن غربة هذا البدوي ، في ظل الدين الجديد ، ومن خلال الشواهد الحية ، لنؤكد أنه ظل ولفترة طويلة منتميا الى المرحلة الماضية ، ملتزما ، شكلا ، بالمرحلة الجديدة .

ويحدثنا أبو الفرج[١٧٤] عن عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، وكان سيداً في الجاهلية فأسلم ، « فلقد قام عيينة بن حصن الكوفة فسأل عن بيت عمرو ، فأتاه فنادى أي أبا ثور اخرج الينا . فخرج اليه مؤتزرا كأنما كسر وجبر ، فقال : انعم صباحا أبا مالك . فقال : أوليس قد أبدلنا الله تعالى بهذا : السلام عليكم ؟ قال : دعنا مما لا نعرف ، انزل فان عندي كبشا .... ثم قال له : أي الشراب أحب اليك : اللبن أم ما كنا نتنادم عليه في الجاهلية ؟ قال : أوليس قد حرمها الله ، جل وعز ، علينا في الاسلام ؟ قال : أنت أكبر سناً أم أنا ؟ قال : أنت . قال : فأنت أقدم اسلاما أم أنا ؟ قال : أنت . قال : فاني قد قرأت ما بين دفتي المصحف فوالله ما وجدت لها تحريما الا أنه قال : «فهل أنتم منتهون ؟» فقلنا : لا . فسكت وسكتنا فقال له : أنت أكبر سناً وأقدم اسلاما . فجاءا فجلسا يتناشدان ويشربان ، ويذكران أيام الجاهلية » .

ولم يقف الأمر عند ارتكاب الحرمات ، بل انهم صرحوا أحيانا باعتزازهم بماضيهم القبلي واعجابهم به وحنينهم اليه . يروى أبو الفرج أن لبيداً قد سمع ، في الاسلام ، رجلا يستهجن مدح قوم في الجاهلية ، ويعجب من هذا المديح ، فماذا فعل القوم حتى ينالوا كل هذا ؟ فيجيبه لبيد[١٧٥] : « ياابن أخي انك أدركت الناس وقد جعلت لهم شرطة ....

---

١٧٤ ـ الأغاني ١٥ : ٢١٩ وما بعد .
١٧٥ ـ الأغاني ١٥ : ٣٦٨ .

ودار رزق .... وبيت مال .... ولو أدركت طفيلا ـ الشاعر المادح ـ يوم يقول هذا لم تلمه » .

ويتجرأ بعضهم على أكل أموال المسلمين . فقد عين النبي مالك ابن نويرة على صدقات قومه ، فلما مات النبي فرق ما في يده من صدقات ، وكلمه بعضهم في الأمر فقال(١٧٦) :

وقلتُ خذوا أموالكم غير خائف
ولا ناظر فيما يجيء مِنَ الغد

فانْ قام بالأمر المخوّف قائم
منعنا وقلنا الدين دينُ محمد

بل ان بعضهم ارتد عن الدين ، وحركة الردة معروفة في التاريخ الاسلامي .ويعبر الحطيئة عن هذا بقوله(١٧٧) :

أطعْنا رسولَ الله اذْ كان بيننا
فيا لَعبادِ الله ما لأبي بكر

أيورثها بكراً اذا مات بعده
وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

---

١٧٦ ـ الأغاني ١٥ : ٣٠٥ وطبقات ابن سلام ١٧٠ ، وأنظر الكامل ١ : ٣٤٦ وفيه قصة قيس بن عاصم المنقري ، وقد فعل فعل مالك .

١٧٧ ـ الأغاني ، الأصبهاني ٢ : ١٥٧ .

والكامل ١ : ٣٤٥ والاغاني ١٥ : ٢١١ وفيه قصة ارتداد عمرو بن معد يكرب عن الاسلام .

فقوموا ولا تعطوا اللئام مقادةً

وقوموا ولو كان القيام على الجمر

فدىً لبني نصر طريفي وتالدي

عشية ذادوا بالرماح أبا بكـــر

وقصة اسلام جبلة بن الأيهم[١٧٨] وارتداده عنه معروفة في التاريخ الاسلامي أيضا . وكان تميم بن أبي بن مقبل[١٧٩] يبكي أهل الجاهلية. فقيل له : تبكي أهل الجاهلية وأنت مسلم ؟ فقال :

ومالي لا أبكي الديارَ وأهلهـا

وقد زارها زوارُ عكٍّ وحِمْيرا

وجاء قطا الأجباب من كل جانب

فوقّع في أعطاننا ثم طيَّرا[١٨٠]

ونلاحظ هنا أنه يكني عن المسلمين وعمالهم وجيوشهم بقطا الأجباب التي تجوب البلاد . وظاهـــر من هـــذا الشعر أن ابن مقبل كان يعيش بروحه وفكره في الجاهلية ، اذ انه ما يزال يذكر أيامها ويحن اليهـا ، ويشعر بالوحـــدة والوحشة في المجتمع الجديد الذي نشأ بعد انتشار الاسلام وانقضاء الجاهلية . ويفسر هذا ويجليه قوله :

---

١٧٨ ـ المفصل ٣ : ٤٢٨ .

١٧٩ ـ ديوان تميم بن أبي بن مقبل ص ١١ ، وابن سلام ١٢٥ .

١٨٠ ـ بقيـة القصيدة في ديوانـه ص ١٣٢ ـ ١٤٠ ، وأنظر ديـوان الهذليين ٢ : ١٥٠ .

أجِدّي أرى هذا الزمان تغيّرا
وبطن الرِّكاء من مواليّ أقفرا

وكائن ترى مِنْ منهل باد أهله
وعيد علــى معروفه ، فتنكّرا

والقصيدة كلها تمجيد لحياة الجاهلية ومثلها . وحسرة ولهفة على أيامها وعلى ما انقضى من عمره فيها :

فمــا نحن الا منْ قرون تنُقّصَتْ
بأصغرٍ ممّا قــد لقيتُ وأكبــرا

لقد كــان فينا مَنْ يحوط ذِمارنــا
ويحذي الكمّي الزاعبيّ المؤمّرا

ألهفي علــى عــزٍّ عزيــز وظهــرة
وظــل شباب كنتُ فيه فأدبــرا

والهفي علــى حيفٍ حُنيفٍ كليهما
اذا الغيث أمسى كابيَ اللون أغبــرا

ويورد محقق الديوان تفسيره لغربة تميم هذه بأنه عاش في الجاهلية، ولم يألف النظام الاسلامي الجديد ، اضافة الى أن الاسلام قد فرق بينه وبين زوجته الدهماء وهي زوجة أبيه ، خلفه عليها .

ويضيق منظور بن أبان بالدين الجديد لأنه أمره بتطليق زوجه (زوج أبيه سابقا) ، وكان يشرب الخمرة أيضا[١٨١] :

ويصر عمرو بن معد يكرب وبشر بن ربيعة على أخذ نصيب من الغنائم يعادل نصيب رجلين لكل منهما ، بعد بلائهما في معركة القادسية[١٨٢]. وكان عمر بن الخطاب قد خص حفاظ القرآن بجزء من الغنائم ، فجاءه بشر بن ربيعة فقال : « ما معك من كتاب الله ؟ قال : بسم الله الرحمن الرحيم ، فضحك القوم منه ولم يعطه شيئا ، فقال عمرو في ذلك :

اذا قُتلنا ، ولا يبكي لنا أحد،

قالت قريش : ألا تلك المقادير

نُعطى السويّة من طعنٍ له نَفذ

ولا سويّة إذ تُعطى الدنانير

وقال بشر بن ربيعة :

أنختُ بباب القادسيه ناقتي

وسعد بن وقاص عليّ أمير

وسعد أمير ، شرّه دون خيره

وخير أمير بالعراق جرير

---

١٨١ ـ الأغاني ١٢ : ١٩٤ وفيه تفصيل لقصته مع عمر بن الخطاب وشعر له لا يمكن أن يكون من مسلم .

١٨٢ ـ نفس المصدر ١٥ : ٢٤٣ .

وعند أمير المؤمنين نوافلٌ

وعند المثنى فضّة وحرير

تذكّرْ ، هداكَ الله،وقع سيوفنا

بباب قديس والمكرّ عسير

عشية ودّ القوم لو أنّ بعضهم

يُعار جناحي طائر فيطير

اذا ما فرغنا مِنْ قراع كتيبة

دلفنا لأخرى كالجبال تسير

ويغضب بعضهم اذ يذهب ولده للغزو ونصرة الدين الجديد . ويطالبه بالعودة اذ هو بحاجة اليه ، وان الأجر الذي يزعم الولد أنه يبغيه ، فيه الغبن لوالده . هذا حنظلة الخزاعي ، وقد أراد ولده الهجرة. يقول(١٨٣) :

أقول لقرّة(١٨٤) إذْ سُولتْ

له النفس ترك الكبير اليفَنْ

أحين فشا الشيب في لمّتي

وأفنى شبابي مرّ الزمن

---

١٨٣ ـ الأمالي ٢ : ٣٠٥ .

١٨٤ ـ ولده .

ترَوَّحْتَ في النفر الرائحين

وخلَّيْتَ شيخك بادي الحزَن

وأفردته والهاً في الديار

يصرفه الدهر في كل فن

أردْتَ به الأجْر فيما زعمتَ

وتركُكَ شيخَك عيْنُ الغبَن

وهاجر شيبان بن المخبل السعدي مع سعد بن أبي وقاص لقتال الفرس ، فجزع عليه والده جزعا شديدا ، ولم يصبر عنه ، فقرر بيع ماله واللحاق به ، فمنعه علقمة بن هوذة ، وقص قصته على عمر وأنشده قوله في هذا[185] فبكى عمر ورق له ، وكتب الى سعد أن يرده الى والده .

ومثله فعل أمية بن الأسكر[186] وأسامة بن الحارث[187]. ولو أن هؤلاء كانوا يؤمنون بالدين ايمانا حقا ، وبضرورة الجهاد من أجل نشره والانتصار له ، لما وقفوا مواقفهم تلك ، انما كان الأمر عندهم مجرد قبول بالدين الجديد ولم يكن لديهم الاستعداد النفسي ولا الاجتماعي لقبوله وفهمه على حقيقته .

★ ★ ★

١٨٥ ـ أنظر الأغاني ١٣ : ١٨٩ .
١٨٦ ـ ذات المصدر ٢١ : ١٠ ، وابن سلام ١٦٠ .
١٨٧ ـ ديوان الهذليين ٢ : ١٩٩ وما بعد .

خاتمة

كانت رحلتي مع الغربة في الشعر الجاهلي ممتعــة ، بالقدر الذي كانت فيه مضنية . فلقد بحثت طويلا عنها في هــذا الشعر الذي ضمته كتب الأدب قديمها وحديثهــا . وكنت أشارك الشاعر الغريب محنته ، وأحاول تمثلها في ذاتي .

فقد حددت وطن الجاهلي ، انه شبه الجزيرة العربية كلها ، ولكنه يخص نفسه بموضع لفترة مؤقتة ، ثم يغادر هــذا الموضع الى آخــر ، فتبقى للأول ذكرى في نفسه ، ذكرى الأرض وذكرى الأهل والحبيبة . فيبثنا همومه وانفعالاته حيث حل . ولأنه انسان قبلي بالدرجة الأولى ، فانه لا يكاد يجد أهلا ولا مجتمعا الا أهلــه وقبيلته ، يذكرهم ويندب الساعة التي فارقهم فيها ، ولكن ليس في يده حيلة . ان ظروف الحياة هي التي تدفع بالانسان الى الغربة مرغما . ووقفت مع المتلمس الضبعي وقد طرد من العراق حيث الأهل والأحبة ، وهو يبثنا لوعته لهذا الفراق ورفضه العودة طالما ظل الطاغية عمرو بن هنــد ملكا عليه . ومن الشام نسمع آهاته وآهات ناقته وهما يعزفان لحن غربة قاسية .

واتنقلت الى الشاعر الجاهلي في قبيلته ذاتها ، وضمن الاطار الذي

يعيش فيه ، فوجدت أن صنوفا من الغربة يحياها هـذا الانسان ضمن مجتمعه • فهناك الغراب ، ذلك الذي منحته الطبيعة اللون الأسود فعاش منبوذا محتقرا ، ومثلت له بعنترة الذي رفض الخنوع ، وحـاول أن يكسب المجد الاجتماعي من خـلال الحب والحرب • وهناك الدعـي والخليع ، فالأول لم يكن ينتمي الى قبيلة كبيرة تحميه وترعى شؤونه ، ولهذا كان لا بد من الانتماء الى قبيلة أخرى ولكنه يظل فيهـا منبوذا ويعامل معاملة خاصة ، هي أدنى من معاملة ابن القبيلة ذاتها • ويرتكب أحد أفراد القبيلة خطأ فيخلع منها ويهيم علـى وجهه بحثا عن الحماية فيلجأ الى أخرى فيعامل معاملة قاسية فيها أيضا • وقد يتحول الى متمرد صعلوك فيشكل مع أمثاله جماعات هجرت قبائلها ولجأت الى الصحراء تعيش عيشة الوحوش وتنقض علـى المجتمع الذي طردها لفقرهـا أو لسواد بعض أفرادهـا ولأسباب أخرى فصلتهـا أيضا • ثم جئت الى الشنفرى وقصيدتـه اللامية التي تعتبر بحق من روائـع الشعر العربي والعالمي أيضا فدرست الصعلوك من خلالها • وانتقلت الى غربة أخرى نشأت بفعل الغزو الذي كـان يسود المجتمع الجاهلي ألا وهي غربـة الأسير والسجين فصورت ذل الأسير وغربته وبؤس السجين وخوفه من الغد ، فهو اما مقتول واما متروك يعاني المذلة والغربة • وختمت الحديث عن غربة القهر بالحديث عن الجار والحليف • فهذان لم يجدا الا اللجوء الى من يحميهما ويرعى شؤونهما ولكنهما ، على كل حال ، لم يلقيا الا المذلة غالبا اذ (لا يكاد أخو جوار يحمد) • وتناولت غربة الحارث بن ظالم هذا الذي تشرد في الجزيرة العربية من شمالها الى جنوبها بحثا عن ملجأ له وعن حماية دون جدوى ، فظل طول حياته غريبا ، ووصل غربة الحياة بغربة الموت •

ثم تكلمت على غربة الذات فوجدت أن الشاعر الجاهلي قـد يجد نفسه في موقف يضطر فيه للانصراف عن واجبات العصبية حين يجد أنه

مظلوم ، أو حين يجد أن من العبث أن يلتزم بكل ما يمليه الناس عليه ، ولا يكتفي بالانصراف عن واجبات العصبية بل ويستهتر عابثا بالكثير من عاداتها وشؤونها وقرأت شعر طرفة وبصورة خاصة معلقته التي يتحدث فيها عن غربته الذاتية فهو الذي اكتشف سر الحياة والموت فلم يعد يأبه لأي شيء سوى لذته وتمرده واستهتاره . ووقفت عند الطلل وقد كثر حديث النقاد عنه منذ العصر الاسلامي وحتى الوقت الحاضر ، فوجدت فيه شيئا جديدا هو الحنين الى الماضي الذي يمثله هذا الطلل ، وعشت مع الشاعر الجاهلي تجربة الحنين الى الماضي هذه من خلال وقوفه على الأطلال ومن خلال شيخوخته أيضا وبكائه أيام الشباب بكل حرارتها وحلاوتها . ويدور الزمن دورته ويحط بقوم ويعلي من شأن آخرين فيذكر الشاعر عزته وعزة قومه بكثير من الأسى والحنين ويصور ذله بعد العز . ثم يأتي فصل الغربة الأخير في حياة الانسان يأتي الموت ذلك الشبح القاسي الذي يفرض نفسه على كل ما في الحياة ، فيشعر الجاهلي بخوف وبقلق وبغربة قاسية يتخيلها بعد موته ووضعه في القبر حيث لا أهل ولا أحبة ، وتزداد هذه الغربة ، دون شك ، وحشة وقسوة على ذلك الانسان القبلي الذي لا يتصور أن يحيا وحيدا . وختمت المطاف بالغربة الدينية فلقد بدأ المجتمع الجاهلي يتململ ، بدأ الانسان العربي يحس بأن قيماً كثيرة يجب أن تتغير فكان الأحناف الذين رفضوا الوثنية وبعض عادات الجاهلية السيئة . ثم جاء الاسلام ودخل العرب فيه أفواجا ، ولكن كان منهم من دخله هكذا دون ايمان . وقد ذكر القرآن هؤلاء . فقد كانوا ينتظرون الفرصة التي يعودون فيها الى فوضاهم وعاداتهم وأسلوب حياتهم . وكانت حركة الردة التي أظهرت بعض هؤلاء وكان منهم شعراء . وعبر شعراء غيرهم في غير مناسبة عن ضيقهم بالدين الجديد وأسلوب الحياة الذي يحاول ابعادهم عن عصبيتهم وبعض عاداتهم السيئة .

تلك كانت مظاهر الغربة التي استطعت تسجيلها في دراستي هذه ، فان أنا وفقت ، وأرجـو ذلك ، أكون قد وضعت لبنة في بناء نريـده متماسكا حيا ومتجددا ، وان أنا تعثرت ، فهذا من طبيعة الأمـور ذلك أنني في بداية الطريق .

* * *

المحتوى

	الصفحة
■ مقدمة	٥
■ تمهيد	٩
■ الغربة والاغتراب في المجتمع الجاهلي	١١
■ عوامل الغربة في المجتمع الجاهلي	١٧
■ **الفصل الأول** : الغربة عن الوطن والأهل	٣٣
■ الغربة عن القبيلة وموطنها	٤٥
■ دراسة موضوع الغربة في شعر المتلمس الضبعي	٨١
■ **الفصل الثاني** : الغربة عن المجتمع	٩١
■ الغراب ـ دراسة غربة عنترة	٩٣
■ دراسة الغربة في شعر عنترة	١٠١
■ الدعي والخليع	١١٣
■ الصعلوك والفقير	١٢٩
■ دراسة غربة الشنفرى	١٥٧
■ دراسة غربة عدي بن زيد	١٨٤
■ غربة الحارث بن ظالم	٢١٢
■ **الفصل الثالث** : الغربة عن الذات	٢١٧
■ الخروج على العصبية القبلية	٢٢٠
■ غربة طرفة بن العبد	٢٣٣
■ الحنين الى الماضي	٢٤١
■ خاتمة	٣٢١

منشورات الاتحاد لعام ١٩٨٢

اسم الكتاب	المؤلف	المادة	السعر
١ ـ الجولان الأهل والأرض	كتاب سوريون		١٠٠٠
٢ ـ اغان الى زهرة اللوتس	سليمان عواد	شعر	٨٠٠
٣ ـ دفتر الفرح	عزيز نصار	قصص للأطفال	٤٠٠
٤ ـ توقيعات على سيمفونية البحر والجسد	علي عيد حسن	شعر	٥٠٠
٥ ـ صور السهل الأزرق	عماد جنيدي	شعر	٦٠٠
٦ ـ سلاما ايتها الزرقة المسلحة بالبحر	محمود علي السعيد	شعر	٥٠٠
٧ ـ اناشيد متمردة	عبد الرحيم الحصني	شعر	٦٠٠
٨ ـ مقصد العاصي	أديب النحوي	قصص	٧٠٠
٩ ـ وكان ذاهبا في العذوبة	عصام ترشحاني	شعر	٥٠٠
١٠ـ حدود	شوقي عبد الأمير	شعر	٥٠٠
١١ـ صخرة الجولان	علي عقلة عرسان	رواية	٨٠٠
١٢ـ صراع في جزيرة الذهب	عبد المجيد القاضي	رواية للأطفال	٥٠٠
١٣ـ حكاية الحكايات	عين ال شلبي	مسرحية	٨٠٠
١٤ـ الرمال والياسمين	عبد الله خليفة	قصص	٨٠٠
١٥ـ الولادة والموت	احمد عودة	قصص	٥٠٠
١٦ـ سراج الليل	فؤاد كحل	شعر	٦٠٠
١٧ـ الواحـة	ليلى اليافي	قصص	٥٠٠
١٨ـ عربي يفكر	د. حافظ الجمالي	دراسة	١٠٠٠

منشورات الاتحاد لعام ١٩٨٢

اسم الكتاب	المؤلف	المادة	السعر
١٩ـ التطور الفني لشكل القصة القصيرة في الادب الشامي	د. نعيم اليافي	دراسة	١٨٠٠
٢٠ـ دارة	عبد الكريم الناعم	شعر	٦٠٠
٢١ـ المتعدد	عبد النبي حجازي	رواية	١٠٠٠
٢٢ـ بيت الخلد	وليد اخلاصي	رواية	٦٠٠
٢٣ ـ حصان الابانوس	خالد محي الدين البرادعي	مسرحية شعرية	٨٠٠
٢٤ ـ الغربة في الشعر الجاهلي	عبد الرزاق الخشروم	دراسة	١٤٠٠

تحــت الطبــع

اسم الكتاب	المؤلف	المـادة
ـ دراسة في الأدب المقارن	د. محمد التونجي	دراسة
ـ الأفعى والراعي	نظمية أكراد	قصص للأطفال
ـ حركة التأليف المسرحي في سورية	أحمد زياد محبك	دراسة
ـ انتظار آخر للوطن	رزق أبو زينة	شعر
ـ اليمامة	محي الدين زنكنة	مسرحية
ـ حــنظلة	د. عبد الرزاق صعب	قصص أطفال
ـ الأغــاني	بيان صفدي	شعر أطفال

سعر النسخة

داخل القطر العربي السوري : ١٤ ل.س

البلدان العربية الأخرى : ٢١ ل.س أو ما يعادلها

منشورات اتحاد الكتاب العرب
طُبع في دار الأنوار للطباعة - دمشق

١٩٨٢/١١/٢٠٠٠

هذا الكتاب

تطمح هذه الدراسة الى قراءة جديدة للشعر الجاهلي ، منطلقة أساساً الى التراث القديم وقراءته قراءة معاصرة ..

ويحاول المؤلف ان يوضح ان في شعرنا العربي القديم جوانب انسانية هامة في المديح والهجاء والفخر ، واننا يجب ان نميط اللثام عن هذه الجوانب ونغني دراساتنا النقدية بها ..

وتمثل هذه الدراسة استجابة لنداء الدارسين المعاصرين للأدب العربي القديم بضرورة قراءته قراءة ثانية بعيدة عن الوصف ومستخدمة منهجاً واضحاً ومحدداً يكشف جوانب مضيئة وهامة في هذا الأدب .

السعر :
داخل القطر العربي السوري : ١٤ ل.س
البلدان العربية الأخرى : ٢١ ل.س أو ما يعادلها

دار الأنوار للطباعة
دمشق - المنطقة الصناعية - جانب بورسعيد
هاتف ٤٢٤٧٣٤ - ٤٥٩٦٧٨